المكتبة الإسلامية

الْكِتَابُ الْمَكْنُونْ

أوّلُ كتابٍ من نوعِهِ يبحثُ في شأنِ روُحَانيّةِ القرآنِ الكريم

للدَّاعِية الإسلاميّ الكبير الأُستاذ:

مَحْمُودْ عِزِّ الدِّينْ بَرَكَاتْ

بطاقة الفهرسة

اسـم الكتـاب:	
قـام بالتهيـذيب:	
الطبعـة:	ط أولى / ١٤٣١هـ - ٢٠١٠ م
الناشـر:	مكتبة الإيمان - مكتبة جزيرة الورد
رقـم الإيـداع:	
التـرقيم الـدولي:	

مكتبة الإيمان - المنصورة
أمام جامعة الأزهر ت : ٠٥٠/٢٢٥٧٨٨٢

مكتبة جزيرة الورد - القاهرة
ميدان حليم خلف بنك فيصل - شارع ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا
٠١٢/٩٩٦١٦٣٥ - ٠٢/٢٧٨٧٧٥٧٤ - ٠١٠/٠١٠٤١١٥
٠١٠/٠٠٠٤٠٤٦

مكتبة جزيرة الورد - القاهرة
شارع محمد عبده - أمام الباب الخلفي لجامعة الأزهر
ت : ٠١٢/٢١٠٨٤٩٣ - ٠٢/٥١١٤٣٧١

الْكِتَابُ الْمَكْنُونْ

مِن مؤلَّفات العالِم الجليل المغفور لهُ بإذنِ اللهِ تَعالى
فَضِيلةِ الأُستاذ:

مَحْمُودْ عِزِّ الدِّينْ بَرَكَاتْ

إِمام وخَطيب مسجِد حسين بِكْ بالدقهليّة – سابقًا
رضِيَ اللهُ عنهُ وأرضاه وطهَّر ثَراه ونفع بعلمه أُمَّة المُسْلِمين
آمِينْ

إهــداء

الحمدُ لله والصَّلاة والسلام على رسُوله الَّذي اصْطَفاه، حامل لواء الحق للموحِّدين، محمّد بن عبد الله النبيّ الأُمِّي، وعلى آله وصحْبه، ومن اتَّبع هدْيه واستنَّ بسُنَّته إلى يوم الدين ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

أمّا بعد:

قال تبارك وتعالى في كتابه الذي نزَّله وحفِظه:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

إلى رُوح الرجل الذي علَّمني أن يكون لي رأيٌ ورُؤْية...

إلى رُوح الرجل، الذي كانت مبادؤُهُ -وما تزال- نِبْراسًا يَهدي السَّائرين على درْب الحقيقة.

<u>الأُستاذ الجليل المرحوم/ مَحْمُودْ عِزِّ الدِّينْ بَرَكَاتْ</u>

لا أملِكُ إلا أن أُهْديه مؤلَّفه القيّم النّفيس الذي انكبَّ على وضعه وتحقيقه عام ١٩٦٨م، وكان عمري -وقتها- لا يتجاوز الأعوام الخمسة، وما يحويه بين ضِفَّتيه من فكْر إسلاميّ مُستبصر مستنير، في زمن أحوج ما يكون إلى الاستبصار والاستنارة.

والدي ومعلِّمي العزيز...

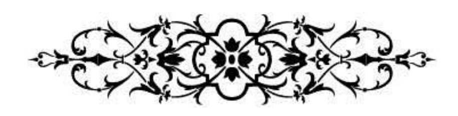
من أصغر أبنائك، إلى رُوحك الطّاهرة في علياء الخلود ﴿ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

جمعنا الله وإيّاك على خير ورحمة ومغفرة وعفْو، إنه -سُبحانه وتعالى- ربُّ ذلك والقادر عليه.

بتواضُع من نَجْلك الأصغر/ **<u>أَشْرَفْ مَحْمُودْ عِزِّ الدِّينْ بَرَكَاتْ</u>**.

القاهرة

٢٠٠٩م - ١٤٣٠هـ



أَعوذُ باللهِ العظيم من الشيطان الرجيم

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾

[سورة الواقعة]

تقديم المؤلِّف

بادرتُ كتاب الله -تعالى- في بَوَاكِير حياتي، وكان أبي -رحمهُ الله- شديد الكَلَفِ بتلاوته في الأَسْحَار، عن وعيٍ كامل وأدب مُتَبتِّل، وكأنما كانت تِلاَوَتُهُ -رحمهُ الله- وحْيًا أتلقَّاهُ بين النوم واليقظة، الأمر الذي جعل هذا الكتاب نجوى ضميري ولحن تَرَنُّمِي، كلّما خلوتُ بنفسي تحت الأشجار أو على ضِفَافِ الأنهار.

وكلما تقدَّمت بي السِّن، ازداد جلاله وُضُوحًا، وازدادت نفسي إلى استجلاء أحاسِنِهِ طُمُوحًا، إلى أن وجدتُ نفسي عند منتصف الحلقة السادسة من عمري، أَعْتَبِرُ غريبًا -بالنسبة إليَّ- ما يُطالعني به الكثير من كُتُبِ التَّأْوِيل، التي أطلقُوا عليها اسمَ التفسير، وعَلاَ القرآنُ عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا؛ لأنه أَعْلَى مَقَامًا وأَحْسَنُ تَفْسِيرًا.

وراجعتُ نفسي إلى ما كتبه نوابغُ المفسّرين، فبدأتُ بالعَلاَّمة (فخر الدين الرّازي)، والحق أنه أوسعُ إخوانِهِ أُفُقًا، وأدقُّهم تفريعًا واستنباطًا.

على أنّي كنتُ أطمعُ في اسْتِجْلاء معاني الكثير من الآيات الّتي لها شأنْ، أيُّ شأنٍ في عالمِ الأسرار في النّبات والحيوانِ والجماد، ولكنَّ الشيخ -على سِعَةِ أُفُقه- لم تسنَحْ له خاطرةٌ فيما كنتُ أتوق إليه، فاندفعتُ بعده -رحمه الله-

إلى تأويل «النَّسَفِيّ» المسمى «مدارِك التَّنْزيل» فحمدتُ للرجل ما أبلَى في ميدان النّحو والرواية، وما أحكم -مثل سابقِهِ رضيَ الله عنهما- من الإصابة، ولكنّي لم أظفر بما كنتُ أصبو إليه، فوجدتُ بعد ذلك تفاسيرَ «ابن كَثِير» و«الكشَّاف للزَّمَخْشَري» و«رُوح المعاني للأَلُوسِيّ» و«الفواتِح والمفاتِح للنَّخْجَوَانِيّ» إلى «الخازن» و«الجمل» و«البَيْضَاويّ» وسِوَاهم، وخرجت من كل ذلك بحُكمٍ صادق على ما حُشِيَتْ به هذه الكُتب، وعلى رأسِها كتابُ «الجَلاَلَيْن» من الدَّسِيس الإسرائيليّ والخُرافات والتُّرَهات الركيكة[1]، وقد أشرنا في هذا الكتاب -بين أيديكم- إلى بعضِ ما وجدنا في تلك الكُتُبِ من الأوهامِ والتَّخَرُّصَات[2].

وبات لِزامًا علينا أن نَصْدَعَ بأمرِ الحق -جلَّ شأنُه- وبقدر طاقتِنا؛ لندفعَ عن كتابِ الله تعالى مُفْتَرَيَاتِ أعدائِه، ونعملَ على تحقيق أنبائِهْ، بعد دراساتٍ واسعةِ المدى في نُور التاريخ وعلومِ الحَفْرِيَّات ودراسةِ المواقِعِ والمواضعِ، الَّتي كانت تجرى عليها الحركاتُ الرِّسالية من نوحٍ إلى مُحَمَّد عليهما الصلاةُ والسلام.

وجديرٌ بالذكر أن نُشيرَ -فيما تطرَّق إليه البحث- إلى كثيرٍ من أدْوَائِنا العقليةِ وأمراضِنا الاجْتماعية، وما توارَثْنا منذُ الأجيال البعيدة من أوهامِ الإسرائيليين وشعوذةِ المَجُوسْ، مما نرجو الله تعالى أن يطهِّرنا منه، ويقدِّسَ أنفُسَنا عن شوائِبِه، وأن يُجَنِّبَنَا الزَّيْغَ والزَّلَلْ؛ ليجعَلنا من أولئك المُطَهَّرِين،

---

(١) الترهات الركيكة: التقوُّلات الضعيفة التي لا يقوم عليها دليل.

(٢) التخرصات: الافتراءات والأكاذيب.

اللآئقين بالسُّمُو إلى مرتبةِ مسّ القُرآن الكريم، مسًّا نُورانيًا تَغْشَانا منه نَفَحَاتُ قُدسِه ولمحاتُ أُنْسِه، وأن يَجْلُوَ على بصائِرنا من بصائِرِ آياته، ما يُجَنِّبُنَا ظُلماتِ الأوهام ومَتائِه الأفهام، وأن يجعلَ من هذا «الكتاب المكنون» شفيعًا لنا عند لقائِهِ تعالى.

ولا يفوتُنا التنويهُ بذلك الجَهد المشكُور والعملِ المبرُور، الذي قام به محررُ الكتاب، السيد المُلازم «بدوي عبد اللطيف صالح» الّذي كان يكتبُ بفَهم ويفهمُ بعِلم ويؤمنُ بما يعلم؛ ممّا جعلَهُ جديرًا بنعمةِ الكتابةِ في أسْمى موضوعٍ عُرِفَ فضلُهُ في الدنيا والآخرة، ضارعًا إلى اللهِ -تعالى- أن يُجْزِلَ ثوابَه ويجعلَ الحُسنى مَآبَه ... راجيًا إلى الله -سُبْحَانه- أن يُمِدَّنَا بروحٍ من أمره في تحريرِ الجزء الثاني من «الكتابِ المكنُون»؛ لنقدِّمَ للقراءِ أمثلةً مما وقع في كتبِ التأويل، ونَسْتَوْفِي بحثَ تاريخ الذين كتبُوا في تفسير القرآنِ الكريم.

ويحضُرُنا الآنَ مما قرأناهُ في «روح المعاني للألُوسي» من الزّعم بأن يُوسُفَ -عليه السلام- هو الذي قال: ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾ [يوسف: ٥٣] ولا أَدْري هل كان «الألوسي» يجهلُ قواعدَ التحقيق الجنائيّ، أو يتجاهلُ عدم وجود يوسُف في مجلسِ التحقيق، عندما قالت امرأةُ العزيز: ﴿ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ ﴾ [يوسف: ٥١] إلخ الآية، أمِ أنّه -عفا الله عنه- لم يقرأ بعدُ هذا النص: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦٓ أَسۡتَخۡلِصۡهُ لِنَفۡسِيۖ ﴾ [يوسف: ٥٤] بضمير الغائب، بما يدلُّ دِلاَلَةً قطعِيَّة على عدم وجود يوسُف -عليه السلام- بمجلس التحقيق الأخير، وعلى أنه كان لا يزالُ في السجن، عندما كانَ هذا القول يُقال؛ لأِنَّهُ عندما جاءَهُ الرسولُ من الملِك

للذهاب إليه من أجل تأويلِ الرؤيا، قال يوسُف لرسول الملك بعد أن رفض الخُروج: ﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴾ [يوسف: ٥٠] فعاد رسولُ الملك -وَحْدَهُ- ليُبْلِغَ ما سَمِع. وعلى هذا قام التحقيقُ في غَيْبَةِ يوسُف، الذي أرادت امرأةُ العزيز أن تُعْلِنَ حَقَّهُ في البراءة، وألاَّ تخونَهُ بالغيب، في تأكيدِ الاتّهام، مُعْترفةً بأنّها هي التي راوَدَتهُ عن نفسه ﴿ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ [يوسف: ٥١].

وإذا كانت هذه المسألةُ البسيطةُ قد عَمِيَتْ على «الألُوسِيّ» صاحب «رُوح المعاني»، فما بالُنا إذا باشرنا أمرًا دقيقًا من نواحِي رُوح المعاني في القرآن؟! فهذا مثلٌ واحد مما حُشِيَتْ به صفحاتُ الكثيرِ من كتب التأويل عن غير دقةٍ في الفهم، أو تَعَمُّدٍ لفسادِ التأويل.

ولقد لَمَحْنَا تشابُهًا كبيرًا بين تفسير «النَّخْجَوانيّ» وأسلوبِه وبين تفسير «ابْنِ عَرِبيّ»، فكلاهما يتعمَّقُ تعمقًا مُشرَّبًا بروح التّصوف، مع العلم أن الله -تعالى- أنزل هذا الكتاب على أمةٍ أُمِيَّة، لم تقرأْ فلسفاتِ الهند ولا سَفْسَطَاتِ المجُوس، ولم تطلع على ما كتب الإغريقُ -اليونان- عن وَحْدَةِ الوجود، كذلك كان الرسول عليه السلام نبيًّا أُمِيًّا، لم تَجْنَحْ به المُطَالَعَاتُ إلى حكمة الفراعنة ومدارس هِرْمِسْ «إدريسَ» عليه السلام، كلُّ ذلك يجعل من العسير الجُنُوحَ بمعاني الآيات البيِّنَات عن نَهْجِهَا القويم وصِراطها الواضح المستقيم، والزَّجِّ بها في مَعْمَهَانِ[1] الجدل وفلسفات اليأس، بينما هي تخاطبُ عامةَ العرب في أعماقِ الجاهلية، معتمِدةً على شيءٍ واحد، هو سلامةُ الفِطْرَة: حِدَّةُ الذكاء

(١) معمهان: تخبط في الرأي وضلال في التصور.

وشدةُ الأَنَفةِ[١] وقوةُ السَّلِيقَة.

فهل يَمْضُونَ في قالٍ وقِيلِ	**وفي جدلِ الغُدُوِّ أو الأصيلِ**
وفي اسْتِكْنَاهِ رُوحِ الرُّوحِ عفوًا	**وفي فحصِ المُطَابِقِ والمَثِيلِ**
وفي البُرْهَانِ أَقْطَعُ كُلِّ سَيْفٍ	**وما يَتْلُوهُ من هذا القبيلِ**
وتلك مَحَجَّةٌ بَيْضَاءُ فيها	**جَلاَءُ الصُّبْحِ بالَظِّلِّ الظليلِ**
وليس يَصِحُّ في الأذهانِ شيءٌ	**إذا احتَاجَ النَّهَارُ إلى دليلِ**

لهذا نرى أن جميعَ ما وردَ من قولِ الخَوَاصّ أو العارفين أو القوم -كما يُسَمِّيهم البعض- تحت عنوان من باب الإشارة، لا يكونُ مُلْزِمًا لجُمْهُور الأُمَّة.

فالأقوالُ في «باب الإشارة» لا تتعلقُ بعُمُومية الدعوة لسَوَاء العرب، أمّا الذين درسُوا الفلسفاتِ الأخرى، فلكلٍّ منهم ما يحلُو له من الإشارات المُخْتَبِئةِ خلفَ العبارات؛ لأنَّ القرآنَ الكريمَ كتابُ العِبَارَةِ أولاً، ومن ثَمَّ يكونُ نورًا، والنورُ ليس من الخفاءِ بحيث تقومُ في شرحِهِ تلك المَعَامِعُ[٢] الجَدَلِيَّة.

ولهذا كان الصِّدِّيقُ ﵁ ينادي بالكلمةِ المأثُورة: «تركتُكُمْ على المَحَجَّةِ البيضاءِ ليلُهَا كنهارِها» لأجْل أنَّ القرآنَ الكريم ورْدٌ عذب، يقصِدُ إليه الصادِي[٣] ليَرْتَوي لأوّل وَهْلَة.

---

(١) الأنفة: عزة النفس.

(٢) المعامع: ضلالات الخوض في الباطل.

(٣) الصادي: المتعطش.

أما محاولةُ الإحاطة، فلن تكونَ إلا نتيجة لمقدّماتٍ مُحْكَمَةِ القياس من التعمُّقِ في الدراسات، واسْتِقْرَاء أسرارِ اللغةِ العربية، وهذا شأنُ الخَوَاص، وإنما يُهِمُّنَا رعايةُ الجماهيرِ المَدْعُوَّةِ بالقرآن إلى دارِ السلام؛ ومن أجلِ ذلك قدَّمنا هذا الكتابَ بين يديْ جزئِهِ الثاني؛ استمرارًا لدعوةِ الحق ونورًا نتزوَّدُ به لليومِ العظيم، ﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [يونس: ٢٥].

مَحْمُودْ عِزِّ الدِّينْ

من وحْيِ القلم

للملازم/ بدَوِي عَبْدِ اللَّطِيفْ صَالِح

كانت نفسي توّاقةً في مطالعِ شبابي لدراسةِ معاني القرآن الكريم دراسةً يطمئنُ إليها القلب وينشرحُ لها الصدر، وكانت تَعْرِضُ لي آياتٌ من القرآن أجدُ نفسي فيها صاديًا[١] إلى التَّذَوُّق، وكان يدفعُني هذا الظمأُ الوجدانيّ إلى محاولة الوصولِ ومعرفةِ الأصول، فأندفعُ من كتب التفسير إلى ما يمكنُ الحصولُ عليه، والإقبالُ على مُطالعته في الزمن الذي يسمحُ لي به عملي المتواصلُ الدقيق، ولكنَّ قراءاتي لم تكن كفيلةً بما أتوقُ إليه.

فلما شاء القدرُ الحكيم والفضلُ الكريم أن يُبْرِئَ عِلَّتِي، دفعني إلى أحدِ المساجدِ المشهورة، وتوجَّهتُ إليه، وأنا أعلمُ الكثيرَ عن خطيبِ المسجِدْ من ناحيةِ تأويلِ الذكرِ الحكيم، فما أن انْتَهَى من صلاةِ الجُمعة، واستَوى إلى المصلِّين في الدرس، حتى بدأ الجمهورُ بذكر الأسماءِ الإلهية: الله - النُّورُ - الهَادِي، بصوتٍ جماعيّ، وكأنَّما كان هذا الافتتاحُ مِفْتَاحًا لقلبي، واستمعتُ إلى أسلوبٍ في التأويل يصِحُّ أن يكونَ تفسيرًا للقرآن، بالمعنى العلميّ؛ لأنَّ الأستاذ لا يفسرُ القرآنَ إلاَّ بالقرآن.

وهنا استشعرتُ النَّهَمَ إلى التحصيل قدرَ الطاقة، ثم كانت مِنحةً من القدر أن التَقَتْ مشاعُرنا واجتمع قلبانا على تجاوُبٍ كامل، ثم أتمَّ القدرُ نعمةَ المقدِّر حيثُ بدأنا -وبإلهامٍ إلهيّ- نسجِّلُ للأستاذ كتابَهُ الَّذي لا يزالُ في طريقِ الاستكمال، وقد دعاه «الْقَبَسُ الخَالِدُ» أو «الرِّسالةُ التَّوْحِيدية»، وعندي أنها

---

(١) صاديًا: متعطشًا شديد التعطش.

أَصْرَحُ رسالةٍ في التوحيد، تقتربُ من العامَّة لسهولةِ أُسلوبها، وتسمُو إلى الخواصّ في مِضْمَار الحُجَجِ والبَراهين العلمّية. وبعد أن قطعنا شوطًا في الرسالة التوحيديّة، وذاتَ ليلة، رأيتُ الأستاذ قد تناولَ ورقةً وكتب عليها «الكتابُ المكنون» ثم قَفَى على أثر «الكتاب المكنون» بآياتٍ أَتْبَعَهَا شرحًا أخذ مني مسالك الفكْر، كما أخذ بيَدِي -ولله الحمدُ والمِنَّةُ والفضل- من مَتَائِهِ الحَيْرَةِ إلى إدراكِ حقائق، كانت تبدو أمامي في صورةٍ مُغَايرةٍ للصورة الحقيقيةِ التي عَلِمْتُهَا -ولأوّل مرة- حول مَكْنُونِيّة الكتاب، ومعنى المَسّ، ومن هم المُطَهَّرُون، والفرق بين المُطَهَّرِينَ والمُتَطَهِّرِينْ.

وبالإلهام الإلهيّ لم نتوقف عن متابعة تدوين «الكتاب المكنون» فكان تحريرهُ بالنسبةِ إلى نَفْسِي درسًا عميقًا عن كَثب من المعاني العليا، وعبادةً خالصةً لوجه الله تعالى في الوقتِ ذاتهِ. ويسَّر اللهُ لي -بحسن إلهامه ومددٍ من قوته- أن حَرَّرْتُ الكِتَابَ بالإملاءِ المُباشِرِ من المؤلّف. وكان من العسير بالنسبة لما أُعاني من جَرَّاء ظروفي الخاصة، وظروفِ العمل أن أتمكّنَ من تحرير هذا الكتاب؛ ولذلك أرى أن تحريرَهُ لم يكُنْ من ناحيتي بالذّات، ولكنها كانت -ولا تزالُ- نَفْحَةً ربَّانية عُلْيا.

أسألُ الله تعالى أن يَرْوِيَ بها ظمأَ الصُّدَاة، وأن يجعلَ منها مِنْهَاجًا للهُداة، وأنْ يتولاَّنا برُوحِ رعايته، ويلحَظَنا بعين عنايتهِ لإتمامِ تحرير «القَبس الخالد» والجزءِ الثاني من «الكتاب المكنُون»، وأن يَنْتَفِعَ بهِ جماعةُ المُسْلمينَ في مشارقِ الأرض ومغاربها، وأن يكشفَ بنوره -سبحانه وتعالى- عن المسلمين عِمَاية الغِواية، وأن يُمِدَّهُم بمَدَدٍ أبديٍّ من نور الهداية إِنَّهُ عَلَى مَا يَشَاءُ قَدِيرْ، وَهُوَ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرْ.

بـدوي



افتتاحية الكتاب:

تركيز تمهيدي للبحث

إن الإجماع منعقدٌ بين المؤمنين بالوحي الأعلى، على تنزيه كلام الله -عزَّ وجل- عن الحرفِ والصوت؛ لأنّهما حادثان.

وكلامُ الله -تعالى- قديم، بوصفه صفةً قديمةً قائمةً بذاتِهِ سُبحانه وتعالى.

ومن هنا نُشْرِف على المَلَكُوت الرُّوحي للقرآن الكريم؛ لِنعلم كيف نفهم معنى ﴿ مَّكْنُونٍ ﴾ وكُوْنُهُ ما يزال ﴿ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤] وهو في عَلْيائه أعزُّ وأمنَعُ من أن يَلْحَقَهُ أذىً، أو يَمْسَسَهُ دَنَسٌ من أوهام التأويل أو ضُرُوب التَّخييل. فما هو بقول شاعر ولا بقول كاهن، بل هو نور من بعض الرُّوح الأَقْدَس ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [المائدة: ١٦] وليس مجرّدَ ورق ورُموزٍ حرْفيةٍ حادثة، فإذا كان مُكَرَّم الغِلاَف، فما كان هذا إلا لعلْياء كتابه وبيان مبدأ كل شيء ومَآبه، بل لسُمُوِّ المجتمع الفاضل وآدابه. هذا هو النور الدَّافق الباعث، الذي يحرّر الأَنْفُسَ من يأْس الكُفر إلى رجاء الإيمان.

هذا النظام المستقر الثابت الدعائم، والقَبَسُ الخالد من سَنَا الحقّ المُبين، هذا السَّنا المتألق الذي أعطى البصائر من بصائر آياته حَقَّ إطلاق النَّظَر، ويأمر ذويها علنًا ﴿ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [يونس: ١٠١] ثم يتحسّر على إعراضهم ونَأْيِهم عنه، فيقول في مرارة: ﴿ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١] ثم يندِّد بتخلُّفهم عندما يقول: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. لن يُدْرَكَ

غَوْرُه ولن ينتهي دوره ولن يخلق علي كثرة الرد.

هذا كِتَابُ الحياة الحقيقية، التي لا يَشُوبُها وهْم ولا يعتريها انحراف ولا زَيْغ، وليس ورقًا من صفحات مليئة بالرموز الحَرْفِيَّة، بل هو تيسير الله تعالى ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ﴾ [مريم: ٩٧] فهو -من هذه الزاوية- ذِكْرٌ مُحْدَث يمر لوقته، معبّرًا بلسان عربي مُبِين عن الآزال والآماد المتطاولة المترامية ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] وكشْفًا للحقائق الكَوْنية الثابتة -بما هي عليه- شُهُودًا وعِلْمًا وذوقًا رُوحيًا فيَّاضًا، يُكَوِّن مَلَكَة الانقياد في رضا وسعادة، وتقديرًا لجميع الأحكام والآداب والشرائع والسُّنَن والنظم والمبادئ والأعراف، بين كافة سكّان الأرض من جِنّ وإنْس ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] لا من وحي الأوهام ولا تقلُّبات السياسة[1] بين الليالي والأيام وتقلُّبات القلوب التي يقول -هو- عنها: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

هذا كله -أيها المؤمن اللبيب الفطن- مَلكُوت القرآن وسر وحْيه وقوة إلهامه وحسن هدايته في مُخْتَلِف الفنون والعلوم والمعارف بلطف مشمول بعظمة، تُشْعِرُ السامع أن المتكلم جدير بأن يكون -وحده- علاّم الغُيوب.

هذه المعاني الأزليّة، والفرائض الرُّوحية هي «القُرآن» ... أما العِبارات الملفوظة فهي غير الإرشادات الملحوظة؛ لأن اللفظ -نفسه- حادِث، ولكنَّ

---

(١) راجع موقف الإمام أحمد بن حنبل في مسألة القرآن أو علم الكلام.

معاني الكلام الإلهيّ -المُعَبَّرَ عنها بلسان العرب- فهي قديمة أزلية قائمة بذات المتكلم جلَّ شأنه.

ومع هذا يبدو القرآن منيعًا في عليائه، مُنَزَّهًا عن أن يؤثر فيه سلطان أعدائه، أو أن يصل عاقل منصف إلى تكذيب أنبائه، أو جحد أنبيائه، أو إحاطته بأسرار أرضه أو سمائه(١).

فهذا هو الذكر الحكيم حقيقةً وما دونه -مما يُظَنُّ- مجاز.

وحيثُ إنَّ المُصحف الشريف إنما كان جديرًا بهذا الشرف الأعظم -بوصفه ورسمه وحروفه- إنما هو الدَّالُّ على كلام الله تعالى، الحاصل على شرف الإسناد والنقل المتواتر، بالإلهام الأعلى على كَتَبَةِ الوحي ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، بل كانوا أدوات طيّعة تُلهمها قوة القائل سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وبهذا يكون ظاهر الآية ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩] هو إجلال وتكريم للمصحف الدَّال في سبيل المَدْلُولْ، ولا جدال في لزوم الاحتِراز من الجُنابة والنَّجاسة -لمسًا أو مسًّا- عند تبادل هذا الدال الكريم؛ ليكون القارئ مستعدًّا بطُهره وسلاح الوضوء لقبول الفيض الإلهيّ عند

---

(١) ولكي نمثِّل لك ما نريد، نذكر أن الإنسان نفسه مكوَّنٌ من جسم وروح، فجسمه بائدٌ، وروحه خالد ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ ﴾ [يس: ٦٨] إلخ الآية، فإذا قلنا إن القرآن -هو أيضًا- ذو جسم وروح، فجسمه هذه الحروف والأصوات، وروحه هو المعاني التي انطوى عليها علم العليم أزلاً، ومن ثَمَّ لا نقول بحدوث القرآن بوصف كونه صفة قديمة أزلية قائمة بذات المتكلم جل شأنه.

التلاوة، المقصود بها العبادة.

وإنما استثنينا قراءة الجُنُب للقرآن، أو لمس المصحف لنقله، إذا كان بِنِيّة الذكر والتحصين، حيث أجمع الفُقَهاء على جواز قراءة الجُنب للقرآن بنيَّة الذكر والتحصين، كما قدّمنا أن الجُنابة لا تكون حائلاً بين العبد وهداه ودعائه.

ودعاؤه -المعنيُّ من هذا النَّص- إنما يُشير إلى الفهم والاستيعاب وحسن الاستنباط والتجاوُب مع رُوحانية الآيات؛ لأن المسّ شُموليّ كما قال تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: ١٧]، أي يشملك ويغشاك، كما أجازها في الضُّر ذَاته؛ لقوله قبل هذا النص ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ١٧].

وقد أشارت اللغة ونص القرآن على أن مسّ الرجل للمرأة هو غشيانها بالوْطءِ، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ [الأحزاب: ٤٩].

وهكذا جعل غشيان الشيطان بمجرى دم الإنسان مسًّا، كقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ولزِم من ذلك كله أن يكون المعنى المُراد من قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩] أي لا يُدْرِكُهُ ولا يتجاوب معه ولا ينفعل به ولا يتذوق معانيه، إلا المطهَّرون من شوائب الشَّك ونزعات الرَّيْب ونزوات الوهم. وهذا هو باطن المعنى من ظاهر النص، وهو ينطبق تمامًا مع كون الكتاب -مكنونًا- فإن المكنون غير ظاهر، وتقول اللغة إن كَنْزًا له في كِنٍّ

كَنِينْ وحِصْنٍ حصين وهو بمعنى الإخفاء والحرص والصَّوْن.

فأمّا من حيثُ الإخفاء فقد صرح القرآن بقوله: ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [القصص: ٦٩]، وقوله: ﴿ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٥] فهذا بمعنى الإخفاء والبُطون، لكنْ لا يمكن أن يكون الخفاء والبطون متعلّقًا بظاهر الكتاب المكنون، فإن هذا الظاهر مُقَرِّرٌ للعدل الإلهيّ ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤] فَفُهم أيضًا أن يكون المكنون هو تلك المعاني العُلْيا والرُّوحانيات السّامية، في بصائر الآيات ولوامع البيّنات، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت: ٤٩] لا في سطور الأوراق؛ لأنها تابعة ودليل بمظاهر النص.

وعلى هذا النحو يمكن أن يستقر في الذهن معنى -المكْنُونية- استقرارًا قائمًا على الاستقراء والتحري والتعمق وإسلام الوجه لما أَوْحَى به سبحانه مع إحسان النظر ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء: ١٢٥] فهؤلاء هم المعنيُّون بقوله: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩][(١)]. ولم يقل لا يلمسه، والفرق شاسع بين المس واللمس.

وإذا تقرَّر هذا، استطعنا أن نسمُوَ بالمفاهيم الكُليّة لمعنى كون الكتاب مكنونًا إلى مستوى التقدير اللائق بعظمة قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤] لأنه لا يحمل الاسم: العلي، والاسم: الحكيم

---

(١) الذين قال عنهم النص إنهم «المطهَّرون» بصيغة اسم المفعول أي أنهم طهرتهم العناية.

إلا بوصف كونه روحًا فعالاً بالذات والقوة ولهذا يقول تعالى: ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ ﴾ [الحشر: ٢١].

فقل لي بحق هذا الكتاب -أكان الجبل يتصدَّع ويتشقَّق ويخشَع لمجرد التِّلاوة الحَرْفية؟ وهل لو أنزلنا من طائرة -مثلاً- مُصحفًا على جبل لتصدّع وتشقّق[1]؟!

إنك تشعر -معنا- تمامًا أن المقصود بالقرآن ليس مجرد اللفظ، ولا مجرد الحرف وبالتالي ولا مجرد الورق، بل هو القوة الرُّوحية الفعَّالة التي أشرنا إليها آنفًا.

وبحسْبنا أن ننظر ببصائرنا إلى المعنى المُراد من قوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وقوله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم: ١] وقوله سبحانه: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴾ [القدر: ٤] ... وما إلى ذلك من الآيات التي نصّت على تنزُّله ونزوله، وهذا يشير -إشارة صريحة- إلى أنه مُنزَّل من ربك بالحق، ومن عليائه تنزُّلاً يدل على أن استقراءه في عليائه، التي أشار إليها النص بقوله ﴿ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا ﴾ لا بوصف ما نكتب نحن من كتب، ولا ما نفهم من عبارة «كتاب»، بل هو مُفوَّض في أمره ووصفه وحدوثه.

وليس أم الكتاب شيئًا معهودًا لنا كما هي كُتُبنا. ولا حق لنا في أن نتصور أو نتخيل أية صورة لأم الكتاب، فهذا الاسم من السَّمْعِيَّات التي يجب الإيمان بها تسليمًا مطلقًا وتفويضًا كاملاً إلى علم العليم الحكيم، الذي هو بالذات

---

(١) القرآن والأثر الفعال وتصدع الجبال وتسييرها.

«العَلِي الحكِيم» وكلامه صفته. ولذلك قال عن القرآن إنه «عَلِيٌّ حَكِيمٌ» مؤكّدًا ذلك بلام القَسَم.

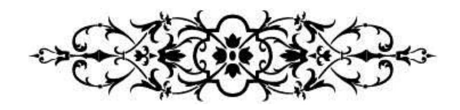
فهل يكفي أن ينظر الإنسان في ظواهر الآيات غير متعمّق ولا متأمِّل ولا متدبِّر، بينما هو يقول: ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩] وإنه ليَحْزُننا أن نرى الغالبية من المسلمين يقفون بالآية الكريمة ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٩] عند حد التحرُّز من لمْس المصحف فحسْب، بينما الآية قد نزلت قبل أن يوجد في العالم مُصْحف.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١-٢] لم يكن قد كُتب بعد، وإنما حدثت الكتابة بعد التنزيل ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وأمام هذه البراهين -التي جئنا بها على سبيل المثال لا الحصر- ندرك تمامًا أنه عندما قال ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ أي القرآن، لم يكن هناك مصحف واحد بين أيدي الناس بعد. فإذا قيل إنه يشير إلى ما سيكون، فإنه لا دليل على هذا الحصر من نفس النص، وإنما هو مَذْهب من مذاهب التأويل لا تُلْزِمُنا به حُجة، ولا يقوم به بُرهان منصوص لا في الكِتاب ولا في السُّنة.

فإن قال قائل: لقد قال المسيح -عليه السلام- بصيغة الفعل الماضي ﴿ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ﴾ [مريم: ٣٠] بينما هو حديث عهد بالولادة، ولم يكن قد أُوتي كتابًا ولا نُبوّة، وبأن هذا يدل على أن العبارات تشير إلى ما سيكون، قلنا ما معنى قوله تعالى: ﴿ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ إذًا وما معنى قوله تعالى: ﴿ مَّكۡنُونٖ ﴾ ؟

إنهم مُلْزَمون أن يتركوا التمحُّك الظاهر الذي يحاولون به تجاهل حقيقة أزلية القرآن وقِدَمه؛ لأنه متى كان صفة القديم -سبحانه وتعالى- كان قديمًا أزليًّا قطعًا؛ لأن الكلام صفة المتكلِّم؛ ولأنه قام الإجماع بين جماعة المسلمين على قِدم القرآن وأزليّته -كما قدَّمنا- وعلى نفْي حدوثه.



الفصل الأول:

افتتاحيةٌ:

فِتنة خلْق القُرآن
وثُبوت أزليّته وبَلاء العُلماء في ذلك

وإذا كان قد حدث -في عصر من العصور- ما كاد يُثير فِتنة بين المسلمين حول قِدم القرآن، ونشأ عن ذلك تَسْمِية علم التوحيد بعلم الكلام، فإن هذه الثورة -التي خَلَتْ- قد خَبت نارها وماتت وليدة، وثبتت أزليّة القرآن الكتاب.

ومما لا يمكن أن يُتصور نفي تلك الأزليّة، واعتبار الورق والحروف والاصطلاحات الرمزية كالشَّكل والنَّقْط اللذين قام بهما «الحجاج بن يوسف الثَّقَفِيّ» داخلاً -ذلك كله- في التقديس الأزليّ؛ لأن البَداهة قاضية بتنزيه كلام الله -سبحانه وتعالى- عن الحرف والصَّوت والحُدوث.

فلم يبقَ لديَّ شبهة سند يُلجأ إليه أو شِبه دليل يُعتمد عليه، ويكفى أن نسأل من تصدّى لهذا الأمر: ما هي القوة التي تُسَيَّر بها الجبال، أو تُقَطَّع بها الأرض، أو يُكَلَّم بها الموتى؟ في مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ ﴾ [الرعد: ٣١].

نسألهم أهي هذا المصحف أَمْ هي مُجرد التِّلاوة الصوتية؟ إنهم لن يبلغ بهم حب المكابرة إلى حد هذا الزعم. وبهذا تكون القوة التي لاَ يَمَسُّها إلاَّ المُطَهَّرُونَ هي التي تُسَيِّر الجبال، وتُقَطِّع الأرض وبها يُكَلَّم الموتى.

وهنا ينبغي أن نبحث الفرق -لُغويًا- بين المُطَهَّر والمُتَطَهِّر، من شوائب

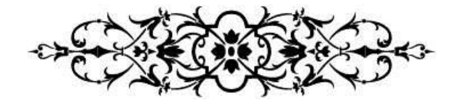
الأكدار ونوازع الأوهام.

وعلى هذا النحو نرى أن هذا الكتاب الأزليّ السابق إلى الله تعالى منزلةً، على الأخص أن الله -تعالى- قال في غير هذه المناسبة ﴿ لَّوۡلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ ﴾ [الأنفال: ٦٨]، وقوله: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٨].

فهل هذه -كلها- كتب ومصاحف؟

إنكم لن تقولوا نعم.

لهذا ندعوكم -في رفق- أن تُمعِنوا النظر دائمًا في معنى «كتاب»، وأن تُحسنوا النظر فيما أُنزل، وتُحسنوا المتاب؛ لأن الحصر الذي فرضمتوه -زعمًا- يهوى بهذا السُّمو القرآنيّ والعُلا الحكيم إلى حد الغِلاف القِشْريّ، الذي يحوى في باطنه أثمن كتاب وأنفس رُوح.



المبحث الأول:

سوء فهم القرآن
وعلاقته بالتَّمائم والتَّعاويذ والشَّعوذة

ولقد كان ذلك الفهم الخاطئ الشَّائع سببًا مُباشِرًا في انتشار استخدام التعاويذ والتَّمائم بين المسلمين، على الرغم من قوله صلوات الله وسلامه عليه: «**من تعلَّق -عَلَّق- تميمةً وُكِلَ إليها**» وهذا مهما يكن مكتوبًا بها، فليست بركة القرآن ولا رُوحانيَّته ولا تأثيره في مجرد الحروف والأوراق، وإلا وجدنا الكثيرين من أعداء القرآن قومًا مُباركين، متى أحرزوا مصحفًا من المصاحف التي يتيسَّر لكل كائن أن يحصل عليها في غير مَشقَّة. فهل هذا الوهم يُغْنِي عن معنى الفهم؟ وقد رأيناه ﷺ لا يكاد يأتي من سورة يس عند قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس: ٩] حتى ألقَى الله النوم على أربعين متآمرًا -فتىً جَلْدًا يحمل سيفًا بتَّارًا- كانوا قد أصرُّوا وأسرُّوا أن يقتلوا محمدًا بضربة رجل واحد ليلة الهجرة، بل ساعة الهجرة، بل لحظة الهجرة، فهل هو -عليه السلام- كتب الآية أو أَمَرَ بكتابتها في شيء ثم حملها وخرج عليهم، أم أنه قرأ فعلاً وروحًا وتوجُّهًا وإيمانًا وإسلامًا وإحسانًا، فانفعلت الحقائق ووقع الأثرُ وقوعًا إيجابيًا للتوّ واللحظة؟

وهذا هو أثر قوة القرآن الإكفائيَّة الفعّالة ليلةَ الهجرة.

هذا هو الحق أيها المتعصِّبُون الجامِدُون على الظواهر، الذين صرَفَهم الله -تعالى- عن فهم كتابه؛ لِما اتَّصفوا به من كِبْرٍ بالباطل، كما قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦]

فهؤلاء -وإن قرأوا أو كتبوا- محجُوبون بسِتر مستور عن حقيقة الكتاب، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٥]، وقال سبحانه: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۚ ﴾ [الإسراء: ٤٦] ... إلخ الآية.

فأنَّى لهم به الذكرى وأنَّى لهم به الانفعال، وأنَّى لهم به التأثُّر والتَّأثير؟ وأين هم من ذلك الرسول النبي الأُميّ الذي كان القرآن خُلقه ومَلَكَته الراسخة؟

فيكون الحاصل أن بركة القرآن في روحه لا في جسده، وأن القوة في سره لا في ظاهره؛ لأنه ما زال ولن يزال -عليًا حكيمًا- تنزيلاً من حكيم حميد، وما يزال قويًا فعّالاً جديدًا بِكْرًا لم يأتِ -بعدُ- تأويله، حتى يأتي تأويله.

وعلى المؤمن -حقَّ الإيمان- أن يتلُوَه حق تِلاوته، وأن يفهمه حق فهمه، وأن يتجاوب مع معانيه حق التجاوب. يومئذٍ -ويومئذ فحسب- نستطيع أن نقول إن هذا الرجل «مُطَهَّر»، مَسّ القرآن، وغشي آفاقه وبساتينه ورِياضَه، وجاس خلال حوادثه، وعاش أنبياءه وعصوره وحِكَمه البالغة ونِعَمه السّابغة.

هذا هو مسُّ القرآن، لا لمس المُصحَف كما كنتم تزعُمون، هذا هو معنى قوله عز شأنه: ﴿ كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ ، والمكنون أو الكنين غير الظاهر في عالم الشهادة بالصورة والحرف والرمز الحادث، تعالى الله من أن تكون صفة من صفاته حادثة؛ لأن الإيمان الحق أن تؤمن بكلام الله تعالى في ذاته وصفاته، وأن تلتمس من جانبه الأعلى أبديّة الفيض من نُور القرآن، ونَفَحات البيان فَيْضًا من لَدُنْه -سبحانه- على ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ -أي لا يزول- وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٢٤]؛ لأنه في أم الكتاب «عَلِيٌّ حَكِيمٌ» ﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ ﴾ ؛ لأنه ذِكر مُحْدَث يترسَّل منذ الأزل إلى الأبد على

ألسنة الناطقين ونظرات الناظرين وأعمال الخَلق أجمعين، بوصفه كتاب الرُّوح، وبوصفه النور الأعلى الذي ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَانَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ ويحُول بينه وبين متائه الحرب والخصام؛ لأنه علَّم به الإنسان ما لم يعلم ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

نعم -ورغم أنف كل مُكابر- هي آيات الكتاب المُبِين ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وإن لم تكن كلمات الله قد عَقدت أواصرَ المحبة والولاء بين الذين ورِثوها واستمعوا لها وأنْصَتُوا، وأثمرت رياض نفوسهم -بغَيْثها المنهمر- ثمرات يانعة نضيرة في كل حين، ولكل مناسبة ولأي احتمال. فما هو نصيبهم من ذلك الميراث المُقدَّس؟ وما معنى كون القرآن كقوله تعالى: ﴿ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ ﴾ [العنكبوت: ٤٩] إذا لم يكن القرآن ليس سوى هذه الحروف وهذه السطور وهذه الرموز التي لا اختلاف في كونها حادثة.

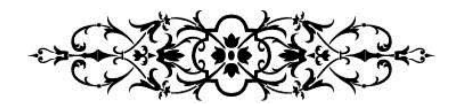
الحق أن القوم قد وقفوا وجَمدوا على ما كانوا عليه، وزعَموا أن القرآن قد تجمَّد معهم، وتوقف فيضه الإلهاميّ عند حدود مَا رسَموا أو رسمت لهم الأوهام في أكْناف الظَّلام.

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ ﴾ [البقرة: ٢٦] والواضح أن الذين ضَلُّوا بالقرآن ليسوا سوى هؤلاء الذين ضَرَبُوا حوله حصارًا ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢].

لقد رأيناه ﷺ تأخذه صَرْعة الوحي في منزل الوحي، فإذا تفصَّمت عنه تصبَّب جبينه الورديّ بحبَّات من العَرَق كأنهن اللُّؤلؤ المنثور، ثم ينظر فيما

حوله ثم يُمْلى على كَتَبَة الوحي ما أُلقِي به إليه، وهو أصدق عندما كان يقول «**نَفَثَ رُوح القُدُسِ في رَوْعِي**».

إذًا فليس ذلك إلا تنزُّل القُوى القرآنية من لَدُنْ حكيم حميد على قلب محمّد ﷺ، ذلك القلب الذي هو بمثابة صفحة بيضاء ما خَطَّ فيها شيئًا سِوى قلم الوحْي الإلهيّ الأعلى، فأين الأوراق من هذا المَقَام؟ وأين الحروف والأصوات؟ بل وأين الأحياء والأموات!.



المبحث الثاني:

القرآن نذير لمن كان حيًّا

فإن ظلُّوا على مواقفهم مُكابِرين فإنما أنزله ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٧٠] أما الذين ماتت قلوبهم فكانت غُلْفًا في أكِنَّة من كل دعوة فهم. أولئك الصُّم البُكم العُمي، وتدنّست أوعية قلوبهم بأقذار الشِّرك وأكدار الأنانية وَأَوْضار الأَثَرة وحاشا لله أن يَصُب لبنُ القرآن الأقدس حياة الفِطرة في أوعية مُدنَّسة لوّثها الرِّجس؛ ولهذا نُودي أهل بيته ﷺ بقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣] و﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١] وإلى هذا المعنى أشار قوله جل شأنه: ﴿ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ ﴾ [فصلت: ٤٤] ومن حقه -لهذا- أن يقول عنهم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ .

ومن أجل ذلك لا يراه إلا المبصرون و﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ ... وقد فهمت -علَّمني الله وإيّاك- من أي دنَس هم مُطهرون وفي أي مجلى هم يُبصرون ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ [الحاقة: ٤٠] وليس خيالاً، تخيّله شاعر ولا شعوذة كهَنُوتية، افتراها كاهن ماكر، بل هو ذكره وذكر من معه صلوات الله عليه وعليهم وسلامه ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ ﴾ [الأنبياء: ٥٠] وطريق مستقيم فلا تتبدَّلوه، وتدبَّروا قوله تعالى لرسوله المُجْتَبى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٨-١٩] ولا يكون البيان إلا تنزُّلاً من عَلْياء العِزة القرآنية الثابتة له بالنص ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ [فصلت: ٤١] معصوم من طرود الباطل وطيوف الأوهام والأخاديع وزُيوف الخَتَر -الخادع الماكر-

وصُنوف الكيد، والمكر الذي أشار إليه تعالى: ﴿ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ۚ ﴾ [يونس: ٢١] وقوله جل شأنه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ۗ ﴾ [فصلت: ٤٠] والإلحاد في الآيات، طمْس معالم الحقائق -الذي نُشير إليه ونتحدّاه- بضروب من التخريج وفساد التأويل وسَتر المعنى الأسمى الذي تنزَّل -مُحْدَثًا- من علياء العزة الأزلية القرآنية؛ لأن القرآن روح كليٌّ تنزّل على قلب كليّ بواسطة رُوح أمين. وهذا التنزُّل الروحي المثلث الزوايا لا كما زَعَمت نظرية الأقانيم الثلاثة المسيحية، بل هو كما يبدو في المِنهاج القويم ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ليُفيد التنزُّل من علياء الذات الأقدس إلى مقام العرش، إن كنت ببصائر الآيات بصيرًا ﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٩] ومن المُسَلَّم عند العلماء أن القرآن نزل ليلة القدْر من بيت العزة... فما أوردهم ببيت العزة هذا؟

وتنزُّل الذات الأقدس إلى مقام المُلك في تجليات الاسم -الرحمن- إنما هو بفضل الاسم -الرحيم- لأن التنزُّل بالفيض والإنعام بالوجود من غير مقابل، هو بذاته الرحمة العُلْيا التي وسِعت كل شيء.

فما أحاط به العليم، وأحصاه الكتاب، وخطَّه القلم، وما أوجدته القدرة، وخصَّصته الإرادة طِبق ما تعلَّقت به أزلية الاسم -العليم- وجعل هذا شعارًا عباديًا لَحَملة العرش ﴿ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا ﴾ [غافر: ٧] فهذا المقام الأسمى، الوارد في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ

وَذُرِّيَّـٰتِهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [غافر: ٧-٩].

فقل لي -بحقّ الله عليك- ألا تشعُر معي بسمُو التَّنزُّل الأعلى خلال هذه العبارات التي أخذت إلى العلياء بأيدي البيان العربيّ، والفصاحة البديعيّة إلى أسمى بُقعة وأقدس مَقام، فصاغت منها بيانًا رُوحانيًا مَهيبًا، وفيضًا قدسيًا يُحيى مَوات القلوب ويوقظ غفوة المشاعر ﴿ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [سبأ: ٦] فهل هذا مجرد عبارات؟ ونحن نقول كثيرًا من العبارات، فهل نجد فيها هذه الرُوحانية؟ ثم ألا تشهد معي هذه التجليات الكبرى التي تغمرُ النفس عند الاستماع إليها؟ وهي في أعماق النفس تمور ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦] وإذا لم تتجلَّ بصائر الآيات من عالَم النور إلى مشهد الظُّهور، في مثل قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ [النور: ٣٥] والذي يُوقَد هو المصباح، وليس الكوكب المُشبَّه به، وهذا المصباح ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [النور: ٣٦-٣٨].

فإذا لم تشهد البصائر من تنزيل هذه الآيات ما يصوِّره الكتاب من صور

لهذه السور، فكيف نسمّيها بصائر، وهم في عَمَه قائم، كما بيَّن ذلك تعالى في نفس سورة النور عندما قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩] وما هو الشيء الذي كفَروه فصاروا مخدوعين خُدعة جعلت أعمالهم هباء وأفئدتهم هواء، إنما هو ذلك النور الذي عمُوا عنه وضلُّوا بعده في ظُلمات تتراكم كلّما رَان على قلوبهم ما كانوا يكسِبون، فهم في ظمأ شديد إلى نعيم الدنيا ونعمتها الفانية، وما هي إلا لمعات من سراب خادع يراه الظمآن عندما يَضِل بين الصَّحْراوات والسَّباسب(١) المُترامية الأطراف، والتي لا يدرِى أولها من آخرها، فيظن -هذا الضّال- أن أمام عينيه لمعان الماء الذي هو نهمه الذي يُشْبِه تمامًا الظّمأ، حتى إذا أدرك من الدنيا متاعها وتوفرت لديه مطالبها لم تزل عجلة الزمن تدور به في غير هوادة، حتى إذا انتهت مردودًا به إلى الحافرة، لا تملك يداه شيئًا ﴿ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فليس المؤمن من آمن بمجرد الظاهر من عالم الشَّهادة، وهذا لا يمكن أن يكون -وحده- موضوعًا للإيمان، ولكن الإيمان إنما يكون بالأمور الغيبية والسمعيات العليا التي تخرُج عن نطاق العبارة وأفُق الإشارة ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

ولو كان القرآن مجرد خبر عن أمة من الأمم أو رسول من الرسل أو

---

(١) السباسب: المساحات الشاسعة الفارغة.

مصرع من المصارع، فلماذا يُطْلَب إلينا الاستمرار على تلاوته ﴿ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ ﴾ بعد أن علِمنا مؤدَّى تلك الأنباء وعمليات جميع الأنبياء؟ الحق أنه كتاب جديد في كل حين، من حيث انطباق الحوادث عليه، ومعجزته في أزليته السابقة على الحوادث جميعًا. هذا هو المعنى الذي ينطوي عليه المراد بكلام الله سبحانه وتعالى وهو كلام له الأزلية والأبدية معًا، لا تنتهي عجائبُه، ولا تُحصى غرائبُه، ولا تُغْلَقُ مذاهبُه، ولا تُحَدُّ مواهبه ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ [لقمان: ٢٧]، ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]. فهل المراد عجز هؤلاء جميعًا عن أن يأتوا بمصحف مكتوب؟

الآن اتضح لك يا أخي ما غمُض عنك من قبل، عندما توهّمت أن معنى قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ من الحصار والنص في صورة المصحف الشريف وفي لمسه للجُنُب والحائض وغير ذلك من أسباب التلوُّث. حاشَا للقرآن أن يتلوّث، ولقداسته أن تُدَنَّس. إنما نحن قرّرنا تكريم هذا المصحف بوصفه وعاءً يحتوي ذلك السائل الأزليّ الأبديّ الذي يَفيض بالنور السرمديّ لتحيا القلوب وتصفُو البصائر والسرائر. ومن أجل ذلك أجمع المسلمون على تنزيه المصحف عن اجتراء الذين لا يكترثون بالجُنابات، ويجترئون بتناوُله في استخفاف ووقاحة؛ لا لأنهم سيُهينون كلام الله، بل لأنهم يهينون غِلاف كلام الله ودليله الدالّ على ما فيه من معانٍ أزلية، هي الكلمات الإلهية التي هو مصدرها بوصفه المتكلِّم، وحاشا له أن يَلْحَقه أذى من عباده، ولو أجاز القرآن لُحوق الأذى الاعتباريّ

إليه -تعالى- لصراحته في ذكر الذين يُؤذون الله ورسوله -تعالى الله عن التأذِّي والألم عُلُوّاً كَبيرًا- ولكنها النسبة والكناية كتبادُل الحب بينه تعالى وبين عباده الذين قال عنهم: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦] وليس بالانفعال النفسانيّ والانعطاف الوجدانيّ؛ لأن كل هذا منافٍ لما ورد عنه -سبحانه وتعالى- من قوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] وهذه المشاعر مماثلة لمشاعر البشر وهو -تعالى- مُنزَّه عن ذلك. على أن المقصود بالمسّ في باطن الآية، هو غير المقصود بالمسّ في ظاهر اللفظ الذي أطلقناه على اللمس والحمل، وشتَّانَ بين معنى اللمس ومعنى المس، فالباطن من النص الذي يجب أن يكون قائمًا على المنصوص في تقديس كتاب الله وكلامه.

إن المسَّ ليس سوى الفهم والاستيعاب واستقراء الحقائق، والتأثُّر والانفعال بها في مجالِي الآيات وصور السور والتجليّات الملكوتية، التي لا يمكن الإعراب عنها؛ لأنها مشاعر رُوحانية لا تحيط بها العبارات، وإن ألمعت عنها الإشارات:

مُرَامٌ شَطَّ مَرْمَى الْعَقْلِ عَنْهُ ... فَدُونَ بُلُوغِهِ بَيْدَا تَبِيدُ

كَلاَمُ اللهِ وَهُوَ هُدىً ونُورٌ ... مَقَامٌ ليسَ تدركُهُ العَبِيدُ

بِه تَتَطَاوَلُ الآمَادُ تُتْرَى ... وهذا الذِّكْرُ من أزلٍ جديدُ

ولا يمسُّه -من هذه الزاوية وبهذا المعنى- إلا المُطَهَّرون من غيوم الظُّلُمات ورُكام الأوهام والسيئات وأرْجَاس الغَفَلات وجُنابات الهوى وعَمَه

الأبصار والبصائر وانغماس الحقائق. فهم عنه -بسبب ذلك- في أكِنَّة، أما الأوَّلون فهو يناديهم ﴿ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ [سبأ: ٥١]، شَفَّتْ أنفسُهم وصفَت مراياهم من أدناس الغُرور، فتجلَّت فيها الحقائق واضحة جلية؛ لأنه ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور: ٣٥] هذا هو القرآن، وهذا هو معنى المسّ، بعد أن بينَّا أن مس الضَّرَّاء أو مس الشيطان أو مس المرأة، إنما هو شمول وإحاطة وغشَيان، فلم يبقَ لمعترِض أيُّ مكر للمعارضة في هذا المَيْدان، ولنا أن نستشهد على ما اتّجهنا إليه بأدب الاستماع له والإصغاء إليه مع الإنصات والإجلال والتوقير، الذي بيَّنه لنا قوله تعالى جليًا ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم: ٥٨] والسجود أثر ماديٌّ لانفعال رُوحانيّ، وهذا الانفعال وأثره هو الذي أجرى الدموع وأسجد الجموع أمام عظمة تنزُّلية، لو أُنْزِلَتْ على جبل ﴿ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١].

ثمُ إنك لتلمس عظمة الرُّوح القرآنيّ الأزليّ في تنزُّله من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٠] أرأيت كيف جعل الله سبحانه من مجرد الاستماع والإنصات منذرين من الجن إلى الجن[١]؟

---

(١) مع العلم أنه تعالى لم يصرف نفرًا من الإنس للاستماع وللإنصات، بل صرف الكثيرين عنه؛ لما هم عليه من كبر وإعراض، لم تتصف به الطائفة الجنية التي =

ولم يُشِر القرآن الكريم إلى رُسُل الجن ولا إلى أسمائهم، ولكنَّ هذه الآية أثبتت بعث رُسل من الجن بالقرآن إلى قومهم؛ لتقوم به الحُجَّة على الجن أيضًا، وهم أجسام لطيفة ناريّة لا علاقة لها بورق المُصْحَف ولا حروفه، وقد ثَبَتَ من القرآن إرسال رُسُل إلى الجن من الجن، ومن بينهم أرسل محمدًا ﷺ بالقرآن، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٠] ... إلخ الآية.

وقد استمعت الجن إليه ﷺ وهو يتلو ويدعُو، فكادوا يكُونون عليه لُبَدًا؛ لتجاوُبهم وتطهُّرهم الذي هو المسُّ الحقيقيّ للقرآن، ومعلوم أن الطُّهر -في ذاته- هو التوحيد، وأن النَّجسَ -في ذاته- هو الشِّرك؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ ﴾ [التوبة: ٢٨] فيتبين من هذا أن الراجح من الآية ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ هو الطهر الرُّوحي من أدْران الشِّرك، الذي يَرينُ على القلوب، كما أشارت إليه الآية ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤] ومما يدل على أثر الشرك، الذي هو النجس الروحيّ، قوله تعالى عن ملكة سَبَأ: ﴿ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَـٰفِرِينَ ﴾ [النمل: ٤٣] ... والمقصود أن الكفر -بظُلُماته- صدَّ «بِلْقِيس» عن إدراك المقصود بتنكير العرش، عندما قال «سليمان»: ﴿ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴾

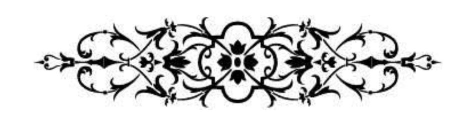
=

صُرِفت إليه، ولم تُصرَف عنه، وكذلك قال تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٤٦] إلخ الآية.

[النمل: ٤١]. ومن ثَمَّ يتجلّى المعنى المُراد من ذلك الطهر، الذي يترتب عليه مسُّ القرآن، مسَّ الفهم والإدراك والتجاوُب والاستيعاب والانفعال بمعانيه، انفعالاً يُهيمن على جميع تصرُّفات ذلك الذي تيسَّر له مسُّه مسًّا صحيحًا.

ولقد قال أحد الإفرنج عن القرآن بالنص الحرفي: «القرآن كتاب مُدْهِش، مفيد، ومِثال نفع وفائدة للمفكرين في سعادة الجنس البشريّ».

ولطالما قلنا وكرَّرنا الاعتراف بفضل القرآن وعلُومه وآدابه، وتقول الأدلَّة إنه أعظم كتاب روحيّ يُخْبِرنا -بصدق- عن طبائع وحياة أعظم إنسان تنفَّس الهواء في هذه الدُّنيا ﷺ.



المبحث الثالث:

الحقيقة الذّاتية القُرآنية بين الضَّلال والهُدى وبين العَمى والبصر

هذا القرآن ﴿ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت: ٤٤].

فقل لي -بالله- هل الشفاء المقصود هو في مجرد الحروف والورق؟ ذلك الوهم الذي نَشَر في آفاق الناس حمل التمائم والتعاويذ الخطِّية، وما هي إلا خُلّة اليهود، عندما صنعوا الأيْقُونات والتَّمائم، وسرقُوا بها أموال المصريين الذهبية، ومنها صنع «موسى السَّامِرِيُّ» عِجْلَهُ المحترِق.

أَتُرَانَا أيُّها المؤمنُ بالذكر الحكيمْ	أيُّهــا المســلمُ للهِ العظــيمْ
أَتُرَانَــا قــد رأيْنــا عجبًــا	أنّــه يَهْـدِي إلــى الـنهجِ القـويمْ
بحيــاةِ الــرُّوحِ لا مــن ورقٍ	لا ولا بــالحرفِ والبـانيِ الـرَّقيمْ
بل بفيضِ النورِ من وحيِ الهُدَى	يتلَقّــاهُ أخُ القلــبِ الســليمْ
طهَّرَتْــهُ نفحــةٌ مــن قُدْسِــهِ	فَسَـرَى نحـوَ الصـراطِ المسـتقيمْ
مسَّــهُ بــالخيرِ فاعتــادَ التُّقَــى	ورأى الـدُّنيا كمـا يُـذْرَى الهشـيمْ
وتجلّــى الحــقُّ فــي آياتِــهِ	وهي وحيٌ من لَدُنْ فيضٍ كريمْ
بعــثَ الأَلْبــابَ مــن غفوتهَــا	بهــداهُ وهــو الفتــاحُ العلــيمْ

لذلك ينادي رسوله في صراحة ووضوح أنه ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١].

ويتبيَّن من معنى الإنزال أنه صادر من المقام الأعلى الذي أشارت إليه الآية الكريمة ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤] إذًا فهذا التنزُّل هو الفيض اللَّدُني الذي أشرنا إليه ﴿ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل: ٦] لأنه -سبحانه- هو العلي الحكيم، والكلام كلامه، والفيض فيضه، والنَّدى نداه، والهُدى هداه. ﴿ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٧٣].

وقد بيَّن -سبحانه- هذا المعنى بجلاء في قوله: ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ ﴾ [البقرة: ١٨٥] وما الفُرقان سوى النور الذي نميِّز به الفرق الذاتي بين الحق والباطل، والهُدى والضَّلال، والحلال والحرام، فتكون النتيجة أن القرآن -بوصفه كلام الله- هو في تجلِّيه فيْض النور الفرقاني ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [الأنفال: ٣٧] ومتى تم ذلك وأُعْطِيت الفرصة للاستعدادات المختلفة لكي تقتبس من هذا النور، ما يؤهِّلها لاختيار أقوم المناهج، بما أُوتيت من قوة الاختيار الجزئيّ، الذي هو المِعْوَل في الأحكام كلها من أمر ونهي وعلم وعظة، وكل ذلك يخرُجُ بنا -بالطبع والوضع- عن القَيْد المصحفيّ في ورقه وحروفه، ليكون في الصدور لا في السطور كما بيّنت الآية الكريمة ﴿ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

فالآيات هي القرآن، وكونها ﴿ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ ﴾ هي الفرقان، ولذلك أشار بقوله: ﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ ﴾ [الأنفال: ٤١] في غزوة أُحُد، لأن وقوع الاصطدام بين الحق والباطل والهُدى والضلال، لا يعمل فيه سوى الفرقان الذي يكُون هو القوة المعنويّة والروح العالية في القتال، بدوافع ذاتية، أساسها عُمق إيمان المُميِّز

الفرقانيّ بما اعتَقَد، واقتناعه بما اعتنق مِلَّة جاءت لتُقِرَّ الحق وتهزم الباطل، كما يبدُو في قوله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ﴾ [الإسراء: ٨١] وهي شعار أساسيّ، يأتي بعد تكبير الهجوم الحربيّ، سواء كان ماديًا بالسلاح أو معنويًا بالعقيدة(١).

ويُؤْنِسنا في هذا المقام إذْن النبي ﷺ لعليّ -كرَّم الله وجهه- عند دخول «مكة»، وقد تقدم «علي» بالكتيبة الخضراء المحمدية، حتى إذا حلَّ ساحة البيت وواجه الأصنام رفع سيفه بيمينه إلى أعلى قائلاً هذه الآية الكريمة ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ﴾ ... إلخ الآية.

فكان ما أشار بسيفه -ذي الفِقَار- إلى صَنَم، إلا خرَّ وهَوَى دون أن يمسَّه، وبقوة الحق ذاته التي تَفِيض من رُوح التلاوة. ولعلَّ سائلاً يقول: هل عندكم دليل على ما تسمُّونه -قوة التلاوة- من السُّنة أو من الكتاب؟

فنجيب أنه ثابت من السُّنة أن النبي ﷺ ساعَةَ الهجرة، بعد أن فرغ من تسليم أمانات المُشْرِكين التي كانت عنده إلى «عليّ» -كرَّم الله وجهه- وإعطائه عباءته الخضراء لينام فيها، انطلق ﷺ نحو الباب مُبتدئًا بتلاوة أول سورة يس حتى إذا بلغ الباب، عند مكمن الأربعين شابًا -أو سيفًا- كان يقول: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس: ٩] فناموا على الفور بقوة التلاوة، لا من حيثُ الحروف ولا الإلقاء ولا الصَّوت، بل من حيثُ قوة الرُّوح والاستعداد، فهي التي حدث بها الانفعال النَّوْميُّ، لأن الله -سبحانه وتعالى- هو الذي يُنزِّل هذه القوى من عنده، كما

---

(١) وقوله تعالى: ﴿ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الأنفال: ٢٩].

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] كذلك أنزل على هؤلاء المتآمرين نومًا مُغرِقًا وسُباتًا عميقًا، حتى انحنى -عليه السلام- على الأرض وقبض من ترابها ما وضعه على جِبَاه المتآمرين وهو يقول: «**شَاهَت الوُجوه**» وهي كناية عن فشل المؤامرة، ومعنى شاهت تشوَّهت بالخِزي وتجلَّلت بالعار، وباءت بالهزيمة والخُسران.

ألا ترى ذلك -كله- جديرًا أن يُخْرجنا بالقرآن عن الحصار الحرفيّ والأشياء الحادثة، لكي نعلَم -كما علِم الأوَّلون- معنى كونه كتابًا مكنُونًا، لِندرك أن هذا الكتاب المكنون فَيْض أبديٌّ لا يأتي تأويله إلا يوم القيامة، ولا يمكن -بحال من الأحوال- أن ندرِكَ مداه، أو نكفُر هُداه ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦] أو يفقد هُدى؟!..

فهذا الكتاب -هو بذاته- النور الفرقانيّ من حيثُ الفيض والتنزُّل، أمّا مِن حيث الكلام صفة المتكلِّم، فهذا يجعلنا نؤمن -إيمانًا عميقًا- بأن صفة الكلام الإلهية هي صفة أزلية، وبحَسْبنا هذا يؤيد ما توجَّهنا إليه منذ بدأنا هذه الرسالة عن الكتاب المكنون الذي ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ الذين طُهِّرت قلوبهم، وصَفت سرائرهم من كدورات هذه الأرض المُظلمة، وسَمَت مشاعرهم إلى علياء الرُّوحانيات ومشاهد الآيات في ملكوت السموات. فهم -وحدهم دون سواهم- الذين قفزوا قفزة صاعدة ومَرّة واحدة عن مستوى الظُّلمانيات، فكانوا جديرين بتجليّات الذكر الحكيم، ومشاهد الملكوت الأعلى الكريم، الذي هو عن طريق عليائه لا يحيد ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧] فإليكم يا أعلام الشُّهداء رحيقًا مختومًا يَرْوى صدى نفوسكم الظمأى إلى المعرفة، التَّواقة إلى العلم. فأنتم وحدكم -بوصفكم

الشُّهداء- أوْلى بالشهود وأحرى بالورود الحوض، فهو حوض سائغ شرابه، منزَّل كتابه، عالية آدابه ﴿ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٩] لأنهم طالعتهم الآيات حين طالعوها، وأُلقِيت إليهم الحِكَمُ فما ابتدعوها، ولكنهم اتَّبعوها ولمع لهم نور الفُرقان، فساروا في سَناه، وأقبلوا على هُداه، وكان لهم توفيق ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء: ٦٩].

وكما تأثَّرت به مشاعرهم، اهتزَّت به منابرهم، واستضاءت به بصائرهم، فكانوا -بهذا الرَّحيق- رحيقًا رويًا، ﴿ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ﴾ [مريم: ٥٨].

أرأيت -يا حبيبي- لمن سجدوا؟ ومن أي شيء بكَوْا؟

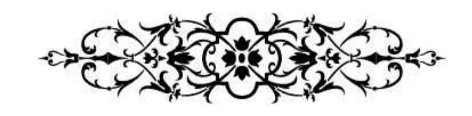
أليس من التلاوة؟ حين تُتْلى الآيات وتلمع البينات وتتعاقب التجليات في سور لها صور، ومبتدأ يعقبه الخبر، وأمر يسترعى النظر، ويستنهِضُ البصر ﴿ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ﴾ [القمر: ٥] وهي العظة الزاجرة، وماذا نقول لمن كَفَر، وتولى وغَدر، وطغى وفجر؟! ﴿ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ﴾ [القمر: ٤].

ولا ندري -وَأَيْمِ الله- أهم عُميان، أم أنهم يتعامَوْن. والغالب أنهم صادقون عندما قالوا: ﴿ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ ﴾ [فصلت: ٥].

فأولئك لم يمسُّوا القرآن، وما كان لهم أن يمسوه عميانًا وهم الذين إِذَا ذُكِّرُوا بهِ خَرُّوا صُمًّا وَعُمْيَانًا.

أما الذين ﴿ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾ [الفرقان: ٧٣] فهم الذين استمعوا إلى الآيات وأنصتوا وأنابوا إلى مُنزّلها وأخبَتُوا عابدين متبتِّلين، فتجلَّت لهم مشاهدها فشهِدوها كما لم يَشهدها العُميان، ونالوا من فيضها ما يَرْوِي الظمآن.

هاهنا -وهاهنا فحسب- يمكن لهم أن يمسُّوا القرآن؛ لأنه ذكرى للذين يذكُرون، وحياة للذين يشعُرون، وفيض للذين بأوامره يأتمِرُون، فلا يهتدي به الكافرون و﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ .



المبحث الرابع:

عجْزُ الجنِّ والإنْس عن الإِتْيان بمِثْله ونُصوع الدليل الرُّوحي في هذه الآية

ولعَمْرُ الله لو فَطِن هؤلاء السطحيُّون إلى استحالة إتيان الإنس والجن بمثله، لما تورَّطوا في حصْره في إطار المُصحف وقيده بالحروف والأصوات، وهو ما لا يليق بصفة البارئ، التي هي صفة الكلام -كما أومأْنا إليه- من قِدَمها وعدم حَرْفيّتها أو حُدُوثها بحال من الأحوال. وإن الآية لصريحة في إعجاز القرآن، فتأملْ -هداني الله وإياك سواء السبيل- كيف قال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨] فهل الآيات تعني أنهم لا يأتون بمثل حروفه أو صفحاته، أم أن المُراد أنهم لا يأتون بمثل رُوحه ومعانيه ومضامينه العظيمة؟

وعندما قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١] لم يكن قد وُجد -بعدُ- مصحف مسطور، وبهذا يكون قد سبق لفظ «كِتَاب» تحرير المصحف.

فلم يكن النصّ يعني الكتاب المطبوع، ولا المخطُوط الذي يتيسّر الإتيان بمثله لكثير من الجماعات والأفراد، فلا يُعْجِزُهم أن يكتُبوا النصوص في ورق. وقد حدث أخيراً أن كتب أحدهم المصحف كله في صفحة واحدة، فما كان هذا هو المُعْجِز، بل إن المعجز هو ما توجَّهنا إليه منذ بدأنا رسالة «الكتاب المكنون». ولو كان عند الناس من الإنصاف القائم على الفهم الصحيح أيُّ مقدار، ما وَقَفُوا في تفسير الآية الكريمة عند حدّ ظاهرها

السطحيّ، الذي ليس سوى تعويد الناس من القُرّاء وغيرهم على إجلال المصحف، وعدم التهجُّم عليه للجُنُب أو المتنجِّس، تكريمًا لقدر مدلولاته، لا لِقَدْر حروفه وورقاته.

ومن المُسَلَّم أن قول الإنسان أو كلامه -وهو حادث هو أيضًا- غير الحروف والأصوات، كما يقول الشاعر:

إنَّ الكلامَ لَفِي الفُؤَادِ وإنّما جُعِلَ اللسانُ على الفؤادِ دليلاَ

أي أن القول أو الكلام يكون كامنًا في نفس القائل أو المتكلِّم، حتى إذا شاء إبرازه إلى الخارج، عبَّر عنه اللسان.

أو نقول -بعبارة أخرى- خرج القول من النفس إلى السامع عبر اللسان، وبذلك سُمِّيت عبارة.

وإلى هذا المعنى كان المسيح -عليه السلام- يشير في وصيته لأمه، على إثر ميلاده ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴾ [مريم: ٢٦] ومعنى قوله أن قرِّري في نفسك، ويؤيدها قوله: ﴿ فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا ﴾ .

وكذلك قول الله تعالى عندما قال: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ ﴾ [غافر: ٦٠] فليس معنى قوله ﴿ وَقَالَ ﴾ أي تلفَّظَ بحروف وأَخْرَج أصواتًا، فكلامه -تعالى- إذن وقوله مُنَزَّه عن الحَرْفية والصوت.

كذلك نرى الآيات البيّنات ﴿ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، لا في سطور الأوراق، فليس معنى كونها في صدورهم أنها مكتوبة، بل هي كامنة بالوعي والاستظهار كُمونًا لا يبدو، إلا إذا أرادوا إخراج المعاني

المكنونة في صدورهم بالألفاظ عَبْر الألسِنة، ومن ثم يتعيَّن المصير إلى ما ذهبنا إليه آنفًا.

المبحث الخامس:

عِزَّة الكِتاب ومعنى تنزُّله

-ليلة القدْر- من بيت العِزَّة

وفي هذا المقام تظهر الرُّوحانية الكبرى للقرآن العزيز المعنيّ بقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢] فمتى كان تنزُّلاً من الحكمة، فمعناه الفيض الرُّوحيّ، ومتى كان الحكيم -هنا- مُتجلّيًا بتجليات الاسم «الحميد» فله الحمد في الأُولى والآخرة على تنزُّله، وتفضله بجلاء المعاني المكنونة بصائر للبصائر، وبينات للضمائر ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ﴾ [الأنعام: ١٥٥][(١)].

فليقولوا لنا -بارك الله عليهم وهداهُم مناهج حكمته- ما معنى قوله ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ ؟ إن في هذه النقطة يتركَّز بحث مُستفيض في معنى البركة، الذي يتَّصف به سبحانه وتعالى صراحة في قوله ﴿ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤] وقوله: ﴿ نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [النمل: ٨].

فما نصيب اللفظ المجرَّد من هذه المعاني؟ وماذا يعني قوله تعالى: ﴿ مَن فِي ٱلنَّارِ ﴾ ؟ وكيف يكون موسى -عليه السلام- هو المقصود بقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ؟

أما زالوا -بعد هذه البيّنات- جامدين على أشباح الألفاظ ورموز

---

(١) ولم يقل أحد من السلف، ولا من التابعين، ولا من المُحْدَثين بأن الذي تنزَّل من بيت العزة كان مُصحفًا، أو ورقًا، أو مخطوطًا على أديم أو نحوه.

الحروف؟! بُورك في عقولهم، حتى تسمُو إلى هذا المقام الجليل والمشهد الجميل، في مدارك التنزيل ومعالم التأويل، حيث منه ﴿ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ ومنه ﴿ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌۖ ﴾ ، ولن يمسّ القرآن إلا من أمِن الزيغ؛ لأن ﴿ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ ﴾ [آل عمران: ٧] أي أن كلاً من المتشابه والمُحكم مُنزَّل من عند ربهم، مفاضٌ به من عالَم القدس الأعلى إلى الأرواح المقدَّسة عن شوائب المادة وكُدور الأهواء، فهم عنه لا يستكبرون؛ إذ إنه ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ .

على هذا النحو -بذاته- لا على ما اتجه إليه السواد من الناس.

وهنا نستطيع أن نقول إن لأُولي النُّهى حقًا في الحقائق الكامنة والمعاني الباطنة، والاستنباط منها في سبيل الأحكام، والاستقراء بها لتفصِيل أحداث الليالي والأيام، والإشراف على مشاهد الملكُوت الأعلى، الذي هم بمشاهدته أحقُّ وأولى.

أمَّا مَنْ سِواهم فحسْبُهم أن يقفوا عند حدِّهم، وقد قال الإمام ﷺ «**رحمَ الله امرأً عرف حدَّه ووقف عنده**».

فقد رُوِي أن رجلاً من أعراب «نَجْد» سأل النبي ﷺ : لماذا أمر الله تعالى موسى -عليه السلام- أن يخلع نعليْه في الوادي المقدَّس؟ فأجابه ﷺ بقوله: «**إنهما كانتا من جلدِ حمارٍ ميت**».

ومن المعلُوم -بداهةً- أنه لا يوجد نعلان من جلد حمار حيّ. الأمر الذي ابتسم له وجه عليّ -كرم الله وجهه- وكانت نظرته إلى الرسول ﷺ تحمل معنى الاستفهام، فرد ﷺ : «**أُمِرْتُ أَنْ أُخَاطِبَ النَّاسَ على قدر عُقُولِهم**».

وهذا حديث عظيم حكيم ﴿ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦] وفي الآيات ﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ ﴾ [المجادلة: ١١] فليقولوا لعامّة الناس ومتوسِّطيهم: لا تَلْمَسُوا هذا المصحف إلاّ على طهارة، ولكنّ الذين أوتوا العلم لا يمسّون معانيه، ولا يشهدون معاليه، إلا إذا كانوا على طهارةِ قلبٍ وصفاء ذهن ونقاء سريرة.

ذلك هو الذي يعنيه القرآن -نفسه- للكامل والناقص ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ ﴾ [الزمر: ٣].

ولــو أنّ آيــاتِ الكتــابِ تنزَّلــت ... علــى جبــل لأنــدَكَّ فيهــا وزُلْــزِلا

ولكنّــه قلبُ الصَّفيِّ الذي اصطفىَ ... مُنَزِّلُــهُ مُــذْ كــان فــي الكــون أوَّلا

ولكــنَّ قــومي لــم يَــرَوْا مــن محمــدٍ ... ســوى ظــاهرٍ مــن قبــلِ أن يتنــزَّلا

ولو شَهِدُوا مـا أنـزلَ الله مـن هُدىً ... لما كَفَرُوا بـالحقِ مُذْ جـاء مُرْسَلا

وفـي جنـةِ الأشـهادِ والنصُّ ظـاهرٌ ... بما اتَّخذوا من مَقْعَدِ الصدقِ مَنْزِلا

ومـا الصدق فـي القرآنِ إلا تِلاوةً ... علـى حقِّهـا مُذَ جـاء بـالحقِّ مُنْزَلا

وأنْــذَرَهُمْ بــالوحيِ والله شــاهدٌ ... وعـن نصرِ هـذا الـذكرِ لـن يتحـوَّلا

ولــو أن قرآنًــا إذا مــا تلوتَــهُ ... شَـهِدْتَ أمُـورًا قـد تجلّـتْ لمـن تَـلا

فهل هـي مـن حـرفٍ وصـوتٍ كأنّـه ... كَمَــنْ قــام فيهــا قــائلاً وتــأوُّلا

سلامٌ علـى المعنَـى العَلِـيِّ وأهلِـهِ ... ســلامَ مُحــبٍ بالمعــاني توسَّــلا

* * *

المبحث السادس:

البسملة ونقل عرش «بِلْقِيسْ» من سَبَأَ باليمن إلى أُورشَليم في غير زمن

وهل فهموا -رحمهم الله- بأية قوة من ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ جاء الذي عنده علم من الكِتاب بعرش (بلقيس) من (سبأ) إلى (أورشليم) في غير زمن، وما كان ذلك إلا بسر الخاصّة، التي أشار إليها قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ [النمل: ٤٠] وما كان ذلك الكتاب سوى ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ التي أمام قوتها أمرهم ﴿ أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَىَّ وَأۡتُونِى مُسۡلِمِينَ ﴾ [النمل: ٣١].

وإذا كانت مباحث اللفظ تدلُّ على أن الكتاب ما لحِقت به لامُ العهد إلا بعد أن قال (سليمان) -عليه السلام- للهُدهد السَّفير: ﴿ ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [النمل: ٢٨] ثم قالت (بلقيس) بصيغة التنكير: ﴿ إِنِّىٓ أُلۡقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٢٩].

فلا غروَ -بعد ذلك- أن قال: ﴿ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ وهو ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ بالذات، والنصُّ شاهدٌ على أنها هي التي كان ينصَبُّ عليها قَسمُ سليمان المؤكد بالنون الثقيلة، عندما وجَّه الإنذار النهائيّ إلى مجلس وزراء (سبأ) ﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾ [النمل: ٣٧] وما كانت تلك الجنود -التي لم يجدوا لهم قبلاً بها- سوى المعاني الفعّالة، التي أُلْقِيت إليهم إلقاء، يحمل صورته كتاب منسوب -في مطلعه- إلى (سليمان) وفي حقيقته إلى الله الرَّحيم الرحمن، الذي لا يريد برحمته أن يُدَمِّر قومًا، متى استجابوا لدعوته، وما كانت ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ من عند (سليمان بن

داود) صاحب الزَبور -عليهما السلام-. ولم ترِدْ بهذا النص في الزبور، وليس شعارًا عند اليهود ولا عند المسيحيين؛ لأن شعارهم «باسْمِ الرَّب الإله». أو باسم الآبْ والابن والرّوح القُدُس، إلهٌ واحد، آمين. وإنّما استعارها مِن صاحب السلطان الأوحد على ورثة العاديّين في اليمن، الذين هم من شعبٍ إمامُه الأعظم محمد ﷺ الذي اختصّته العناية الإلهية من المُفِيض الكريم، والذكر الحكيم بمِزية الافتتاح ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ وجاءت تابعًا لسُوَر القرآن الكريم إلا في سورة «التوبة»؛ لأنها تحتوي الإنذار، وهو من مُتعلّقات الاسم «الجبّار». ومن هنا لا يستحق المقام العظيم تجليات ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فإذا أضفنا إلى نقل العرش في غير زمن، وعلِمنا أنه لا يَنْقُل شيئًا من مكان إلى مكان فوق قانون الزمان، إلا مَنْ خلق المكان وقدَّر الحق والأوان؛ لأنه -وحده- المهيمن الذي ﴿ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] في غير زمن ﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴾ [القمر: ٥٠] أي أن لمح البصر يتألّف من التقاء الهُدبيْن وانفصالهما بالبصر، وهما جزءان من الزمن، وقدرة الله -تعالى- لا تتأخر جزءًا ثم تتحقق في الجزء الثاني؛ لأن هذا عجز في اللحظة الأولى، وهو مُحال على الله -تعالى- فلزم انْتِفَاء الزمن لُزومًا رياضيًا. وما كان هذا الذي ﴿ عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾ بذاته، بل كان بنفس المعلوم، الذي هو الكتاب، والذي هو ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.

لاَ بِاسْـمِ زَيْـدٍ وَلا اسـمِ عَمْـرٍو … وَلَا اسْـمِ بَكْـرٍ وَلَا اسْـمِ خَالـدْ

بَـلْ باسْـمِهِ وَحْـدَهُ تَعَـالَى … وَجَـلَّ فِـي سَـائِرِ المَشَـاهِدْ

لأنّـهُ واحـدٌ تجلّـى … وَمَالِـكُ الكـونِ -بعـدُ- وَاحِـدْ

وقولُــه «كُــنْ» بغيــرِ لفــظٍ وغيــرِ حــرفٍ عليــهِ وارِدْ
بَــلْ إنّــهُ قــوةٌ وفِعــلٌ لِقَوْلِــهِ الحــقَّ وهــو شَــاهِدْ
فَــلاَ تَمِــلْ بِالقِيَــاسِ عَنْــهُ فَإِنّــهُ فَــوْقَ مَــا تُشَــاهِدْ
سُــبْحَانَهُ لَــيْسَ عَنْــهُ نِــدٌّ وَلاَ شَــبِيهٌ فَقُــمْ وَجَاهِــدْ

ونحن لا نريد أن نمر عفوًا على الباب الذي فتحناه على معنى البركة، حتى لا يُظلَم أي فرد يتمتع بالاستعداد الكامل، الذي هو القوة، قوة العقيدة والإيمان والقبول، كما قال لـ(يحيى) عليه السلام: ﴿ يَـٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍۖ ﴾ [مريم: ١٢]، وكما قال -تعالى- من قبل لـ(مُوسَى) عليه السلام: ﴿ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٍ مَّوۡعِظَةً وَتَفۡصِيلاً لِّكُلِّ شَيۡءٍ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٍ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ ﴾ [الأعراف: ١٤٥]. وما كانت تلك القوة التي أُمر (موسى) أن يأخذ منها تلك المواعظ، سوى قوة العقيدة والإيمان والاستعداد. فإذا وُجِد من يُنْعِم الله عليه بتلك القوة، فإنه هو الذي نوجّه إليه القول، ونشرح له معنى البركة، فضلاً عما تقدَّم من الشرح لها. فهنا نجد ذات الحق تصلها البركة أيضًا في قوله تعالى: ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ ﴾ [الملك: ١] كما تصل إلى ذات الكتاب بقوله تعالى: ﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلۡنَـٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام: ٩٢] وكما تصل إلى الأرض ذاتها مثل ما في هاتين الآيتين: ﴿ وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا ﴾ [فصلت: ١٠] والآية الثانية هي: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦][1].

(١) وكذلك قوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَـٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٨]، وفي سورة هود ﴿ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ ﴾ [هود: ٧٣] وشواهده في =

هذا ويتَّضح لكل هذا -وما سواه- في القرآن عُمومية البركة، فكما تكون للإنسان، تكون لخالقه وللكتاب وللأرض. وإنها تتنزَّل من عند الله -تعالى- كما يبدو من قوله: ﴿ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم ﴾ ومما في الأرض كقوله: ﴿ بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وهكذا ﴿ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ والآية الكريمة ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ [النور: ٣٥] فما معنى البركة إذًا؟..

يزعُم أكثر الناس أن البركة في البُكور، والمقصود به أن الإنسان إذا بكَّر في الاستيقاظ من نومه، والخروج إلى عمله في متجره أو مصنعه أو حقله، يكون ذلك سببًا في نماء رزقه وزيادة دخله، وعليه تكون زيادة الدخل ووفرة الحاصلات والمال ووسائل الإنتاج، هي البركة في نظرهم وزعْمهم.

ونحن -في هدوء- نشير إلى أن الزيادة والنماء ووفرة الحاصلات ﴿ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ﴾ [آل عمران: ١٤] متوفِّرة بأيدي الذين كفروا والمارقين والبغايا واللُّصوص. فهل معنى هذا أنهم مُباركون؟! وعلى هذا النحو، إذا تابعنا نظريتهم في البركة، كان لِزامًا علينا أن نقول إن «الولايات المتحدة» -مثلاً- أتمُّ بركة من «الجمهورية العربية المتحدة»، وبالتالي نقول -على زَعمهم- إن مُشركي «مكَّة» وأصحاب الثروات فيها كانوا أكثر بركة من البشير النّذير، اليتيم الفقير، الذي تركَّز غِنَاه في العلم ﷺ ويتَّضح مما قُلنا بُطلان زعمهم بُطلانًا أصيلاً. فبالنسبة إلى ما بيَّنا آنفًا، لا نستطيع أن نُميّز المعنى المراد قدسيًا من

=

القرآن عديدة.

قوله تعالى: ﴿ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ ﴾ [الإسراء: ١] إلا إذا جاريناهم في زعمهم أن البركة حول المسجد الأقصى هي الفاكهة والمزارع، بينما هو ليس أفضل -في ذلك- من مصر التي قال الله -تعالى- عنها لمناسبة إخراج بني إسرائيل ﴿ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٩].

فلا يبقى بعد ذلك معنى لتخصيص المسجد الأقصى بالبركة حوله، كما كان في الشجرة ﴿ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [النمل: ٨] وكيف تكون وفرة المال بركة، والله -تعالى- يقول عن فرعون وملئه: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلاً فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ۖ ﴾ [يونس: ٨٨]؟! فمِن هذا، ومن مئات أمثاله في آيات الكتاب، نَقْطَع قطعًا جازمًا بأن البركة شيء ووفرة المال شيء آخر.

ونعود مرة أخرى لنسأل في هدوء: ما هي البركة إذًا؟..

يجب يا سادة أن نؤمن بأن البركة فيض رُوحيّ مُسعِد للنفس، مبصِّر للفؤاد، مُمِدٌّ للهمة، دافع للغفْلة إذا تعلَّق بالإنسان.

وأن البركة -إذا ما تعلَّقت بالكتاب- كانت بمعنى سَريان نوره في سريرة تالية وفاهمة، فتتجلّى -بذلك السريان- صور لا نهاية لها مما يبطنُ في تضاعيف الأمور والارتفاقات والمزايا الخُلُقية وصلاح البال، كما قال: ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ [محمد: ٢] وهذا كله داخل في نطاق قوله تعالى: ﴿ وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام: ١٥٥] لأن معنى ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ أنه فيّاض بقوة يجب قبولها؛ ليحصُل المراد وتقوى البصيرة، ويزداد الحِسّ في جميع الحواس بالقوة والنماء. فهو تعالى يقول: ﴿ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ ﴾ [فاطر: ١]

وإذا تعلّقت البركة بالأرض، كانت سلامة خصب وسلامة نبت ودفع آفات؛ بغرض نمائها وازدهارها، كما قال تعالى بوضوح: ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ ﴾ [الأعراف: ٥٨] على أن البركة في النماء، إنما يظهر أثرها في سلامة المنتفع بهذا الشيء النّامي من سُوء الخَطَرات وفساد النظرات والعَمى عن البيّنات.

ولا يتمثَّل سريان تلك البركة الرُّوحية المعنويّة في شيء، كتمثُّله في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ ﴾ [الأنعام: ١٢١] أي ليمنعوكم عن ذكر اسم الله على مآكلكم؛ ليتيحوا الفرصة لرُصفائهم[1] من الشياطين أن يشتركوا في كل مائدة أو طَعام أو شراب لم يُذكر اسم الله عليه. ومتى كان للشيطان إذْن من العرش بهذا الاشتراك في قوله تعالى: ﴿ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ﴾ [الإسراء: ٦٤] وهذه المشاركة -التي لا تتمُّ إلا بانسحاب البركة- تزول بذكر اسم الله تعالى الذي به تحدُث البركة، وفهمنا -من هذا- الفرق بين الطعامين: الذي يُذكر اسم الله عليه، فتشمله بركة الرُّوح، والذي لا يُذكر اسم الله عليه، فتنسحب منه البركة -التي هي قوة الروح النِّيَّاتية- وتشترك فيه الشياطين، فلا يكُون تكوُّن الدم منه إلا فسقًا، يوحي بأسوأ الخَطَرات، ويبلِّد الأذهان ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١١٩] وحل محلاً مُهينًا.

لعلّك -يا أخي- قد استشرفت معنا على معنى البركة في الإنسان والنبات

---

(١) رصفائهم: مؤيّديهم وتابعيهم.

والجماد، وأن هذه البركة إنما يُمثِّلها فيض رُوحانيّ، يصُون المبارَك من الانحرافات الخُلُقية والانزلاق لِفسق المأكل والمشرب والمَوْطِئ، وتجرُّده من ذكر اسم الله تعالى، وظهور أثر ذلك في تكوُّن الكُرَيَّات الدموية. فإنه لا جدال في الفرق بين صفاء الذهن وبين تبلُّده، كذلك بين الرأي المأفُون والرأي الصادق الحكيم، وبين الحق والباطل، وبين الهُدى والضلال. وبهذا يزداد جلاء معنى البركة.

بارَك الله فيكم وفي طعامكم وشرابكم؛ لتسلم من الوساوس والهمزات أنفُسُكم وأخلاقكم، وتسلم ذُرِّياتكم من الاشتراك الجنيّ الشيطانيّ، الذي ما تمكّن منا، إلا لأننا فتحنا له «السيمافور» بالإقلاع عن ذكر الله عمدًا، فدخل إلى طعامنا وشرابنا وفراشنا، بقطاره الأسود، ليحطم مقدَّسات النفوس ويطوِّح بأوهامها التي بيَّنها الله تعالى بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٣٩-٤٠].

والبركة هي النور، ولو كانت البركة هي وفْرة المال لقُلنا عن الكافرين إنهم مُباركون.

وقد فضحت الآيات -بسناها الباهر- ظُلمات الفهم الخاطئ المُلْحد بقوله تعالى: ﴿ وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ ۝٣٣ وَلِبُيُوتِهِمۡ أَبۡوَٰبٗا وَسُرُرًا عَلَيۡهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝٣٤ وَزُخۡرُفٗاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَٱلۡأٓخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ

لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥].

فهل يوجد -بعد هذا- متبجّح يفهم البركة على هذا النحو السّاقط، الذي يَشيع بين الناس شُيوع الخطيئة، ويجري بينهم جريان الشيطان في الدم.

ولقد علَّمنا المُبارَك الأول، الذي ندعُو له دائمًا بزيادة الإمداد من البركة حتى تقوم الساعة: اللَّهم صلِّ على محمّد وعلى آل محمد، كما صلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارِك على محمّد وعلى آل محمد، كما بارَكت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنَّك حميدٌ مجيد.

المبحث السابع:

تحرِيرُ معنى الصلاة والسلام على النبيّ وعَلاقته بالبركة

ألا تُصلُّون -أيها الناس- لتميِّزوا ما تقولون ... أم أنكم تهرِفون[١] بما لا تعرفون؟!..

نعم إنِّي لا أزال أدعُو الله لكم أن يُبارك عليكم، ليُخرجكم من الظُّلمات إلى النور، ويَقِيكُم جحيمًا ﴿ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣].

ولا يكون للبركة من معنى -في هذا المقام، وعلى هذا الميزان- إلا بتحقيق الإيمان، حيث هو مَناط البركة وأساس الحركة.

أما مجرد الحصول على المأمول واللذيذ والمعسول، فإن كائنًا حيًا لم يُحْرَمه، من إنسان أو حيوان. ولا يُعقَل أن نقول عن رجل صاحب ملايين، يصلَى همَّها ليلاً ويذُوق سُمَّها نهارًا، كادحًا مسافرًا طائرًا، كثير المشاغل، متعدد المخارج والمداخل، تأخذ المسؤوليات بتلابيبه، والمَطالِب من جلابيبه، له مَعِدة واحدة، لا بدَّ أن تمتلئ كما الشأن في جميع المعدات. لا يمكن أن نقول عن مثل هذا الرجل إنّه بلغ المقام الأسمى ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤][٢]؛ لأنه أعرض -هنا-

---

(١) تهرفون:يتفوّهُون بما لا يفهَمُون.

(٢) ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٥-١٢٦]... معنى الضَّنْك في المعيشة لمن أعرضوا عن الذكر.

عن آيات السعادة ﴿ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ ﴾ [يونس: ٢٦] وشغلته توافه الفانيات، فحُرِم الخالدات الباقيات، ووَضَع من بين يديه ومن خلفه سدًا ﴿ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيۡرٌ مَّرَدًّا ﴾ [مريم: ٧٦].

ولعلك تقول إنك -لأول مرة- تسمع أن صاحب الملايين يعيش معيشة ضنكا، وكذلك علمت من تضخُّم همومه واختلاف عمومه ما هو أشد وأنكى؛ لأنه رجل غير مبارك مشتّت الشمل. وأترك المقام هنا لإمام المُرْسَلين ﷺ فهو الذي بيّن وعلّم وحدّد الأصول، إذ يقول: «**مَنْ كانت نيَّتُهُ طَلَبَ الدُّنيا، جعلَ الله الفقر بين عينيه، وشَتَّتَ عليه أمرَه، ثم لا يكونُ له فيها إلا ما قُدِّرَ له، ومن كانت نيَّتُهُ طلبَ الآخرة، جعل الله غِنَاه في قلبه، وجمع شمله، وأتَتْهُ الدُّنيا وهي راغِمة**» صدق رسول الله ﷺ.

وليس معنى الحديث الشريف أن تتدفَّق الأموال بين يديه، ولا أن تتوافر المطالب عليه ليبلُغ مداه في مُشتهياته ومُنتهاه في مَلَذّاته، بل ليتلقّى من فَيض المعنويات تأييدًا رُوحيًا يجعل كل شيء بين يديه خالصًا من كل شائبة تُفْضِي إلى أية كارثة، سواءً من الناحية الجسمية أو الناحية الروحية وخصائصها، كالعقل ونظام التفكير وقوة التدبير وحسن الاختيار وحكمة التصرُّف، إلى غير ذلك ممّا تكون الحياة فيه على مِنهاج قويم، فتكون مباركة كما قال تعالى: ﴿ تَحِيَّةً مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةًۚ ﴾ [النور: ٦١] لأنها سلام من الله تعالى وهو السلام، على قلب منيب صادق ثابت الإيمان، قائم الأركان(١).

هذا هو الذي يجب أن يُصار إليه في تفهُّم معنى البركة، وقد يُطلَق معنى

---

(١) وهذا هو معنى صلاة الله وملائكته على المؤمنين.

البركة على بعض المخبُولين والمُشَعْوِذين، فيقول الشعب عن أمثالهم «هذا رجل مبروك»... وظاهرة البركة عندهم، أن يشهدوا اللُّعاب يسيل من بين شفتيه إلى صدره بلا وعي، أو أن يسمعوا منه كلامًا مضطربًا لا تماسك فيه ولا نسب، بل هو مجرد هُراء.

هذه -عندهم- ظواهر البركة، على أن أغلبهم ينحصر فهمه لمعنى البركة في وفْرة المال والحياة، وكثرة الذُّريّة متجاهلين قوله تعالى: ﴿ فَلَا تُعۡجِبۡكَ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُمۡۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [التوبة: ٥٥] إلخ الآية، وكأنهم لم يسمعوا قول الله لرسوله -عليه السلام-: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴾ [طه: ١٣١] ذلك لأنه رزق مبارك، وحسْبك في الإشارة إلى بركته أنه مضاف إلى مقام الرُّبُوبية ﴿ وَرِزۡقُ رَبِّكَ ﴾ فتنعقد نسبة الشرف والقوة وخلود الأثر.

فبالله عليك أين هذا المُستَوى مما انحدر إليه هؤلاء الذين لو طالبناهم بمقياس صحيح للبركة، لأشاروا إلى ما يملكون مُكاثِرين سواهم به ﴿ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴾ [الكهف: ٣٤] وقد غفلوا عن موقفهم تمامًا.

ولو فَطِنوا لرأَوْا أنهم قد أسندوا بذلك أعظم بركة إلى أعداء الله، من الأمريكان واليهود والمُلْحِدين والزَّنادقة، الذين يملكون من مال الدنيا وجاهها ما لا خَفاء له، لكنْ هكذا تورَّط الضالون ﴿ وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وَلَوْ كَانَ جَمْعُ الْمَالِ شَيْئًا مُبَارَكًا لَنَالَ بِهِ قَارُونُ أَعْلَى المَراتِبِ
وَلَكِنّهَا الأَوْهَامُ إِنْ ضَلَّ سَعْيُهَا بِمَنْ أَغْرِقُوا فِي الأَرْضِ بَيْنَ الرَّواسِبِ

والآن أنت -أيها اللَّبيب- تواجه بروحك ما استقرَّ من أسمى المعاني في كلمة البركة ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ ﴾ [الأنعام: ٩٢] لأنه -تعالى- قال أيضًا ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ [الدخان: ٣] وحدد معنى البركة بقوله: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: ٤] كما أشار إلى ظاهرة البركة في قوله: ﴿ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الدخان: ٥-٦].

وهكذا يتجه الذكر الحكيم بأساليبه القوية الفعالة، فيملأُ قلب الواعي رحمة ونورًا وثباتًا ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا ﴾ [المدثر: ٣١]. حتى يتمثّل -بكل ذلك- معنى البركة، بحيث لا يبقى حول معناها طيف من الشك في خُلوّ الأثر، ودوام الاستمداد والإمداد، وقوة الاستعداد. وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في مواضع عديدة، وعلمنا من ذلك سريان روح البركة بين الحيوان والنبات والجماد، وبين العقليّات والخصائص الإنسانية، والتحيات وهي من الشئون الرُّوحية، فإذا قلنا بشمول رحمة الله في الدنيا للأشقياء والسُّعداء معًا، كقوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

فإننا -باسم البركة- نحكم بالتخصيص في الآخرة للذين حَصَلوا على أكبر مقدار من الرُّوحية، التي هي من أخصّ خصائص البركة، تلك الروحية التي تجعلهم أئمة في التقوى، هُداةً إلى الهدى، مصابيحَ إرشادٍ للسائرين في غُلْوَاءِ الحياة الدنيا، مُواسين لجراحات القلوب. ودليلنا على ذلك أنه تعالى بعد أن ذكر ﴿

وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ قال على الفور: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وهؤلاء هم المباركون حقًا.

وكأني بك تلمس معي معالم البركة في كونهم ﴿ يَتَّقُونَ ﴾ وهو فعل مضارع من الوقاية، ومعناه أنهم يتَّقون غضب الله، والله تعالى لا يُغْضِبُهُ إلا الإساءة إلى خَلْقه والتقصير في رعاية الحنان والرأفة والرحمة والعطف، والتكافُل والتضافُر والتضامُن في سبيل حماية العدل، واللُّطف بعباد الله لطفًا يعطيهم الحق في أن يكونوا مع محمد ﷺ في المقام الذي أشارت إليه الآية ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ ﴾ [الفتح: ٢٩] وعدم عقد أية آصِرة من أواصر المودَّة أو التعاون أو التضامن -بأية صورة من الصور- معهم، بصفة كونهم أعداء الله، ومن كانوا أعداء الله، كانوا أعداء الرحمة والعدل والرِّفق، وجميع المزايا الإنسانية والخصائص الرُّوحية. ومن ثَمَّ يكون الاتصال بهم والرُّكون إليهم باعثًا لنزول اللعنة بالاشتراك، لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [هود: ١١٣]. هذا فيما يتعلَّق بقوله تعالى ﴿ يَتَّقُونَ ﴾ أما قوله تعالى: ﴿ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ فالظاهر أن إيتاء الزكاة لم يكن مقدِّمة، بل كان نتيجة لتقواهم؛ فإن التقوى تنشُر الرحمة في القلوب ولا تجعل للدنيا فيها محلاً، فتهون على النفس البصيرة المتأثرة بالفيض الرُّوحي الأعلى، ويترتب على هوان الدنيا -في نظر كل تَقِيّ- حصول البَذْل فيها والسماحة بها، فتكون حياته كلها زكاة وأقرب رُحمى.

وكما يقول الأعشى «ميمون بن قيس» في ميميته:

وَلَـمْ يَجْتَمِـعْ شَـرْقٌ وَغَـربٌ لِقَاصـدٍ وَلاَ المجدُ فـي كَفِّ امـرئٍ والـدراهِمُ

وَلَـمْ أَرَ كـالمعرُوفِ تُـدْعَى حقوقَـهُ مغـارمَ فــي الأقـوامِ وهــي مغـانمُ

ولو كانَتِ الأرزاقُ تَـجْري على الحُجَى هَلَكْــنَ إذنْ مِــن جَهْلِهِــنَّ البهــائِمُ

وها أنت -يا أخي- قد لمستَ كيف كانت الزكاة أثرًا من آثار التقْوى. وقد أيَّد ذلك قوله -تعالى- في استكمال النص السّابق ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ لأنه لا معنى للبركة إلا في الخلود. أما الأمر العابر، فإنما يكون للمؤمنين مَعْبرًا ومجازًا ومَزْرعة للأمر الخالد. ومن هنا لا نستطيع تحديد سريان البركة بمعناها الصحيح في النفس أو في الشيء أو في الأرض أو في الكتاب، إلا إذا تم صَفاء النفس، ولا يتم صفاؤُها هذا إلا بتخلُّصها من العلاقات المُنكدرة، التي هي بينها وبين عالَم الدنيا الظّلماني المليء ببواعث الفِتن وعوامل القلق وكثرة الاضطراب بين الشئون المختلفة، التي هي من لوازم هذه الحياة الدُّنيا. وهيهات لسُكَّان الظُّلمات أن يُبصِروا حقائق الأمور على ما هي عليه؛ لأن الظلمات تنصبُّ بذاتها على المشهوُدات كلها، فلا تُرَى إلا مَشُوبةً بآثار الانكدار الظَّلماني. وعلى هذا يتعذَّر الحكم على حقائق الأشياء، فلا يُتاح الحكم القطعيُّ على مدى المعنى المفهوم من البركة، فإننا -مثلاً- لا نستطيع أن نُدْرِك -مهما أُوتينا من قُوّة العقل ونفاذ البصيرة- معنى قوله تعالى: ﴿ تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ ﴾ [الملك: ١][(١)]؛ لأن جميع الأقْيِسة والنِّسب والإضافات والصفات والحدود، بالنسبة لذاته -تبارك وتعالى- باطلة بُطلانًا

(١) البحث في معنى البركة لذات الله وأسمائه سبحانه وعجز الملأ الأعلى عن الإدراك.

أصليًا. ويتعيَّن -بهذا- التوقُّف عن الحكم بمعنى البركة بالنسبة لذاته سبحانه وتعالى. ومما يسترعِي الانتباه -كذلك- قوله تعالى في آخر سورة الرحمن ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ [الرحمن: ٧٨] فإن انْصِباب البركة على الاسم، أمر فوق إدراك العقل، بل يكاد يكُون فوق إدراك القوى الملكوتية الرُّوحية، التي هي الملائكة النورانيُّون؛ لأنهم -هم أنفسهم- مغمورون بسريان بركة الاسم ﴿ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ﴾ والمغمور بالشيء لا يمكنه إدراكه.

سريانُ الحياةِ بالنور حيًّا ... هي فيضٌ مباركٌ للقُلُوبِ

رحمةٌ كُلّهُ وحَدْبٌ ولطفٌ ... من عليمٍ بمَجْرَيَاتِ الغُيُوبِ

هذا ولنضرب -لك- مثلاً مقرِّبًا، لعجز كل قوة عن إدراك البركة الأسمائية، أن النبي ﷺ حين القُرْب المقاميّ -ليلة المِعراج- كان مُحاطًا بنطاق النور الأقدس، ولكنه -بسبب كونه مُحاطًا بهذا النور- كان لا يستطيع الإحاطة بما أحاط به، فهو عليه السلام غريق في النور. ومن كان كذلك، لا يمكنه إنكار المشهود، كما لا يمكنه تحديده. وهنا يتبين عجز القوى العليا -التي هي فوق إدراك الملائكة- عن إدراك ماهية النور الذاتي، وما هذا النور سوى المسرى للبركة العُلْيا. ومن المُسَلَّم أن الرسول -عليه السلام- أفضل من «جبريل» -الذي هو الرُّوح الأمين- الموصُوف بأنه ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٍ ﴾ [التكوير: ٢٠]. وأما أفضلية النبي -عليه السلام- عن (النَّسَفِي) في كتابه «العقائد» حيث قال: إن خاصَّة البَشَر أفضل من خاصة المَلَك، وإن عامَّة المَلَك أفضل من عامَّة البشر. ومتى كان الأمر ثابتًا، من ناحية عجْز النبيّ -عليه السلام- عن الإدراك البَرَكي في الليلة المُباركة؛ لأنه قال عندما سُئِل: هل رأيتَ ربَّكَ يا رسول الله؟ فأجاب: «**رأيتُ ربِّي بفُؤادي**» فلما سُئِل:

هل تصفُه، أجاب: «**هو نورٌ أَنَّى أراه؟!**».

ومعنى هذا أنه لا يمكنه إنكار المشهود، ولا إدراكه. وعلى هذا النحو يُنظر إلى مثل قوله -تعالى- عن البيت الحرام: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [آل عمران: ٩٦-٩٧] من الوضوح بحيث لا يحتمل الجدل. إنه لم يُرِد بكون البيت مُباركًا أنه كثير المادة أو المال أو الثمرات، بل هو مُجرَّد من كل ذلك، فلزِم أن يكون المقصود من كون البيت مباركًا معنى آخر، غير المعنى الذي تتجه إليه أنظار الناس في الغالب. فالبيت مبارك والكتاب مبارك والشجرة مباركة واسم الله -تعالى- مبارك، إلى آخر ما بيَّنا آنفًا، فلم يَعُد ثَمَّةَ مجال لمكابرة المكابِر أو مكاثرة المكاثِر في مفهوم البركة، بارك الله عليهم ليفهموا. ولقد كان حَرِيًا بالباحثين من العلماء أن يكونوا حكماء، فإن العلم من غير حكمة، لا غَنَاء فيه ولا كفاية. كما أشار إلى ذلك قوله -تعالى- لنساء رسوله -عليه السلام-: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ ﴾ [الأحزاب: ٣٤]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

ويُخَيَّل إليَّ أن الحكمة هي مفهوم البركة الأول. ومن أجل ذلك نرى -بحكمة اللغة- أن البركة تتعدى بذاتها وتتعدى بالباء وتتعدى باللام وتتعدى بفي الظرفية وتتعدى كذلك بحرف الجر علَى.

فإن الأول، وهو أن فعلها يتعدى بذاته ففي قوله تعالى: ﴿ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [النمل: ٨]، وبورك فعل ماضٍ مبني للمجهول، وقد تعدى بذاته إلى الاسم الموصول.

وأما تعدّيها باللام، فبجواز قولك لأخيك: «باركَ الله لكَ في عقلِك ودينِك» وأما

تعديها بفي الظرفية، ففي مثل قوله تعالى: ﴿ وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾ [فصلت: ١٠].

وأما تعديها بعلى، فمثل قولنا في التشهد «وبارِك على محمّد وآل محمد، كما باركتَ على إبراهيم»[1] ... إلخ.

وهذا يجعلنا ننظر إلى فعل البركة نظرة فاحصة حكيمة. فإن البركة، عندما تتعدى، أي تنتقل بذاتها عندما نقول «باركَ الله من حولَ النارِ ومن فيها» لا نكون قد استخدمنا التعدية حرفًا من حروف الجر.

وعندما نقول «باركَ فيها» أي الأرض، نجد فعل البركة تعدى بفي الظرفية، وهذا يشير بوضوح إلى سريان فعل البركة خلال الأرض سريانًا مناسبًا لها ولطبْعها.

وعندما نقول «اللهُمَّ بارِكْ على محمّد» نجد البركة تتعدّى بعلَى، وهنا إشارة إلى انصِبَاب البركة من أعلى.

وكل هذا -وما لم نُشِرْ إليه- يدعونا إلى أن نُمْعِن النظر -بحكمة- في الطريقة التي استخدم بها القرآن الكريم اسم البركة وفعلها؛ حتى يتسنّى لنا أن نسمَّي متدبِّرين، مُدَّكِرين لآيات تقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ ﴾ [النساء: ٨٢]، وتقول: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ١٧].

أرأيت يا حبيبي -الذي أُخلِص له النُّصح عندما أملي عليه- مدى هذه النظرات في هذه الآيات من المُحكمات، والمُتشابِهات؛ لتُوقِن بالقرآن يقينًا ذَوْقيًا، حيث لا يكفي أن تُؤْمن بالقرآن لفظًا أو وحيًا غَيْبِيًّا.

---

(١) الحكمة والبركة ومباحث اللفظ في البركة من حيث اللغة.

هذا هو معنى الآيات الدالة على استشعار القلوب، بعد أن تتأمّل البصائر وتفكر مليًا ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ [مريم: ٥٨]. أجل لقد سجدوا أمام رهبُوت العظمة بكيًا بسريان رحمة الحكمة.

فليقولوا لنا: أليس هذا داخلاً في نطاق ﴿ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ ﴾ [الأنبياء: ٥٠]؟

أليس هذا نورًا أمام البصائر؟ صادرًا من البصائر؟ وأعني من البصائر الثانية الآيات نفسها، فقد أيّد القرآن هذا المعنى في قوله -تعالى- من سورة الإسراء: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢] فقد دلّت الآية على أن الآيات بصائر؛ لأن هذا النص مسبوق بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَـٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ [الإسراء: ١٠١] إلخ. ما بيَّنَّا.

فالوقائع آيات بيّنات، والآيات البيّنات بصائر. وأما التسع آيات المشار إليها في هذا النص فهي:

١- أن تكون عصاه حيَّة تسعى.

٢- أن تكون يده -إذا أخرجها من جيبه- مشعة بسَنَاءٍ قَهَّارٍ للأبصار، لا لبصر موسى ولا الذين آمنوا معه.

٣- الطُّوفان.

٤- الجَراد.

٥- القُمَّل.

٦- الضفادِع.

٧ـ الدَّم.

٨ـ أن يضرب الحجر بالعصا، فينفجر منه اثنتا عشرة عينا.

٩ـ أن يضرب بعصاه البحر، فينفلق، فيكون كل فِرْقٍ كالطَّوْد العظيم، متجمدًا ماؤُه.

هذه هي الآيات البينات. وهذه الآيات البينات هي البصائر، التي لو أمعن (فِرْعون) فيها النظر، لدفع عن نفسه شرًا وخيمًا وعذابًا أليمًا، ولكن حاشية الكِبْر طَمَسَتْ على بصيرته، ففاته الإدراك وضاعت منه فرصة الحكمة، فهوى وكان مستبصرًا عالمًا، غير حكيم. لهذا نَهِيب بكل مُخْلِص لهذا الكتاب، أن يذكر ما فيه من آيات الله، ثم يتبصَّر ما فيه من الحكمة؛ لأنها هي زُبْدته وخُلاصته وهي سر نوره وهداه.

وليست كل هذه المزايا داخلة في القسم الظاهر منه نصًا أو حرفًا أو صوتًا أو لفظًا، فكم تالٍ للقرآن وهو منه بعيد وليس به بسعيد ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

فيـاً دواءَ ضنَى قلبـي ويـا بَصَـري ... يا سرَّ مشـهدِ هذا السمعِ والنَّظرِ

يا رحمةَ الوحيِ يا سر العُلاَ قُدُسًا ... يا مبتَدى الكونِ أو يامنتَهى الخَبَرِ

مـا للغُفَـاةِ عن الآيـاتِ قد عَمِهَـتْ ... عيـونُهم منـه وانسـاقُوا مـع الفِكَـرِ

ترسَّــلَتْ كلَمـــاتُ اللهِ فـــي نغـــمٍ ... فلـمْ يفـوزُوا بغيـرِ العُـودِ والـوَتَرِ

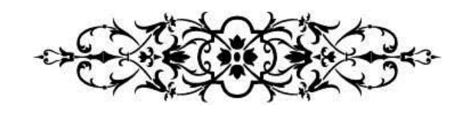
فما تخطَّوْا حِجـابَ الحِسِّ فيـهِ وَلاَ ... تنـــاوَلوُا فيــه راحَ الطِّيِّـبِ العَطِـرِ

أوحاهُ روحًا ونورًا من لـه سَجَدَتْ ... تلك الخلائقُ من بـدو ومـن حَضَـرِ

والمؤمنــون بــه فــازُوا بنعمتِــهِ	**والمشركون مَضوْافي الغِى والحَصَرِ**
لم يشهدُوا من سناهُ الحيِّ بارِقةً	**وفيـهِ صَمُّوا بـلا سمعٍ ولا بصرِ**
فالحمـدُ لله بِــه لـم يـدرِ أكثـرُهُم	**من حكمـةِ العقلِ إلا فَهْم مُنحَصِرِ**
أنّــي لهـم نعمــةَ التغريـدِ واهمــةً	**نفوســهُم وهــواهُم جِــدٌّ مُنْحَــدِرِ**

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ ﴾ [الرعد: ٣١] لكان هذا القرآن، وهو الجواب المحذوف المقدّر على النصّ الوارد المبدوء بقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ ﴾ فهذا هو الخبر المحذوف، فما معنى هذا إذًا؟ هذا كله في الظواهر اللفظية والجرْس الصوتي والحروف الرمزية. إن أقل مقدار من الإدراك يعطي جوابًا سلبيًا، فإن ظواهر اللفظ وجرْس الصوت ورمز الحرف لا قدرة له على تسيير الجبال وتقطيع الأرض أو مكالمة الموتى. فلم يبقَ إلا أنَّ المقصود هو روح الوحي، وما يعطيه في النفوس المستعدة والقلوب المطمئنَّة من قوى إدراكية، تكشف -في نور هذا الوحي وبقوة هذا الروح- الحقائق الانفعالية في أنحاء الكَوْنِ أمام البصيرة. وتُنْشِئ الهمة الفعالة متعلقةً بروح هذا النص الأعلى، وبه تُسيَّر الجبال وتُقطَّع الأرض ويُكلَّم الموتى؛ لأنه صادر -لا من التالي بل- من المُوحِي، الذي هو صاحب النُّفوذ وله سبحانه وتعالى نفاذ المشيئة في جميع ذرَّات الكون.

وهكذا كانت المسألة الجزئية بنقل عرش (سَبَأ) إلى (أُورْشَلِيم) مِمَّن عنده علم من قُوَى ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾.



المبحث الثامن:

سُقوط حُجَج السَّطحيين بالأدِلَّة الدَّامِغة

فلم يَعُد للمكابرين من السَّطحيين الذين جَمُدُوا على الظواهر مقرٌّ معقول، يمكن أن تستقر عليه سطحيتهم السلبية، وتجرُّدهم من القُوى الرُّوحية بُعَداء عن الحكمة، مُعْدَمِين من النعمة، لا ينالهم من مَسْمُوعه إلا ما يَنال الأنعام من الاصوات ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَـٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَـٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

أما الأفذاذ اللُّبابيون[1] المتعمقون، فهم -دون سواهم- الأحرياء[2] بتجليات الآيات الملكوتية في السموات والأرض، حيث تكون أنفسهم مجالاً واسعًا ومجالى صافية لتلك التجليات لأولئك المتفردين ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥].

وهؤلاء -ومَنْ نهج منهجهم وسلك مسلكهم- هم من (إبراهيم) أبي الأنبياء عليه السلام ﴿ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ [آل عمران: ٦٨] الخ الآية.

ومن أجل ذلك، جعل لهم الحق فى الكشوف الملكوتية، ووعدهم وعد الصدق ﴿ سَنُرِيهِمۡ ءَايَـٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ ﴾ [فصلت: ٥٣]. ولـمّا كانوا من (إبراهيم)، كان من حقهم ما تفضّلت به العناية على (إبراهيم) الذى هم منه، حيثُ لا فرق ولا انقطاع لا بين الرُّسل

(١) اللبابيون: المتعقلون المتفكرون «من اللُّب وصفته اللبيب».

(٢) الأحرياء: الجديرون وتقول اللغة «حريٌّ بك كذا...».

والأنبياء، ولا بين هؤلاء ومتَّبعيهم ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقد دَعَم وَحدتهم فى الصف الواحد بقوله -تعالى- بيانًا وتشويقًا: ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩] فهؤلاء المؤمنون -حقًّا- المُفْرَدُون -صدقًا- هم وحدهم الذين تَحرَّرُوا من خُطور فكرة الشِّرك في نُفوسهم، فلم يعودوا بحاجة إلى تقرير التوحيد، بل فنِيت نفوسهم في شُعاع ذلك النور الأقدس، فلم يشهدوا سواه، تجرُّدًا لتقديسه تعالى، فصاروا السابقين المُفردين -بالتفريد الوجداني- كما ورد في الخبر «سَبَقَ المُفْرَدُون».

وهنا مسألة لطيفة:

فإن قولنا ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ يحوى نفيًا في أوله وإثباتًا بالاستثناء قبل آخره. وهؤلاء الذين كلما اعترضهم الشك -وهو توهُّم وجود إله آخر- ذَكَّروا أنفسهم بالنفي «لَا» وبالإثبات «إلاَّ»، لكنَّ الذين تجرَّدوا من خاطر الشك، لم يعودوا بحاجة إلى تقرير النفي والإثبات، متى تم العلم بالحقيقة الكبرى التي ينطوي عليها قولنا ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ وهو القول المطلوب العلم بمدلوله الأعظم؟ وليست تكرار لفظه المُكرَّم وكفى.

ودليلنا على هذا قوله -تعالى- فى سورة محمد ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ [محمد: ١٩]. على أن هذا يُراد للتذكير، والتَّذكير لا يُراد إلا عند طُروء النسيانِ لنصِ قوله تعالى في سورة الكهف: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [الكهف: ٢٤]. أمَّا المُفردون فأنَّى لهم النسيان، وأما المشركون فأنَّى لهم الذكرى؟

هذه المسألة اللطيفة على دقتها -أو الدقيقة على لُطفها- لا يدركها إلا من

تجرَّدت نفسه عن أهوائها ومُتعلَّقات تكوينها وتطهرت سريرته من خُطور الأوهام، ومن تَضَاعِيف الليالي والأيام وتطورات الآمال والآلام. فهم دائمًا -بسبب ذلك- ذاكرون ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾. وليتبين لك معنى مسّ القرآن، ولكي تعلم رُوحانية هذا الذكر الحكيم، يجب أن تُمْعِن النظر -نظر البصيرة- في قوله تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقوله جلّ شأنه: ﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [يونس: ٥٧]، وقوله عزَّت ذاته: ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ [فصلت: ٤٤].. لنرى هل هو يعني حروفًا أو ألفاظًا أو شيئًا حادثًا؟ أم هو يريد تعيين المصدر الأعلى للشفاء بدليل قوله: ﴿ نُنَزِّلُ ﴾، وقوله: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]، وقوله: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ [الدخان: ٣]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]... إلى غير ذلك من الآيات الدَّالة على تنزُّله من عليائه، وتجليه في أسمائه، ووضوحه في آياته، وآثاره في صفاته، التي بها يُشْفِي عِلَل النفوس من ضَنَاها وعلل القلوب بمعناها.

فهو تارةً يُشْفِي من أمراض البدن، بنص قوله تعالى عن (إبراهيم) -عليه السلام- ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠].. وتارةً يُشْفي من أمراض العقول كالحيرة والشك، فيزيل الشبهات بلوامع البيّنات وقواطع الأدلة والمعجزات، ومن هنا يكون ﴿ هُدًى وَشِفَآءٌ ﴾ معًا.

أكل هذا يا أخي ملموس باليد فيما تكتبون، مشهود بالنَّظر فيما تسْطُرون، محدود بالعقل فيما تفكّرون ؟! فكيف يتفق هذا مع كونه ﴿ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾؟

ومن لطائف الحِكَم في جوامع الكلِم أن يتجلَّى به نورًا كشَّافًا لظلمات الأوهام، مُرشِدًا لحقائق الإسلام ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾... لهذا الإرشاد الحكيم ﴿وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس: ٢٥].

المبحث التاسع:

قَبَسُ الحِكمة وميزَاب الرّحمة(١) ومِرْآة النِّعمة

لقد كوَّنت الفكرة الخاطئة في فهم الآية الأولى من هذه الرسالة حِجابًا كثيفًا، لا ينفُذ خلاله سوى البصائر الوقَّادة والأذهان النفَّاذة، وقليل ما هم أصحابها.

وبهذا أُسقطت هِمَم العوام، تِبعًا لوُقوف ذلك الحجاب على أذهان العلماء -غير الحكماء- وهم الَّذين قصروا المعنى على القِسْمِ الماديّ منها فتحدثوا فيما تلمسه الأيدي، غافلين -لا أدري عمدًا أم سهوًا- عن المنطوق الصريح فيما يقرأون من قوله سبحانه: ﴿ فِي كِتَـٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴾ [الواقعة: ٧٨].

وتقدَّم بهم نزغ الشيطان، فلم يضربوا بسهم المعنى الجوهري من النص، وأوغل متكبّرهم في الغرور، فزعم أنه بلغ المدى وأدرك الهدى، بينما هو ما يزال -بالآيات البيّنات- في مرتبة الحضيض ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ ﴾ [الأعراف: ١٧٦] فضلَّ هُداه، وحِيل بينه وبين شهود ذلك القبس اللامع والأمر الجامع، فكان بعيدًا -بذلك- عن مطارح الرحمة ومنابع الحكمة ومواقع النعمة، ويقول جلَّ حُكمه ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٧].

ولــو أن قرآنًـــا تجلّـــى جمالُـــهُ ... بصـائرَ تهْدِي مَـنْ تشـاءُ وتُرْشِـدُ

---

(١) ميزاب الرحمة: يقع الميزاب في أعلى منتصف الجدار الشمالي للكعبة، المطل على الحجر، ووُضع لتصريف المطر الذي ينزل على سطحها ليصب في الحجر.

لماشَهِدُوا منهاسوى جَرْس فظِها	ولا قامَ منهم في العُلَيَّاتِ مُنْشِدُ
فلا مَثُلاَتُ الكونِ توقظَ وَعْيَهُمْ	ولا صادقُ الأنباءِ يرضاه مُلحِدُ
لما عَمِهَتْ منهم بصائرُ غَشِّيَتْ	ولا شَهِدُوا رُوحًا إليهم تودَّدُ
ولا آمَنُوا بالمصطفى وهو حاضرٌ	إذا قُرِئَ القرآنُ ها هو أحمدُ
مطالعُ أنوارِ الهُدى بَسْمَةَ النَّدى	وصِرْحُ علاءٍ في المعاني ممرَّدُ
بشيرًا نذيرًا باسطَ الكفِ حانيًا	رؤوفًا رحيمَ القلبِ لا يتجمَّدُ
فهذا كِتابُ اللهِ لم يبقَ بعدَهُ	سوى جسد يحيا زمانًا ويهمدُ
وإن شَقِيَّ الروحِ من هامَ بالثَّرى	وإن عليَّ الروحِ أسمى وأسعدُ
(وَذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ)	له الحمدُ والمختارُ فيه محمَّدُ

وقد جرى العُرف بين الناس بإسناد الحكمة إلى الطبيب، فيُسمَّى الحكيم، مع أن الطب فرع من فروع الحكمة. فإذا كان القبس القرآني نفحة من نفحات الحكمة العليا، أمكن أن نقدِّر ما في الكتاب -القرآن- من قوة في شفاء العلل العقلية الفكرية، أو علل النَّفس أو البَدَن، إذا إن النص لا يفيد الحصر في ناحية من هذه النواحي، اللهم إلا إذا انحصر الشفاء في ناحية منها بنص القرآن كقوله: ﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [يونس: ٥٧]، وقد يكون ما في الصدور غيظًا في سبيل الحق، كقوله تعالى: ﴿ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ ﴾ [التوبة: ١٤-١٥] أي بالنصر الذي يُؤتيه بقوة الملائكة التي تتنزَّل على المجاهدين، أما إذا أُطلق اللفظ القرآني معنى الشفاء كآية الإسراء ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

[الإسراء: ٨٢] فلا حصر في هذا.

ومن لطائف الحِكم أن هذا القرآن -نفسه- يحوى أثرًا مُضادًا بالشفاء والرحمة، إذا كان التَّالي له مُعطَّل القلب مريض الصدر -بحلول الشِّرك في نفسه- كقوله تعالى بعد آية الشفاء والرحمة مباشرة ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ وقوله في سورة البقرة ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦]. ويبدو من هذا أن كثيرًا من الناس يحاولون -بالقرآن- الانتقام من أعدائهم، كأولئك الذين يقرأون سورة (يس) ويزعمون أن لهم قدرة على توجيه الملائكة، الذين يسمونهم خُدّام السورة افتراءً على الله وتحقيرًا للذين قال الله عنهم: ﴿ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴾ [الانفطار: ١١]، وما أرادوا بذلك سوى الحصول على منافع الدنيا، وقد وقع في أيديهم من موضوعات الأحاديث، ما شجَّعهم على تضليل العامة والافتراء على الرسول ﷺ، حيث زعموا أنه قال: «يس لما قُرِئت له» وأنه قال: «خذ من القرآن ما شِئْتَ لما شئت» أو أنه قال: «اقرأُوا يس على موتَاكُم» الخ ما يفترون.

والواضح بطلان مدلولات هذه الألفاظ، فإن الإطلاق الواضح في قولهم -ما شئت لما شئت- يدل على اتخاذه للشر أو للخير معًا، متى تعلَّقت بأحدهما مشيئة التَّالي. وهذا لا يمكن أن يكون حديثًا نبويًا، بسبب هذه العلة. ثم إنه ﷺ لا يأمرنا بقراءة (يس) على الموتى؛ لأنه لم يقرأ شيئًا من القرآن على الموتى. والمأثور عنه ﷺ يعارض هذا المعنى.

وفى سورة (يس) نص بمنع قراءتها على الموتى في قوله تعالى: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا ﴾ [يس: ٧٠]، ثم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ [النمل: ٨٠]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ ﴾ [فاطر: ٢٢] فلم

يعد لهؤلاء الدجّالين سوى اعتبار واحد وهو اتخاذ مجرد التلاوة مصدرًا لرحمة الميت. وهو اعتبار باطل بطلانًا أصليًا لقوله عليه السلام: إذا ماتَ ابنُ آدم انقطعَ عملُهُ إلا من ثلاث:-

١- صدقةٍ جارية: كبناء مسجد أو مدرسة أو سبيل ماء في منطقة مقفرة.

٢- علمٍ ينتفع به: كتأليف كتاب أو نفقة عالم يُعلِّم الناس.

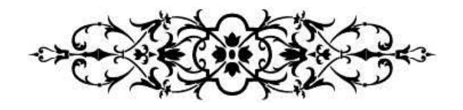
٣- ولدٍ صالح يدعُو له: وقد بين لنا القرآن نماذج من هذا الدعاء.

كقول إبراهيم -عليه السلام- ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١] وكقوله -تعالى- بصيغة الأمر: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٤] ولم يقل اقرأ لهما شيئًا من القرآن.

فهذا كافٍ للدلالة على أن جماعة المرتزِقة من الدجاجِلَة -وإن ظنوا أن رُوحانية القرآن موجودة وذات أثر إلا أنهم- اتخذوا هذا الظن وسيلة لتضليل العامة وبعض الخاصة. وبذلك انتشر استخدام التعاويذ والتمائم -أي الأحجِبة- وكتابة بعض الآيات أو الأسماء في الأطباق بالزعفران وغيره، ووصف العلاج بمحوها بالماء فيشربها المريض. وكل هذا انحراف صارخ بروحانية القرآن عن مجرَاها الذَّاتي اللائق بسُمُو معانيها وعُلُو مراميها. ولو فطِنوا إلى حكمة هذا القبس، لأهَّلهم هذا التدبُّر مواقع هذه الحكمة، وتلقِّي الفيض الأقدس من ميزاب الرحمة، واستجلاء الفضل الإلهي على مجالي النعمة في المشهودات، التي هي الأثر المرئيّ للعليم الأعلى، وإسناد الإبداع إلى من هو أحقُّ به وأولى. ولكن ﴿ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرۡشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧].

ولقد ورد في السنة أن رجلاً من الأعراب وفد على النبي ﷺ، ومد يده من بين يديه ليبايعه بالإسلام، فأعرض عنه، فجاءه عن يمينه ومد يده للمبايعة فازورَّ عنه، فجاءه عن يساره، فالتفت عنه ولم يبايعه، فذهب الأعرابي إلى عليّ -كرم الله وجهه- يشكو إعراض النبي عنه وهو يريد مبايعته للإسلام. فقال له علي: يا رجل هل تتعلَّق تميمة؟! قال الرجل: نعم، قال: إذن فاقطعها وتقدم إلى النبي ﷺ، ففعل ثم تقدم فمد إليه النبي ﷺ يده فبايعه بالإسلام، ولم يترك يده، بل شدَّ عليها ونظر إلى الرجل قائلاً: «**يا هذا من تعلَّق تميمة وُكِل إليها**» انتهى الحديث.

ومن هنا يتّضح مدى ما انحدر إليه الدجَّالون ومُريدوهم، من الضلالة واستخدام القرآن في الضلال، ليُضِلُّوا به كثيرًا، وليحملوا أوزارهم على ظهورهم، كاملة يوم القيامة ﴿ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣١].



الفصل الثاني:

افتتاحيّة:

الكتاب العزيز العليُّ الحكيم

على أن من تدبرّ قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ۝ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢] نقول لو تدبروا هذا، ما تورَّطوا فيما انتهى بهم إلى الإلحاد في آياته. والإلحاد في الآيات هو الانحراف بمعانيها عمَّا تتضمَّنُه نصوصها ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ ﴾ [فصلت: ٤٠] وسوء التأويل وفساد التخريج، ليُضاهيء رغبات هؤلاء المُرتَزِقين، كما كانت تفعل أحبار اليهود يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ الله ثَمَنًا قَلِيلاً، ويُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، ولو تدبَّروا قليلاً لعلموا أن هذا الكتاب العزيز ما كانت له العزّة إلا بسمُوّه عن تلك المدارك المنحطّة، وعُلوّه عن مستوى أفهامهم. فله العزّة وله العُلو وله الحكمة، كما يرد -خصوصًا- في الآيات السابقة.

فبأي وجه فهو الكتاب العزيز، وبأي وجه فهو الكتاب العليّ الحكيم، وهم لم يدركوا معنى عزته، فضلاً عن عليائه وحكمته. وهم أيضًا مُجرَّدون من الحكمة، ولو ورِثوا الكتاب حق ميراثه، وتَلَوْهُ حق تلاوته، لصَرَفتهم أنواره عن ظلمات أوهامهم وحاجات لياليهم وأيامهم.

لكنّهم مثل أولئك الذين قال الله -تعالى- في حقهم: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا

ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ﴾ [الأعراف: ١٦٩] فما كانت دراستهم له إلا ضلالهم به لِيُضِلُّوا بِهِ كَثِيرًا، وهؤلاء المعنيون بهذه الكثرة الضّالة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٦] ولو وحَّدوا لأفادوا من نور التوحيد نور البصائر ولما زاغوا عن سبيل المؤمنين ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وإذا كُنَّا قد سَلَّمنا بمفهوم قوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ ﴾ [الأنعام: ١٥٥] فإن الذي يتعين الآن هو أنه لا نصيب في بركة الذكر إلا لمن اتقى. وقد بيّن سبحانه في أول البقرة بقوله: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢] والقراء يقف بعضهم عند قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ ﴾ ثم يبدأ بإتمام الآية ﴿ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ وهذا المنهج ينفى الشك ويزيل الرَّيب عن صحة الكتاب، ثم يقرأ أن فيه ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ والبعض الآخر يقرأ ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ على أنها حال، أي هو هدى للذين يتقون. وكل من الرأيَيْن سديد في منهجه، ومنهما تتبيَّن حقيقة أنه هدى، لكنه للمُتَّقين لا لسواهم.

وقد شرح سبحانه تفصيل التقوى بقوله بعد ذلك ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ وهذا الإيمان بالغيب معناه التصديق الجازم بما لا يستطيع العقل إدراكه من الأسرار الملكوتية وقوى الملائكة، وسريان نفوذ تلك القوى في كل شيء مما نرى ومما لا نرى، ومما نبصر ومما لا نُبصِر. وهذا أساس للتسليم بوجود قوة خفية فوق إدراك العقل، تتعلّق بهذا الكتاب، وليس المقصود بكلمة ﴿ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ هو المصحف كما قدمنا، لأنه لم يكن ثَمَّة مصحف عند

نزول قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾ فلزم من هذا أن يكون المقصود بالكتاب هو المعنى الأعلى الذي تشعر به في قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴾ [فصلت: ٤١] وعزته تجعله بعيدًا أولاً عن متناول الأيدي، عاليًا عن مدارك غير الأتقياء.

وقد واصل سبحانه وتعالى بيان معالم التقوى بقوله بعد ذكر الإيمان بالغيب ﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ والمقصود بإقام الصلاة هنا هو الإتيان بها قائمة بمعناها، ماثلة في القلب بنورها الذي ينفسِحُ له الصدر وينشرح، ويستشعر المُصَلِّي -بِه- كمال الخشوع وتمام حضور الروح خلال الصلاة حضورًا يملأ القلب رحمة ولذلك قال: ﴿ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ سواء كان الرزق ماديًا أو معنويًا. ثم تابع -تعالى- بيان بقية معالم التقوى حيث قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾ أي هذا الكتاب نفسه، يصدقون بمَضَامينه وأحكامه وأنبائه، ويتأثرون بعظاته، ويعملون بما أراد لهم أن يعلموا من الحاضر والماضي والمستقبل. ولذا قال: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ ﴾ على الأنبياء والمرسلين كصحف (إبراهيم) والتوراة والزبور والإنجيل. ذلك لأن الإيمان بهذه الكتب وعدم التفريق بين هؤلاء الرُّسل، يترتب عليه انفساح جانب القيم واتساع نطاق النور في نفس المؤمن، بهذه الكتب جميعًا. ويترتب على ذلك حصول اليقين القطعي بيوم الميعاد؛ ولهذا قال: ﴿ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴾ لأن اليقين مُسْعِد للقلب -بما فيه من مَعْقد الأمل الأسعد والملك الأخلد- موقظٌ للوجدان من غفوة الحياة الدنيا التي لا تملأ عين القلب، ولا تسد فراغ النفس أو فراغ الفؤاد بعبارة أدق حيث قال تعالى: ﴿ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ ﴾ [القصص: ١٠].

وعلى هذا يكون انعدام اليقين باليوم الآخر قاتلاً للأمل، مضيّقًا للصدر، مُوقظًا لليأس ومُوجبًا للقُنوط. على عكس اليقين باليوم الآخِر، ومن أجل ذلك قال تعالى عن المؤمنين باليوم الآخر، المتصفين بالصفات الواردة بالآيات الأولى من سورة البقرة: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٥]. أما من لم يَنَلْ من هذه الصفات شيئًا، فمُحال عليه أن يكون على هدى، بل هو ﴿ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ ومن كان كذلك فلن يكون من المفلحين.

فهل قرأنا للذين تصدَّوا لتأويل القرآن من استشراف لعمقه وإدراك لمعانيه تلك الشروط، التي وردت متتابعة في الآيات الأولى من مطلع القرآن الكريم. وحيث إن الفهم متوقف، هو والفلاح على هذه الشروط، فالذين تتوفر فيهم هذه الشروط بالذات، هم أنفسهم الذين عناهم بقوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ وهذا واضح وضوحًا صارخًا، فإنه لم يُرِد الطاهرين من الحدثيْن الأكبر والأصغر، اللَّذيْن يزولان باستخدام الماء، وتنقية الجسم من أدرانه والمواد الدهنية التي يفرزها. وحصول هذا الطُّهر يجعلهم طاهرين من النجاسة الحسية والمعنوية، ولكن لا يمكن أن نسميهم مُطَهَّرين، بل هم مُتَطهِّرون. والفرق بينهما يتضح من وجود كثرة من ذوي الأجسام النظيفة النقية حتى من المشركين. وهذا لا ينفي وجود نجاسة روحية تحُول بينه وبين فهم القرآن. ألا نستطيع أن ندرك معنى النجاسة الروحية في مثل قوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَـٰذَاۚ ﴾ [التوبة: ٢٨] لأننا نرى أن قيام معنى الشِّرك -وهو أمر عقليٌّ بحت- جعل الشرك هو بذاته نجسًا. إذ يتعيّن أن يكون المعنى المراد بقوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا

ﱡﭐ ﭐﱠ ﭐ﴿ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ هو ذلك الطُّهر الروحي والقدس الوجداني، الذي يمكِّن أرواح المطهَّرين من السمو اللائق برفعة الآيات وسمو معانيها وبُعد مراميها في عليائها وحكمتها. فهل هذا يتوفَّر لمن توضأ مجرد وضوء أو اغتسل مجرد اغتسال؟

وهل يستطيع من فعل ذلك، ثم حمل مصحفًا أن يسمى من المطهَّرين؟ أظن -بل أُوقن- أن الجواب لابد أن يكون سلبيًا.

إن قواعد هذه اللغة العربية التي نَزل بها هذا القرآن ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ﴾ [الشعراء: ١٩٥] جعلت المُطهَّرين بصيغة اسم مفعول، أي الذين طهَّرتهم عناية الله وقدّستهم محبته وكشفت عن بصائرهم الحُجُب، آلاؤه وأفضاله ومننه ونفحاته؛ لأنهم تعرّضوا لتلك النفحات بما اتَّصفوا به من تلك الصفات التي أشرنا إليها في مطلع المبحث السابق. فهم أشبه بالمُخْلَصين -بفتح اللام وصيغة اسم المفعول أيضًا- وهم الذين استخلفهم الله تعالى لرسالاته، كما قال سبحانه وتعالى عن (يوسف) عليه السلام ﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤] بعد أن قال: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ ﴾ فالذين صرف الله عنهم السوء والفحشاء، هم الذين استخلفهم -جل قدره- لمحبته واجتباهم لمودته واصطفاهم لفهم كلامه والتأثُّر بمراميه. فكيف يُتاح لمن عنده أقل إلمام بقواعد اللغة، أن يزعم أن هذا الاصطفاء الإلهيّ يتم بواسطة تناول الوضوء أو الغسل ولا شيء بعد ذلك، الَّلهم إلا صلاة شكليّة، يُلقِي فيها المُصلِّي السطحيّ كلام الله وهو لا يعي شيئًا من معناه.

هذا -يا قوم- شيء واضح لم يكن بحاجة إلى بحث أو عقد فصول بيانية لشرحه. فكيف أغفله الكثيرون من الذين تصدروا موائد البحث في كتاب الله تعالى؟!

إننا نعوذ بالله ورحمته أن نتردَّى في هذه الهُوَّة السحيقة، التي صرَفَت أذهان المؤمنين عن دقائق ما في كتاب الله تعالى من الحكمة ووجَّهتهم إلى معارك لفظية ومعامع بيانية أو بديعية، لا تَبِين فيها لُباب المعاني ولا سُموّ المرامي ولا علياء الروح القرآني ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ ﴾ [الأنعام: ٨٨].

المبحث الأول:

انْحِراف الكثير من كُتُب التَّفْسير

وإنْ تعْجَب فعجب ما نجده مكتوبًا في كثير من كتب التأويل، التي انحرف أصحابها عن جادَّة الحق بإيراد كلمات هي إلى الخُرافة أقرب. وإنِّي لأسُوق إليك بعض الأمثلة:

من ذلك ما نقرأه في تفسير (ابن كثير) لقصة ابنيْ (آدم) (هابيل وقابيل) من أن الله -تبارك وتعالى- قال لآدم : هل تعلم يا آدم أن لي بيتًا في الأرض وأنه في (مكة)؟

فأراد (آدم) -عليه السلام- أن يسافر إلى (مكة) بيت الله، فخاف على ولديه فقال: يا سماء احفظي هذين. فأَبَتْ! فقال يا أرض احفظي ما عليك. فأَبَتْ! فقال للجبال فأَبَتْ... الخ ما أورده (ابن كثير) -هذا- في تفسيره من هذا الهُراء... فهل كان هذا الرجل يدرك من قوله الذي قاله أنه حكم بوجود (مكة) قبل (آدم)؟ ثم لم يذكر هنا -هذا المُؤَوِّل العجيب- بأية قوة خاطب (آدم) السماء والأرض والجبال، وكيف أبت؟ وكيف علم بأنها أبت؟ وهل أبت قولاً مسموعًا؟ أم أبت بالفعل؟ إلى غير ما جاء في هذا التأويل من فساد وإهدار لقواعد التوحيد وعلم المنطق والأصول والسُّنة مما يورده. ثم يقول في آخر كلامه بأنه بإسناد جيد. فبأي إسناد هذا أو أية وِردة هي التي زعمها، وهو يورد أقوالا لا يسيغها العقل ولا يُسلِّم بها الدين. ثم ما زعم المؤوِّلون إسناده إلى المرحوم الشيخ (محمد عبده) في تفسيره -أولاً- من أن أصحاب الفيل أصابهم الجدري فحصبهم وقتلهم، ليكون كلامه موافقًا لآراء الغربيين، بينما النص لا يحتمل الكناية. وأن الله -تعالى- ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ أي صفوفًا مساوية

تمامًا للصفوف التي نظَّمها (أبرهة الاشرم)، وأن هذه الطير ﴿ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ كتلك الحجارة التي قُذِف بها قوم من قبل في بَلْوَتَيْ (سدوم وعامورة)، ﴿ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٍ مَّأۡكُولِۭ ﴾ وهو احتراق ذرِّيّ واضح الدلالة من الحكمة، لأن إبادة هذه الرمم إبادة ذرية تدفع عن (مكة) وما حولها وما يترتب على تعفُّن هذه الآلاف من الجثث من الوباء ونشر الجراثيم. ولو صح ما نُسب إلى الشيخ (محمد عبده) لكان من تراكم تلك الرِّمم ما أصاب البلاد بالوباء والحميات والطواعين، ولما بقى بعد ذلك معنى لقوله تعالى: ﴿ كَعَصۡفٍ مَّأۡكُولِۭ ﴾.

كذلك ما زعموا إسناده -والعهدة على الرواة في ذلك- أن الشيخ (محمد عبده) فسر الملائكة بأنها بواعث الخير في النفس، وليست كائنات مُشخَّصة وذوات مخلوقة من النور. وأن الشياطين إنما هي بواعث الشر في النفس، وليسوا كائنات مُشخَّصة وذوات مخلوقة من النار كما هو ظاهر النص.

ولو صح إسناد القول المذكور إلى الشيخ (محمد عبده)، لكان بذلك مُضاهئًا لمزاعم قوم لا خلاق لهم في الآخرة، ويكون قد أراد بتلك المضاهأة مسايرة مدنية الغرب، بما بهره من زُخرف نظامها. ونزل بالقرآن الكريم من علياء حكمته إلى آفاقهم المادية، وربما كانت نِيَّتُهُ الحسنة في ذلك حمل هؤلاء الغربيين على الإيمان بالقرآن، ولكنها خطة غير مُثلى، والله أعلم بصحة هذا الإسناد.

ثم نرى من هذا الطراز في التفسير المُسمّى بتفسير (الجلالَيْن) من أن جبريل -عليه السلام- نزل مُمثَّلاً بصورة بشرية على العذراء (مريم ابنة عمران) وكانت تتفلَّى!!

ولا ندري كيف غفل المؤوّل عن أن هذا المعنى -القذر- الذي اختاره للعذراء التي قال الله في كتابه إنه سبحانه وتعالى: ﴿ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا ﴾ كانت فروة رأسها وشعرها الجميل النقي مسرحًا للقمل!!

والقمل آية من آيات العذاب والعقوبة التي أرسلها الله على الفراعنة. وكيف يُتاح لذهن نظيف أن يتخيل (أم عيسى) قذرة، تسبح الصِّئْبان في شعرها ؟!

وأمثال هذا كثير شائع في تلك الكتب الضّالة التي ينشرها المُغرِضون من اليهود وغيرهم، من أعداء الإسلام بين المسلمين، ليُضلُّوهم عن سبيل الله، ويصدُّوهم عن كرائم المعاني العليا للقرآن الكريم.

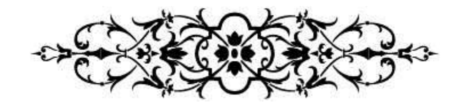
إذًا لا يكون حظ الآية الكريمة ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ نقول لم يكن حظُّها من حسن التأويل أسعد من حُظُوظ الآيات الأُخرى من الكتاب العالي.

الأمر الذي يُوجِب علينا أن نتصدَّى لهذه الأساطير والدسائس والإسرائيليات، التي سوَّدت صفحات كثيرة من هذه الكتب الموصوفة بأنها كتب تفسير، وإلى جوارها حشد من أمثال الكتب: تنبيه الغافلين - تفسير (الخازن) - تفسير (الجمل) - تفسير (البيضاوي)، وما إليها.

فلقد زعم (البَيْضَاوي) هذا في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَـٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص: ٣٤] أنه رُوي أن (سليمان) قال: لأطُوفنَّ الليلة بسبعين امرأة تحمل كل منهن فارسًا يجاهد في سبيل الله -ولم يقل إن شاء الله- فحملت إحداهن شِقَّ غُلام، فجلس على كرسي (سليمان) ثم قال: أو أنه غَزَى مَلِكًا في جزيرة فقتله، وكانت لذلك الملك ابنة تسمى

(جرادة) فكانت تبكى أباها، فأمر الجن أن تصنع لأبيها تمثالاً، ألبسته ثيابه وعكفت البنت مع تمثال أبيها أربعين ليلة، فعاقبه الله -تعالى- بأن أرسل عفريتًا يُسمّى (صخر) سرق خاتم الملك من خادمته، وكانت تُسمَّى (أمينة)، فلبسه العفريت وظهر بهيئة (سليمان)، وزالت عن (سليمان) هيئته، فكان كلما قال للناس أنا (سليمان) نهروه، وظل الشيطان (صخر) على كرسي الحكم أربعين يومًا، وكان لا يدخل على نساء (سليمان) فلما انتهت مدة الأربعين يومًا التي جلسها الشيطان على كرسي (سليمان)، طار (صخر) وألقى بالخاتم في البحر، وكان (سليمان) يعمل في متجر بائع سمك بأجر قدره سمكتان كل يوم، فأخذ إحداهما ووجد في جوفها الخاتم، فلبسه (سليمان) وعادت إليه هيئته.

هذا في نظر ذلك (البيضاويّ) هو تأويل الآية السابقة. فأي سخف وأي جنون أفظع من هذا؟! وإني لأرى أن الذي هو أفظع من هذا كله، هم الذين سمحوا لمثل هذه الكتب أن تغمُر المجتمعات الإسلامية، وأن تتداولها أيدي الذين أسمَوْهم زورًا وبُهتانًا بالعلماء، وما هم سوى حُجُب كثيفة تحجب عن أبصار المسلمين هذا النور المبين، الذي يُشِعُّ من كتاب أرسله الله ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ على يد رسول أرسله الله ﴿ رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾. ولو أردنا حصر ما انطوت عليه الورقات الصفراء من مخازٍ ومضالّ، ما وسعنا الزمن ولا وسعتنا الأوراق. فبحسبنا ما يعرِض لنا بسبيل هذه الرسالة الصريحة من أقوال تدفع إليها المناسبة.



المبحث الثاني:

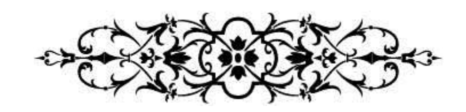
آراء الكثيرين من مُؤَوِّلي القرآن وبداهة بُطلانها

وإذا كنا قد بيَّنا بعض ما عَنَّ لنا -بعد تحرٍّ وتحقيق- من نَقْدَات تَهْدِم بعض المزاعم الباطلة، فإن علينا -لزامًا- أن نبني مكان ذلك الحطيم بناءً يمكن أن يطابق المفاهيم المعنوية من الألفاظ، فإنه فيما يتعلق بما تورَّط فيه تفسير (ابن كثير) في الصفحات (٤١-٤٤) من الجزء الأول من تفسيره -أو تأويله على الأصح- فإنه يتبيّن استحالة وجود (مكة) قبل وجود (آدم) لأن اسم (مكة) الذي يسميه الرومان (ماكورابا) معناه التجمع والازدحام.

فمِمَّن كان الازدحام والتجمع إذا كان (آدم) لم ينزل بعد، والنص صريح في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦]. وهو دليل قاطع على أن بناء البيت ووضعه إنما كان للناس -واللام لام الجنس- أي لجنس الناس، وهو في (آدم) بغير شك ولا جدل. هذا من جهة ومن جهة أخرى أن الله -تعالى- لما خلق (آدم) علَّمه الأسماء كلها، بنص قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١] فكيف يقول له بعد ذلك ألم تعلم أن لي في الأرض بيتًا وأنه سيترك ولديْه (قابيل وهابيل) ليذهب إلى (مكة) فأين كانت (مكة) ومَنْ سُكَّانها، الذين أقاموا مبانيها؟ هذا واضح البُطْلان وليس بحاجة إلى تعليق. أما أن (آدم) خاطب السماء والأرض والجبال فأَبَيْن حفظ ولديه، فإنه تعبير يدل على أن لـ(آدم) نفس القوة التي قال الله -تعالى- بها للسموات والأرض ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١] ومُنِح (آدم) نفس هذه القوة والقدرة على التخاطب والاستماع إلى الآباد، والرفض هو شرك واضح وظلم صارخ واستخفاف بالعقول وتضليل عن

السبيل.

فلم يبقَ إلا أن نسأل وُلاَةَ الأمور في وزارة الأوقاف كيف سمحوا بتسلُّل مثل هذه الكتب إلى أيدي العلماء من أئمة المساجد، ليتَّخذوا منها نِبْراس هداية وسبيل دعاية إلى حقيقة الإسلام؟! اللَّهم إننا نَرْبَأ بالمسئولين في وزارة الأوقاف عن تعمُّد ترويج التضليل، ولكننا لا نَرْبَأ بهم عن إهمال الاطلاع على أمثال هذه الكتب إهمالاً قائمًا على حسن الظن بالمؤلِّفين والاعتداد بشهرة أسمائهم وكتبهم.



المبحث الثالث:

دفع الظُّنون عن الشيخ الإمام (محمد عبده) للمعهُود فيه من قوّة الحُجة وتوقُّد الذكاء

وأما ما يتعلق بما أُسْنِد إلى الشيخ (محمد عبده) فالغالب أنه -لكثرة أعداء الرجل- يجوز أن يكون مدسوسًا عليه؛ لأن الله -تعالى- خاطب الثَّقَلين ﴿ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ [الرحمن: ٣٣] ثم درج في سورة الرحمن على إشراكهما في السؤال ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ٣٤] وفي نفس السورة ينص على أنه تعالى ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [الرحمن: ١٤-١٥] فقطعت هذه الآية دابر الشك في وجود الجن وجودًا شخصيًا ثابتًا في سورة الأنعام، حيث قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٢٨] ومن هذا -من حصول استمتاع بين الجن والإنس- فلا يسُوغ القول بأن الشياطين ليست سوى بواعث الشّر الذاتية التي تنبعث في الإنسان، أو في الآدميّ -على الأصح- لطبع جِبِلَّته(١).

كذلك ما يتعلّق بالملائكة، فإن الله تعالى بَيَّن تشخُّص الملائكة بقوله -سبحانه- عنهم: ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦] وبقوله تعالى عن (جبريل وميكائيل) في سورة البقرة: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٩٨]، وفي كثير من الآيات مثل ﴿

---

(١) جبلته: فطرته وطباعه الأصيلة في خِلْقته الأولى.

نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤] وقوله عن (جبريل) إنه ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ [التكوير: ٢٠]. كل هذا قاطع الدلالة على وجود الملائكة بالتعيين الذَّاتي والشخصيِّ المُسَمَّى. فلا يُعقل أن يغيب هذا عن حصافة الشيخ الإمام وذكائه وفطنته وكمال أدبه، ولا يسُوغ أن يُتَّهم بتجاهل هذه الحقائق، واعتبار الملائكة مجرد بواعث نفسية إلى الخير، تظهر في نفس الإنسان.

وقد يمكن أن نُسمِّي البواعث من حيث كونها بواعث قوى، وأن هذه القوى تدخل في نطاق الوحي المَلَكُوتيّ.

ويُؤْنسنا أن نذكر في هذا الاعتبار قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال: ١٢] وقوله جل شأنه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

وما يؤيد هذا من نزول (جبريل) في صورة بشرية في الحديث الذي رواه (عبد الله بن عمر) عن أبيه -رضي الله عنهما- أنه قال: (بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد سواد الشعر، شديد بياض الوجه، لا يعرفه منا أحد، ولا يُرى عليه أثر السفر، فجلس قُبالة النبي ﷺ واضعًا يديه على فخذيه مقابلاً لركبتيه، ثم قال: يا محمد أخبرني عن الإسلام ...) إلخ هذا الحديث المشهور. وهو دليل على تشخُّص (جبريل) عليه السلام في صورة الصَّحابي الوسيم (دُحيَّة بن خليفة الكلْبيّ). فإذا كان هذا هو لاعتبار من قُوى البواعث، فإنه يكون قد اندفع على المرحوم الإمام (محمد عبده) ما

وُصِم به من نفي الملائكة والشياطين. كذلك فيما تبيّن من سورة (مريم) من قوله تعالى عن (جبريل) ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم: ١٧]. وفي قوله -جل شأنه- عن الملأ الأعلى ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [غافر: ٧] وفي قوله -تعالى- في موضع آخر ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦] وقوله -تعالى- عنهم: ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الشورى: ٥]. فهل نزعات الخير عند الإنسان هي التي تحمل كل هذه الأسماء والمزايا؟ وتحمل العرش؟!

والواقع -كما بيَّنا- أن الرجل أراد أن يقول إن نزعات الخير أثر من تنزُّل الملائكة على ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ ﴾ [فصلت: ٣٠] وإن نزوات الشر، هي أثر للذين تتنزل عليهم الشياطين ﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٢٢٢]. نعم قال مثل هذا فأُسِئ فهمه.

وكذلك فيما يتعلق بالشياطين، وكونها هي بواعث الشر في الإنسان، فإنه يمكن اعتبار ذلك، والاستناد في هذا الاعتبار إلى قوله تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٢]. وبهذا يندفع نفي الشياطين أيضًا ويستقيم الرأي. أما الانحراف عن هذا النهج في الاستدلال، فإنه -من غير شك- انحدار إلى هُوَّة الكفر والعياذُ بالله.

وأما ما يتعلق بـ(سليمان) عليه السلام، وكونه ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ [ص: ٣٤] إلخ الآية، فإن قول (البيضاوي) رُوِيَ، فعل مبني للمجهول يُراد به أنه مرويّ عن النبي ﷺ . ومُحال أن يروي النبي ﷺ عن (سليمان) عليه

السلام أنه قال: «لأطُوفَنَّ الليلة بسبعين امرأة»... إلخ؛ لأن الاستحالة ظاهرة في عدم إمكان توزيع الليلة على سبعين امرأة، مهما تكن قوة (سليمان). ولا يُعقل أيضًا أن يتحكم (سليمان) في ربه في أن تحمل كل منهن فارسًا، يجاهد في سبيل الله؛ لأن (سليمان) كانت الجِنُّ مُسخَّرة له. فعلام هنا الإعتساف؟! وليس ذنبه في ذلك أنه لم يقل «إن شاء الله» فحسب، بل إن الذَّنب في أنه أقسم على أمر لا يدخل في مقدوره؛ حيث لا يقين عنده بأن يعيش حتى ينتهي من الأولى إلى الثانية وهكذا... فهي إذًا خرافة سمِجة غير منسَّقة، ونتيجتها بالغة السخف والاستحالة؛ حيث لم يثبُت أنه جلس على كرسيه (شِقٌّ غُلام). فإن التصور ذاته لم يتمكن من تخيُّل شق الغلام هذا، مجرد تخيل. فكيف رَضِيَ مجلس القضاء الإسرائيلي -وفيه أنبياء- عن جلوس هذا (الشق) وتتويجه؟!

كذلك ما عدل إليه (البيضاوي) بعد ذلك عن زعم وجود (خاتم الملك) وهو خرافة، ووجود خازنة للخاتم تسمى (أمينة). وهذا الاسم عربيّ لا وجود له بين العَبْرانيين، خُصوصًا في حاشية (سليمان) وحرمه الواسع(١).

أما صحة الآية، فإن الجسد هو الذهب كما قال تعالى عن (السامري) ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٨]. وقد ثبت في سِفر العبرانيين أن حاشية (سليمان) كانت قد صفّحت -بالذهب- أركان كرسي الحكم. وبَدَا الإعجاب أيامًا بهذا الوضع على (سليمان) ولكنه ما لبِث أن فطِن إلى ما في ذلك من السَّرف والخُيَلاء؛ فأمر على الفور بإزالة صفائح

---

(١) دفع الأوهام عن (البيضاوي) بالذات لا بالكتاب.

الذهب عن كرسيه.

وهذا معنى كونه -عليه السلام- ﴿ أَنَابَ ﴾ . ولا لُزوم بعد ذلك للتخبُّط ومتابعة الأوهام. وإني لأُرجِّح إسرائيلية هذه التآويل.

ولا يُعقل أن يصح إسناد هذه الخرافات إلى القاضي (البيضاوي). وإنما قلنا هذا احتياطًا متابعًا بوجُوب حسن الظَّن بخلق الله[١]، على أساس مطبوُعات، لا نملِك دليلاً علميًا على صحة إسنادها إلى مؤلِّفيها، بشرط أن يكون هؤلاء المؤلّفون مُعتَرفًا بهم في التاريخ. أو على الأقل في الكتب الآتية، وهي:

- كشف الظنون.

- كتاب وَفِيات الأعيان.

- كتاب أُسْد الغابة في وَفِيات الصحابة.

إلى غير هذا من الكتب التاريخية. أما الذين لم يُعرف لهم ذكر في ترجمات العلماء ولا كتب التاريخ، فإننا لا نعوِّل عليهم، وبالتالي لا نعوِّل على ما أُسند إليهم.

---

(١) ثم لم يقل لنا التاريخ إن (سليمان) عليه السلام غزا ملِكًا بجزيرة ولا سَبى ابنة هذا الملك المجهول. كما لا يُعقل أن ملكًا يسمي ابنته (جرادَة). فهذا القول المزعوم في (البيضاوي) لا يصلُح أيضًا أن يكون أسطورة؛ لأن الأساطير أرفع من هذا التصور السخيف والتدهور العقلي الواضح الفاضح.

المبحث الرابع:

كشْفُ الإسرائيليّات في كُتب القَوْم

ولعلَّنا لا نجد غُلُوًّا ولا انحرافًا عن الحق في تأويل كتاب الله -تعالى- مثل الذي انطوت عليه كتب كثيرة من كتب الصُّوفية مثل (تفسير ابن عربي) وكتبه «مواقع النجوم»، و«نصوص الحكم»، و«الفتوحات المكية»، و«عنقاء مُغرِب». وأمثال ما تورّط فيه الوهم في كتاب «الطبقات للشَّعراني» وهو على هامش كتابه «اليواقيت والجواهر» الذي ألَّفه دفاعًا عن شيخه (محي الدين بن عربي) على انفراج المسافة بينهما تاريخيًا.

كذلك كتاب «الإنسان الكامل لعبد الكريم الجيلي» على انقطاع إسناده تاريخيًا، وكتاب «الإبريز لعبد العزيز الدبّاغ». فإننا نجد بين صفحات هذه الكتب الأثر الصارخ من تسرُّب الآراء الإسرائيليَّة والمجُوسيّة في تأويل آيات الله، جعلت الجاهلية أقرب منهم إلى الإسلام.

ومن حسن الحظ أن ما حظِيت به صفحات (الشعراني) من الخُرافات عن الأولياء الذين سمَّاهم هو وانفرد بذكرهم، هي من وضوح السَّخَف، بحيث لا تحتاج إلى رد لظهور بُطلانها بالبداهة العقلية وقاطع الأدلة القرآنية.

أما ما يتعلق بكتب الشيخ الأكبر (محي الدين بن عربي) فيبدو فيها تعمُّق الدس والتحريف وسوء التخريج[١] بصور رائعة، تدل على أن الشيطان كان يتربَّع في القمة، عندما كان يُمْلِي هذه الدسائس. ذلك لأننا نحس لـ(محي الدين) قبسات صادقة من نور الذكر الحكيم، لا تتسق أسلوبًا ولا تتفق مستوىً مع ما

---

(١) دفع الدس عن (محي الدين بن عربي) لا على طريقة الشعراني.

يرِد بعدها من فساد وتضليل وتخبُّط، وعلى الأخص في ذكر «وَحْدة الوجود» وهي يونانية الأصل.

ومما لا شك فيه أن كثرة مؤلَّفات (ابن عربي) كانت أكبر من عمره، ولا يُعقل أن يكون قد كتب كل هذا إبَّان إقامته بـ(مكَّة). وأن النُّسخ التي اعتُمِدَت كانت في مدينة (قُونيا) وهنا ينفسح المجال لدس الدَّسَّاسين من الزنادقة والمُلْحِدين لحساب الرجل.

على أن بعضًا من العلماء المتضلِّعين من علوم السُّنة ينفُون فكرة الدس على (ابن عربي) بالذّات ويسمُّونه الشيخ الأكفر. ويذكر (ابن خلدون) مثلاً عند ذكر الصُّوفية في مقدمته عن التاريخ قوله: «ومن طواغيتهم محي الدين ابن عربي».

إلا أننا لا نجاري هؤلاء في التظنُّن بهذا الرجل، الذي قرأنا له من البحوث والنَّظرات ما يدلّ على الهُدى، لا على الضلال والتَّخبُّط الَّلذيْن تردَّى فيهما أمثال (عمر الخيام) و(عبد الله بن سبأ) وأمثالهما.

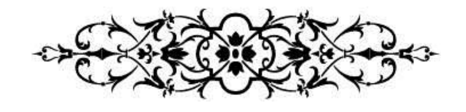
ونحن وإن كنا نَلْمح آثار ثعلبة في تفسير (ابن عربي) وفتوحاته وكتبه - ومنها كتاب «الدرر الأعلى»- فإن أسلوب تدوينها يدلّ دِلالة قاطعة على مخالفته لأسلوب (محي الدين) فإذا علمنا أن أعداءنا الأُوَّل من اليهود بدأوا يضعون الأحاديث على النبيِّ ﷺ إبَّان حياته وبعد انتقاله. فإنه لا يبعد عليهم، ولا هم يتورَّعون عن الدس لكبار مؤلِّفي المسلمين الكبار وأئمتهم، فضلاً عن تأليف كتب تزيد الناس اعتقادًا في الخرافة، حتى في المناهج التعبُّدية مثل كتاب «دلائل الخيرات» و«مجمُوع الأوْرَاد». ومنها «صلوات ابن بشيش» و«الجوهرة» و«الياقوتية» و«المحامِد الثمانية لابن إدريس»، و«تفسير

الخازن» والدس بـ(ابن كثير) و(البيضاوي) و(الزمخشري) و(النَّسفي) و(الرَّازي) وغير هذا مما يجعلنا نقطع بحق اليقين أن كتابًا واحدًا -هو كتاب الله الواحد الأحد- هو الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ ﴾ ذلك لأنه ﴿ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]. أما ما عدا ذلك من الكتب -مهما تَكُنْ- فليست معصومة من إتيان الباطل من بين يديها أو من خلفها؛ ذلك لأنها ليست تنزيلاً ﴿ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ . فعلى المؤمن الفطِن أمام هذه الحقيقة، أن يكون يقظ الضمير صادق الوعي دقيق التقدير في مُطالعاته كلها.

وقد تبيَّن من ذات الكتاب العزيز -بوصفه ذكرًا لأهله- وجود علاقة بين إهماله وبين تدمير الذين يهملونه. فإن من تدبَّر قول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠-١٥]، فقد تبين وجه الارتباط بين الكتاب -الذي فيه ذكرهم- وبين كونهم لا يعقلون. وكيف ضربه الله مثلاً لمصائر الغافلين من قبلهم عندما قال ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ ...﴾ إلخ، وما كانت تلك القرى التي قصمها الله وَهِيَ ظَالِمَةٌ إلا أنها كانت مُعْرِضة عن الكتاب الذي فيه ذِكْرُها. ولو فطِنت إلى ما يتعلّق بها من الكتاب لدفعت عن نفسها سُوء المصير الرهيب، الذي انتهى بتلك القرى، أي أهلها حتى ﴿ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ وحصيد بمعنى محصود؛ لأنها فعيل بمعنى مفعول. الأمر الذي يدل على قوله تعالى: ﴿ خَٰمِدِينَ ﴾ لأن الحدث الذي وقع منهم كان استئصالاً عامًا.

فإذا كان الإعراض من أمة عن ذكرها في كتابها يؤدي إلى هذا كله، فلنُلْقِ الضوء على كون كتابنا فيه ذكرنا. وكون الكثيرين من المؤوِّلين يَرْجِعون بالآيات إلى أسباب نزولها، والذين نزلت فيهم مُعْرِضين عن أن هذا الكتاب الأعلى -جامع الكتب ومُلْتَقى الأنوار الإلهية- فيه ذكر الذين يَرِثُونه إلى أن تقوم الساعة.

وإننا -نحن- معنيُّون بما فيه، فكيف يُحوِّلنا هؤلاء المتشدِّقون بالتفسير عن ذكرنا وعلاقته الوثيقة بمصائرنا ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠] مع علمهم أن خُصوص السبب لا يمنع عُموم اللفظ.



الفصل الثالث:

افتتاحية:

الكِتابُ النَّاطق

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩] وقد أنزله الله -تعالى- للناس ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ ولم يقُل ليستمعوا من غير إنصات ولا فهم؛ فيكون حُجّة عليهم شاهدًا بما خلفهم وما بين أيديهم. فلما تدبَّرنا قوله تعالى في الجاثية ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ [الجاثية: ٢٨] علمنا ما سيواجه الأمم من عظمة الجلال الإلهي، أو جلال العظمة الإلهية الربانية التي تُوحِي إليهم أن يقوموا على رُكبهم لاعلى أقدامهم ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه: ١٠٨] خلاله ينطق كل كتاب على أُمّته، لقوله تعالى إتمامًا للآية التي بدأنا بها ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾ ويقال لها: ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ولما كان الجزاء قضاءً، والقضاء لا بد فيه من شُهود للإدانة، فإن الحقّ -سبحانه وتعالى- قدَّم الشاهد بقوله جل شأنه ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٩] وتدبرنا معنى ﴿ يَنطِقُ ﴾ فلم نجدها بمعنى يتلفّظ أو يعبر تعبيرًا حرفيًا، بل هذا النُّطْق إنما هو عَرْض شامل لمَصْدر الأعمال وبواعثها وأهدافها ومُناسباتها وخَطَرات النُّفوس بشأنها وجميع مُتعلَّقاتها، كما يبدو من النص في سورة الكهف ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

فنحن -إذًا- من خشيته تعالى مُشفِقون، ومن يوم الفزع الأكبر خائفون. فلمّا التمسنا سبيل النجاة، رأينا النجاة الكتاب المبين. وحقًا لن نستطيع السير في هذه الحياة المُنكدرة، وظلمات أحوالها وأوحالها ومزالقها إلا إذا اعتصمنا بقوة مضيئة ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠١]. وقد تبيّن أن الكرام الكاتبين -سلام الله عليهم- قد سجَّلوا من ذلك النور صُورًا متعدّدة، تُعتبر بالنسبة للكتاب سورًا متجدِّدة بتجدُّد الأعمال وتعدُّد الأحوال. كان من الملائم جدًا أن يقيم وجه المناسبة النطق بالحسِّ وتعدُّد النُّسخ المأخوذة عن صور الأعمال بقوله: ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٩] ليتم المعنى المُراد من آية الكهف ﴿ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ﴾ وهذا الحاضر هو الذي سيتجلّى -يومئذٍ- أثره على الوجوه ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وعلى هذا تعيَّن -تعيُّنًا لُزُوميًا رُوحيًا- أن يكون هذا الكتاب قائمًا بالتوجيه المستمر معنويًا وماديًا؛ لأن كل ذَرَّة من الانحراف عن الطريق المرسوم في هذا النور المبين، تُعرِّض صاحبها للانزلاق والانصداف[١] والانصراف عن الصراط المستقيم. وفي هذا ما به لسُود الوجوه يوم القيامة، عندما ينطق الكتاب بقوله تعالى: ﴿ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

هذا في الانصداف، وأما في الانصراف فقد أشار إليه قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ

(١) الانصداف: تعمد الإعراض.

لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

ومتى أشار إلى الغفلة فقد وجَّه سهمًا أحمر إلى المكمَن الذي تقرَّر إرسال سُكَّانه إلى جَهنّم؛ لقوله -تعالى- في الأعراف: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

أعَرَفْتَ -أيها الوليّ الصَّديق- إلى أي مدىً تطوّحت بنا الأوهام بين الليالي والأيام وبين الآمال والآلام، عمّا يريده لنا كِتابنا وما يرسمُ بين أيدينا خطوطه العريضة في نور ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٦] ويدفع عنه مثالب التَّنافُر والخِصام؛ لأنَّ هؤلاء الذين صَفَت نفوسهم من كُدورة الحياة الدنيا ومُقتَضياتها الحيوانية والبهيمية، وطهُرت قلوبهم -بسبب ذلك- من شوائب الشك والشِّرك والرَّيب القائم على سوء الظن، وطهُرت قلوبهم -بسبب ذلك- من سعير الغِلّ، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [الحشر: ١٠]، وقوله جل شأنه: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧].

هؤلاء هم الذين آمنوا بالله حق الإيمان، وتلَوْا كتابه حق تلاوته؛ فتجلَّى نور تلك التلاوة في مشاعرهم بصائر لبصائرهم، أنقذتهم من تِيه الضلالة فتجلَّت أعمالهم -بالمقابلة إلى كتابه تعالى على كتبهم أنفسهم- فأشرقت. فمن حق كل واحد منهم أن يقول وعلى ملأ الجن والإنس والملائكة يوم الجمع

والتَّنادي في المرتبة العالية ﴿ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴾ [الحاقة: ١٩] ذلك لأني كنت متمتعًا بالنور الذي أيقظ فيَّ النفس اللَّوامة، التي تقاوم الشهوات العاتية، ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ﴾ [الحاقة: ٢٠] وحاسبت نفسي حسابًا عسيرًا، فكان جزائي حسابًا يسيرًا جاء فضلاً من رب الفضل العظيم على عبده ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴾ [الحاقة: ٢١].

هذا -هدانا الله وإيّاكم- داخل في الكتاب الناطق وعلاقته بالكتاب الأعظم الذي هو «القرآن» كتاب الكتب وقدس الأقداس ومِنْهاج الأحرار، الذين لم يعبدوا أهواءهم ولم يكتموا أنباءهم فحدَّثوا بنعمة الله الخالدة وهدايته الرحيمة إلى السعادة الدائمة.

فهؤلاء -وحدهم دون سواهم- هم المعنيُّون بأنهم ﴿ ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ لأنهم كانوا دائمًا يتطهَّرون لاستقبال معابدهم وغَشَيان مساجدهم ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ ﴾ لأنها ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ ٣٦ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [النور: ٣٦-٣٨].

أما من عداهم -فعاداهم وحاد عن سبيلهم- فلا ثبات لقلوبهم ولا توفيق لصوالحهم ولا قَبُول لدعواتهم، تُغلق في وجهها أبواب السماء كما قال تعالى: ﴿ لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٠] ذلك لأنهم لم يؤمنوا. وهو يقول عنهم سبحانه: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠] ولو علموا أن كتابهم هو

شاهد الملك عليهم، وسينطق بشهادته مُفصّلة عندما يوضع، لتوقَّفوا عمَّا هم فيه سائرون وما هم إليه صائرون ولكن ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقد أحاط بهم علمًا وأحصى كل شيء عددًا، فكِتابُهم كذلك ﴿ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ ﴾.

المبحث الأول:

نَفْخة الرُّوح ومِنْحة النُّور

إن البارئ -سبحانه وتعالى- وَعَد وَعْد الحق، كما اعترف (إبليس) اللّعين. ومِنْ أهمّ وُعود الرحمن -سبحانه وتعالى- للذين آمنوا أنه سيكشف لبصائرهم عن مَلكُوت السموات والأرض آيات تتجلَّى. والوعد صريح أنه (بِسِين) التنفيذ القريبة، وليست (سوف) البعيدة فقال عزَّت ذاته ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] ثم التفت سبحانه إلى الذين يخطُر الرِيب بنفوسهم فقال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ثم أعاد الضمير إليهم مُقَدَّرًا بقوله: ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ﴾ ثم أرسلها عامة ﴿ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴾ [فصلت: ٥٤].

فإذا ثبتت أقدام المؤمنين بالتثبيت الإلهيّ وبالملائكة ﴿ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [الأنفال: ١٢] وهذا التثبيت بشجرة الإيمان، يجعلها تعلو وترتفع حتى تبلُغ الآفاق، بينما جذورها ممتدَّة في تُخُوم الأرض.

وإننا لنجد ذلك واضحًا في ذلك المَثَل الكريم الذي ذكره قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥] ولن تفعل ذلك إلا بنفحات من الفيض الرُّوحي، ينشأ في خِلاله تَجَلِّى الشئون الملكوتية من آيات الله -تعالى- في كل شيء وفي كل اتجاه وبجميع الأحاسيس والحواس. فهذه هِيَ النفحة الرُّوحية لهذا الكتاب. فهل يتيسر هذا لكُلّ من توضَّأ واغتسل؟

ونحن نرى الكثيرين من المتطهرين غير مطهَّرين بالفعل، وليسوا من الذين يحبهم الله الذي ﴿ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ . فلا بد أن يكون الفرق واضحًا بين المتطهِّر والمطهَّر في هذا المقام، وبين اللامس والماسّ في المقام نفسه.

فإذا لم يكن تجاوبٌ روحي بين الإنسان المؤمن وبين كتابه، فإنه لا فائدة له في إسباغ الماء على أعضاء الوُضوء أو أعضاء الغُسْل.

فمن المسلَّم به أن العوام جميعًا يتوضأون ويغتسلون، فهل يمكن أن نسميّهم مُطهَّرين؟ وهل هم في هذا مساوُون للمعنى المراد من قوله تعالى: ﴿ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ ﴾ [البقرة: ٢٥]، أو قوله تعالى: ﴿ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ [عبس: ١٤] إن هذا لا يمكن أن يستقيم في ميزان العقل، الذي يخاطب الله به الناس ويكلِّفهم؛ لأن الله تعالى أنزل الكتاب ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٥] وهذا اللسان يُلْقِي عن الكتاب المعاني مقترنة بألفاظها، فلا يدل اللفظ إلا على معناه. وهذا المعنى هو المراد باللفظ وهو قائم بالنفس.

فإذا لم يقم بالنفس معنى للفظ فهو مجرد هُرَاء، كالذين يصلُّون و﴿ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون: ٥] ذلك لأنهم ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ [الماعون: ٦-٧] مع أنهم قد تطهروا بالماء واغتسلوا، مع قيام تلك اللَّعْنة في نفوسهم.

إن آلافًا من الأدلَّة تقطع لوجوب التماس النفحات الروحية من الآيات القرآنية. ولا بد أن تكون تلك النفحات هي التجليات التي رسمتها آية الوعد الصادق ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ ﴾ [فصلت: ٥٣].

على أن النفحات الروحية هبة من الله -تعالى- غير كسبية ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [البقرة: ١٠٥].

ومن المقرر في معنى الكتاب الحكيم أن مجموعه -وهو المفهوم من كلمة (قرآن) أي مجموع- هو نص الرسالة المحمدية. ومتى كان النص يتضمن الخطوط العريضة لهذه الرسالة العامة للجن والإنس، والتي تستمع إليها الملائكة، فإنه يتعين التركيز الكامل لتلك الخطوط الرسالية العريضة في قوله تعالى مخاطبًا الرسول ﷺ بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦].

فلا بد للمؤمن من رعاية التجليات الإلهية والنفحات القدسية والمعاني الكلية في كل خط من تلك الخطوط، التي بدأت بكونه ﷺ ﴿ شَٰهِدًا ﴾ . وعلى الذين يتدبَّرون القرآن أن ينظروا في أمر شهادته: أهي حين حضوره بينهم -وهم الأوَّلُون من المهاجرين والأنصار وتابعيهم- أم أنها شهادة أبدية لا تزال قائمة؟

فعلى الفرض الأول يكون شاهدًا محدودًا في الزمن والمشهود عليهم والوقائع التي كانت في ذلك الزمن، وهذا -فيما يبدو- وجه بعيد. ويتعين الاستناد إلى الوجه الثاني، وهو كونه -عليه الصلاة والسلام- شاهدًا أبديًا تُعْرَضُ عليه الأعمال والأحوال فيراها.

فلا بد أن يكون مشهودًا له يراه ويقدِّره. وإلَّاما لزِمَ الشهادة شرعًا؛ إذ لا تجوز على السماع مُجرّدًا.

فإذا أحسَّ المؤمن شهادة إمامه -عليه السلام- على جميع أعماله، استحيا أن يعمل ما لا يسره ﷺ أن يراه، ومن هنا تكون المراقبة التي أشارت إليها

كتب الحكماء، وذكرها الرئيس (ابن سينا) في «النجاة» ضمن خطاب له في مقدمة كتابه هذا إلى بعض من استرشده.

والمراقبة ليست بعينيْ الرأس، بل هي مراقبة بصيرية محضة. فإذا كان الانطباق تامًا بين الشاهد والمشهود عليه وجدانيًا، فهذا ما نسميه الاستقامة. والنص صريح في أن الاستقامة أصل لتنزُّل الملائكة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

وإذا كان هناك انحراف بين المشهود عليه وبين الشاهد، كان ذلك الانحراف سببًا لتنزُّل الشياطين، والنص صريح كذلك في قوله جل شأنه: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٢] وبهذا يكون الكذب من معالم الانحراف عن مطابقة حال المشهود عليه بالنسبة للشاهد عليه الصلاة والسلام.

وهذا البحث -القائم على المراقبة الوجدانية- مبحث بعيد الأطراف مُتَرَامِي الأنحاء، لا نريد أن نسترسل فيه مع استطراد يخرج بنا عن خطوط الرسالة التي بدأنا نوجِّه الأضواء إليها.

فهو إذًا -عليه السلام- بوصف كونه شاهدًا أبديًا يأمرنا بحبه، ويقول لنا القرآن ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١]. ويقول له (عمر) ﷺ : إني أحبك يا رسول الله، ولكن لا كنفسي، فأجابه على الفور ﷺ بقوله: «**والّذي نفسي بيده لن يُؤْمِنَ أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه وماله وولده ووالده والناس أجمعين**».

وما المراد بذلك الحب سوى صدق المتابعة ومراقبة التجلِّيات القدسية من فيض تنزُّل الملائكة. وهو المعنى المراد من قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٣] وقوله لرسوله ﷺ : ﴿ وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمۡۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٠٣].

فقل لي -لعَمْرُك- ماذا يُراد بذلك السكن سوى السكينة، التي تسكن بها النفس وتأنس بها المشاعر إلى مشاهد لا يمكن تحديدها، تُمِدُّ قوى الاستعداد بقَبُولِ الفيض وتنزُّل التثبيت لازدياد الإيمان ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ٤].

هذا كله في مراقبة خط الشهادة، الذي متى تم كماله نسبيًا كان مؤهِّلاً لانتقال المؤمن إلى الخط الثاني من خطوط الرسالة العريضة، وهو الخط الذي يكون فيه الرسول ﷺ مُبشِّرًا للذين آمنوا وحاولوا -بجهد الطاقة- الثبات على الاستقامة وتجنب الانحراف. مبشرًا لهم -بناءً على كونهم بالمراقبة يخافون مقام ربهم- بجنتين: جنة برزخية وهي ﴿ فَرَوۡحٌ وَرَيۡحَانٌ ﴾ وجنة سرمدية وهي ﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٨٩].

فالأولى يَدْخُلونها إثر مفارقة الأرواح للأجسام، والثانية يدخلونها في الآخرة بالنشأة الأخرى حيث ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]، وهؤلاء هم المعنيُّون بقوله عز مِنْ قائل: ﴿ يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٍ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢١] سرمدي. والطِّباق تام بين هذه الآية من المراقبة، وبين الآية الأخرى ﴿

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ فالرحمة والرضوان هما المقصودان من قوله عليه السلام: «**القبر إمَّا رَوْضَةٌ من رياض الجنة أو حُفْرة من حفر النار**»، فقوله «**روضة من رياض الجنة**» مطابق تمامًا لقوله تعالى: ﴿ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ وهذا مطابق تمامًا لقوله تعالى: ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾ وهو برزخ بين جنة نعيم خالد سرمدي وبين الحياة الدُّنيا.

فلا يكون المؤمن على الأرض لأنه مع كتابه، وهو يقول تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ [المطففين: ١٨] فلا علاقة بتاتًا بين الأرض وبين عليِّين ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ وطائره كتابه، وحيث إن كتاب المؤمن معه بالإلزام الإلهيّ، فهو مع كتابه، وحيث إن كتابه في عليِّين فهو في عليين. وهذا ما يعنيه رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه وآله أنه -أي القبر- روضة من رياض الجنة. وفقه اللغة يدل على أن هذه اللام هي لام العهد الذهني، أي الجنة المعهودة وهي ليست على الأرض قطعًا، بل إنها ﴿ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾.

أما حكم الترضية الذي ثبت الآن بصورته، فحُكْمه النص في قوله تعالى: ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، ومن براهين ذلك في إثبات البرزخية قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٢].

وقد أشار إلى ذلك -في العصر الحديث- رجل كان حُجّة من الحجج العلمية، وكان فقيهًا رسميًا للديار المصرية وهو المغفور له الشيخ (محمد بخيت المطيعي) من جماعة كبار العلماء. فقد قرر هذه المسألة بحذافيرها في

تفسيره هذه الآية حيث قال فيها: ﴿ وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ فلا يقطع عَلاقتها بالبدن، علاقة التصرُّف والتدبير ﴿ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ ﴾ فيقطع علاقتها بالبدن، علاقة التصرف والتدبير، فلا يردُّها إلى أبدانها بنص قوله تعالى: ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٥] ويرسل الأخرى النائمة إلى أجل مُسمّى.

وقال -رحمه الله- في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي ينظرون بعقولهم السليمة نظرًا مُجرّدًا من قيود الماديات وحصر الحِسّ والمحسوسات[١].

وإليكم مُفتيًا أسبق هو الشيخ الإمام المغفور له (محمد عبده) فقد جاء في غير موضع من تفسيره -رحمه الله- في سورة النِّساء الجزء الرابع عن الحياة البرزخية، وعلى الأخص حياة الشهداء؛ لأنها حياة غيبية لا نخوض في تفصيلها، ونقف فيها عندما وقف الشَّارِع ﷺ لا نَزيد عليه شيئًا.

وقد أورد -رحمه الله- ما كان بين النبي ﷺ وبين (جابر بن عبد الله) الأنصاري، عندما كان جالسًا بين يديْ النَّبي ﷺ مُنطويًا على نفسه مكتئبًا، فقال له النبي ﷺ : **«يا جابر ما لي أراك منكسرًا» فقال: يا رسول الله، أُستشهِد أبي وترك دَيْنًا وعِيالاً، فقال له ﷺ : «أما يكفيك أن يُحْيىَ الله أباك ويخاطبه كفاحًا** -أي مباشرةً- **أي عُبَيْدِ تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكْ، فقال أبوك: أيْ ربِّ أتمنى أن تُعيدني إلى الدنيا لأُقْتَل في سبيلك مرة أخرى، فقال الرب تبارك وتعالى: سَبَقَ القَوْلُ مِنِّي إنهم لاَ يَرْجِعُونَ، فقال:** أي رب **فأتمنى أن تُبْلغ مَنْ**

---

(١) راجع كتابه المسمى «توفيق الرحمن».

خلفَنا من إخواننا عما لقِينا من الكرامة عندك ومن حسن المقيل -أي الاستقرار- **لديك فقال الرب تبارك وتعالى: أنا أبلغهم ذلك، وأنزل الآيات:** ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠] **لأن أباك يا جابر قال في طلبه عن إخوانه في ميادين القتال (حتى لا ينكِلُوا عن القتال) ثم أورد قول النبي ﷺ: أَرْوَاح الشُّهداء في حواصل طير خُضْر تَرِدُ أنهار الجنة وتأكل من ثمراتها وتأوِي إلى قناديل من ذهب معلَّقة في ظل العرش».**

إنّ الحديث على هذا النحو للإشارة بالإلماح إلى جلال الحياة في دار الشهداء، وإن من تأمل معنى النَّهْي عن حُسْبان القتلى في سبيل الله أمواتًا، وعن القول بأنهم أموات، يتبين له أن مظاهر الحياة الجسدية -على أي صورة من الصور- لا تدل بحال على حقيقة ما فيه الأرواح من نعيم، ولا من عذاب. لأننا فرغنا من أن النعيم أو العذاب بَرْزَخيان رُوحيان، ويؤيد هذا المنهج قول النبي ﷺ يوم رأى عمه (حمزة) أسد الله ﷺ. وقد مثَّل بجسمه الأعداء شر مِثْلة، فبقروا بطنه وصَلَمُوا[١] أذنيه وسَمَروا عينيه -وفي رواية سملوا- وجدعوا[٢] أنفه. فلما رأى النبي ﷺ هذا المشهد ابتسم ابتسامة مكتئبة وقال: **«والله لولا أن تحزن صفية** -والدته- **لتركتُه حتى يكون في بطون السباع وجوارح الطير».**

---

(١) صلموا: خلعوا.

(٢) جدعوا: قطعوا.

وعلى نور هذا، إذا رأينا في ميادين القتال أو في غيرها مما لا شرَّ فيه ولا جُنابة جسمًا مُمزّقًا تناثرت أشلاؤه، فإن لنا أن نحكم بأنه لا علاقة -بتاتًا- بين هذا المشهود -الذي تتقزَّز منه النفس ويشمئز له الحي- وبين الحقيقة الذاتية لصاحب هذا الجسد الممزَّق؛ لأن فرض وجود علاقة للحي المرزوق بهذا الجسد المُمزق فرض سمَّاه الإمام (محمد عبده) في كتابه المُشار إليه فرضًا سوفسطائيًا -أي مُغَالِطيًا- لأن السفسطة مغالطة، تُمَوَّهُ فيها المقدمتان لإبراز نتيجة باطلة، ويترتَّب على فرض هذه العلاقة بُطلان الحديث «**القبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النار**» وكذلك يبطل معنى الآية ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٥]. والذين يتعصَّبون للحس والمحسوسات، كما هي عبارة الشيخ (بخيت) في «توفيق الرحمن» هم على الحق مُنْقَلِبُون وعن طريقه ناكِبون ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

ثم إذا تدبرنا تدبُّر مس لمعاني القرآن الذي ﴿ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ والذين هم بلُبابه يشعرون، فإننا نجد الدليل القطعي على انقطاع صلة الروح بالبدن وعدم عودتها إلى هذا الرميم المدفون في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٣١ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٣١-٣٢] وقوله في نفس «يس» ﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝٤٩ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يس: ٤٩-٥٠] ومن ثَمَّ يتضح -بجلاء- تخبط التصوُّر بين الذين اعتمدوا على نظرية (إبليس) أن (آدم) ليس إلا من طين أو ماء مَهين، متعمدًا هو وأنصاره القبوريون التغافُل عن معنى النفخ فيه عن طريق الروح الأمين ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا

مِن رُّوحِنَا ﴾ فالشيطان وأنصاره -القبوريون- وقفوا عند أدنى الشرطين للسجود كما قال تعالى: ﴿ إِنِّي خَـٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ﴾ [ص: ٧١-٧٢] وكانت نظرية (إبليس) في الإباء عن السجود تعاميًا عن شرط الروح الأعلى وتمسكًا بشرط الطين. فهو والذين من أوليائه الملاعين ﴿ سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠] بما أنكروا الروح وكَفَرُوها وتجاهلوا الحقيقة، فستروها وأضلوا كثيرًا من زُوَّار الأضرحة، الذين يستعينون برُفات الموتى على قضاء حوائجهم وشفاء مرضاهم وتيسير شئونهم والشفاعة لهم في أُخْراهم.

وقد ضمنَّا ذلك في الأبيات الآتية تقديمًا للبيت الثالث الذي هو ليس من تأليفنا، حيث قلنا:

أَرَاكَ تَطَـوفُ بِالأَحْجَـارِ عَمْـدًا ... وَتَسْـأَلُهَا الْمَعُونَـةَ فِـي التَّنَـادِي

تُنَادِيَهـا وتَحْسَـبُهَا سَـمِيعًا ... وَتَنْشُـرُ ذِكْرَهَـا فِـي كُـلِّ نَـادِي

(لَقَـدْ أَسْـمَعْتَ -إِذْ نَادَيْـتَ- حَيًّـا ... وَلكِـنْ لاَ حَيَـاةَ لِمَـنْ تُنَـادِي)

كما قلنا أيضًا:

يَـا مَـنْ يَطَـوفُ بِأَوْهَـامٍ مُزَخْرَفَـةٍ ... بِـأَنَّ فِيهَـا وَلِـيَّ اللهِ مَـدْفَونُ

ارْجِـعْ إِلَـى الـدِّينِ فَاسْتَرْشِـدْ ... أَخَا ثِقَةٍ فَإِنَّ ذَلِكَ ممَّا حَرَّمَ الدِّينُ

وبهذه البِدْعيَّات، انطلق كثير من سواد الشعب في تلاوة (طمطمانيَّات) مجوُسية، بوصف كونها أورادًا لهم[١]. غير عالِمين -على الأقل- بما حدث

(١) يرددونها في بيوت الله بأصوات جماعية صاخبة ونبرات إيقاعية تُهْدَر فيها مهابة =

عندما سمع النبيّ ﷺ قومًا في المسجد يجهرون بالتهليل، فبدا عليه الغضب وأشار بيده الكريمة إليهم قائلاً لهم: «**ارْبِعُوا على أنفسكم فإنكم لا تدعُون أصمَّ ولا غَائِبًا**» ومعنى أربعوا أي خَفِّضُوا الصوت وخفِّفوا، وقد صدَّق ﷺ ما خط القرآن في نفسه؛ لأنه نبيٌّ مطهر، مس القرآن شغاف قلبه فرآه يقول: ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الرعد: ١٠]، ويقول: ﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الملك: ١٣]، وقوله سبحانه: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] وقوله بعد الرمز في سورة (مريم): ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ [مريم: ٢-٣]، وقوله جل شأنه عن (يونس): ﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وكان كل ذلك روحانيًا مُجرّدًا وانبعاثًا من النفس، لا عن طريق الصوت والحناجر وحركات الألسنة والشفاه.

فيا أنصار هذا الجهل الفاضح، هل يسمع الله بواسطة حاسة السمع؟ ويا جماعة المُجَسِّدين، كيف صرتم مع المجسِّمين المُلْحِدين فوصفتم الله تعالى بصفات أنفسكم، حينما جعلتموه -عز شأنه وعلا مقامه- لا يسمع إلا كما تسمعون، بالحروف والأصوات والنعيق والحركات ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١].

=

المسجد ورعاية السكون فيه.

فمـــا جهـــرُهُم إلا ريـــاءً وفتنــــةً	على رقَصَاتِ الحُمْرِ والبِيضِ والخُضْرِ
وهـم يَحْسَبُونَ الـذكْرَ صـوتًا مُلَحَّنًـا	(فَمَنْ لِـي لَـوْ تَـدْرِي بأنّكَ لاَ تَـدْرِي)

لأن الجهر بالصوت وارتفاعه ينافي السكينة عند المؤمنين، وهي سبيل زيادة الإيمان بنص قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾
[الفتح: ٤] فلم يبقَ إلا أن يكون المقصد بالجهر هو لفت أنظار الناس، فضلاً عن تصديع رؤوسهم بسوء اللحن وشذوذ النغم، ويكون الشيطان بهم في أسخف صورة من صوره. وإنما أراد الشيطان -بنشر ذلك- طرْد الناس عن الإسلام لهذه المناظر المُنفِّرة من الإسلام والتي تعُوق تقدُّمه وانتشار معاني كتابه.

ولقد نشر الشيطان على أيدي هؤلاء -من أدعياء التصوُّف- آلاف الأحاديث المكذوبة، قدسية ونبوية.

أما في الأولى، فقد زعموا أن الله تعالى قال: كنتُ كنزًا مخفيًا فأحببْتُ أن أُعْرف، فخلقتُ الخلق وتعرَّفْت لهم فبي عرفوني.

فإذا نحن وجَّهنا الأضواء إلى هذا الحديث المزعوم، وجدنا أولاً أنه كفر؛ بإدخال الله -تعالى- في حكم الزمان بقوله (كنت) وهو الذي لا يزال على ما عليه (كان) بنصّ الحديث المرفوع «**كان الله ولا شيء معه، ويبقى الله ولا شيء معه**» وفي رواية أخرى: «**كان الله ولا شيء غيره، ويبقى الله ولا شيء غيره**». فيكون معنى (كان) الدوام والاستمرار. هذا كله من كُفْرِيَّات أول لفظة، بل أول

فعل ماضٍ من الحديث المزعوم.

وأما الكلمة الثانية فهي (كنزًا) والكنز في علم الصرف على وزن (فَعْل) بمعنى مفعول، مثل كلمة (أَكْل) وهو المأكول، فكنز إذًا معناها مكنوز وهو مفعول، فمن فاعله؟ ونعني مَنْ كانِزُه الذي كنزه؟

وهنا يبدو واضحًا استحالة انطباق هذه اللفظة المفعولية على الله -سبحانه وتعالى- الذي هو خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ تعالت ذاته على أن يكون مكنوزًا لكانز، وهو تعالى «الظَّاهِر».

أما الكلمة الثالثة فهي قولهم في الحديث المزعوم (مخفيًا) فبالله عليكم، عمَّن كان مخفيًا؟ وأصل الفرد أنه لا شيء سواه، فعلى من إذًا يقع الخفاء؟ وهذه منهارة لأول بادرة، فليست جديرة ببحث ولا تحليل.

أما جملة (فخلقتُ الخلق وتعرفت لهم فبي عرفوني) فإن القوم يذهبون مع الشيطان إلى أقصى اليسار، حيث يضربون في بيداء التخبط التضليليّ بالأرقام فيزعمون أن جملة (فبي عرفوني) معناها أن الفاء = ٨٠، والباء = ٢، والياء = ١٠، فتكون الجملة (محمد) على حساب (الجمل). وبهذا يكون (محمد) هو سر المعرفة.

فإذا قلنا لهم إننا إذا اتّبعنا هذا الفرض، فَسَد نظام الجملة من ناحية قواعد لغة القرآن، حيث يكون منطوق الحديث المزعوم هو (كنت كنزًا مخفيًا فخلقت الخلق وتعرفت لهم (محمد) عرفوني) وهذا هو الفساد المُشار إليه في حديثكم المزعوم وفرضكم الموهوم وحسابكم المُنْخَرِم.

وليتهم اكتَفَوْا بالادِّعاء على الله -سبحانه وتعالى- بما لم يقُلْ، بل أمعنوا

في ضلالتهم بقيادة شياطينهم وطواغيتهم فزعموا أن الله -تعالى وعز شأنه- قال: «ما وَسِعني أرضي وسمائي، ولكنْ وسعني قلبُ عبدي المؤمن التقيِّ النقيِّ الوادع». وقد أورده صاحب كتاب «تحذير المسلمين من الأحاديث الموضوعة على سيد المرسلين» في أول الموضوعات من حرف الميم.

وعلى هذا النحو كان منهج هؤلاء أن يوثِّقُوا الصلة بين الجماهير وبين المقابر، بناءً على حديث نبوي موضوع -من هذا الطراز- حيث زعموا أن النبيَّ ﷺ قال: «إذا وُضِع أحدُكم في قبره وتولَّى عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نِعالهم، جاءه مَلَكان أسودان أزرقان أعينهما كقُدور النُّحاس، يحفُران الأرض بأنيابهما ...» إلخ ما في هذا الوضع السقيم.

ولِنُلْقِيَ النُّور على هذا الحديث -المزعُوم- القدسيّ السابق نقول:

أولاً- إن نفي سَعَة الكون لله -سبحانه وتعالى- باطلة بالبداهة؛ فإنه -سبحانه وتعالى- هو الذي «وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا»، و«أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا». فكيف لا تسعه السموات والأرض إلا على فرض التجسيم، وهو كفر بوَّاح. ثم قوله بعد ذلك بالاستدراك بعد النفي (ولكن وسعني قلب عبدي...) إلخ ما قيل، على أن هذا القلب من خلق الأرض، فكيف يضيق خلق السموات ويتسع خلق الأرض؟

وهذا انقلاب صريح على قوله تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧]. فما بالنا بفرد واحد من الناس؟!

وعلى هذا النحو يتبين المراد من هذا الحديث المزعوم وهو التدخل الوصفيّ في ذات الله سبحانه وتعالى، تلك الذات التي هي أعلى من أن يُحاط بها.

وهذه زندقة صارخة زادوا عليها وصف العبد بنفس صفات الرب، في حديث ثالث مزعوم، نصه: (عبدي .. أطعني أجعلك ربَّانيًا، تقول للشيء كن فيكون).

فكيف يقول للشيء، من لا يعلم الشيء؟! وكيف يوجد لله نِدّ يقول للشيء كن فيكون، بوصفه شريكًا لله في الاختصاص الذاتي الواضح في قوله تعالى: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٩] وكونه تعالى -بلا شريك ولا منازع- ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٢٠].

وكيف يُفرض وجود إنسان أو عدد من الأناس، كل منهم ﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾. هذا -أيضًا- هو الضلال المبين. وما أرادوا به إلا إيهام الناس بأنهم -هم- ربَّانيون، يقولون للشيء كُنْ فَيَكُونُ. وليس الله -وحده- هو الذي ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

وهذا فرض صارخ لوجود شركاء للباري سبحانه وتعالى، ومعلوم من إجماع الأمة أن الله -تعالى- لا شريك له في ذاته ولا في صفاته، فيكون هذا الزعم إنكارًا لمعلوم بالضرورة من النصوص.

فلهؤلاء الناس مصلحة كبرى في إيهام الآخرين وإرهابهم بسلطان باطنيّ خفيّ، يذيع بين الناس أن من الناس من يقدر على إلحاق الضرر أو النفع بالآخرين من أنفسهم.

وهذا مُصادم -تمامًا- لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقد درج الموحِّدون -منذ أقدم العصور- على تحقيق إسناد الأفعال خَلْقًا وإنشاءً إلى الله -سبحانه- لا شريك له في ذلك. وكذلك إلى إسنادها -مجازًا وكسْبًا- إلى العبد. فمن أجرى الله على يديه الخير فيكون -بذلك- مصطفىً مجتبىً مِفتاحًا للخير. ومتى كان كذلك، كان مِغلاقًا للشر، رحيمًا بالمؤمنين، يحدب عليهم أَحْنَى من حدْب[1] الأم على وليدها.

وبذلك كان صلوات الله وسلامه عليه ﴿ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبة: ١٢٨]. كذلك الذين اتَّبعوه وكانوا معه. اندرجوا فيه بقوة نص: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾ [الفتح: ٢٩]. ولو أنكر أهل التوراة والذين داروا في فلكهم من المُرْهِبين المرعبين، الذين يريدون أن يعلنوا ربوبيَّتهم على الناس ليرهبوهم، في سبيل مطالب فانية. ناسين الخلود والروح والذكر الحكيم نسيانًا باتًا. زاعمين على الله -سبحانه- وجود شركاء ربَّانيين، يقولون للشيء كن .. فيكون!!

---

(١) حدب: عطف وحنو.

ولَعَمْري إن الجاهل بالشيء لا يقول له «كن». والقرآن قاطع الدلالة على جهل الإنسان، وكان ذلك مفهومًا معقولاً، حينما قال -سبحانه- عن الأمانة ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢]. وكما قال -تعالى شأنه- فيما يقرأون ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، ولَكَمْ ضرب لهم مثلاً ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾ .

ومن ثَمَّ يتبين مصدر الحديث المزعوم (عبدي .. أطعني) .. إلخ؛ لأن الربَّانيّين فرقة من اليهود. فالحديث إسرائيلي قطعًا؛ بحجة هذا الحديث نفسه، ووصف آيات القرآن لتصوُّرات اليهود العنصرية.

فالحاصل يا أخي المؤمن -مما مَرَّ- أن أساس توحيد الله تعالى هو التجريد التام والتفريد المطلق، حتى لا يقع منَّا نظر إلا عليك، ولا يسير بنا وَطَر إلا إليك كما يقولون في مجالسهم؛ ليجعلوا منها أداة لاصطياد الأغرار واستعباد الأحرار، وتظاهرًا بمظاهر المُصْطَفين الأخيار. وهذا افتنان وبراعة من الشيطان، حيث يأتي الناس عن أيْمانهم بمثل هذه المظاهر، كما أشار إلى ذلك الكتاب الحكيم ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر: ٨]. ومن هنا نعلم أنه عليه الصلاة والسلام -في هذا المقام- نذير. وكونه عليه السلام مصطفىً ذاتيًا لجميع ما ذكرنا من صنوف الانحراف والضلالة، كما قال تعالى في أول (الكهف) ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٤-٦] ولولا أنه ﷺ هو الشاهد، ما كان يقف منهم مثل هذا

الموقف القاتل من شدة الأسى والأسف.

هذا الذي مَرّ، بعض ما يتعلق بكونه ﷺ ﴿ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٤٥] أما من حيث كونه ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ ففيها باب كامل.

المبحث الثاني:

الدَّعْوة وأُصولها ورُوح الدَّاعي

ليست هذه الدعوة مجرد ألفاظ يقولها القائل، وإنما هي حال تقوم بالنفس -أعني نفس الداعي- وتَعْتَلِج في صدره، فتكون مَلَكة راسخة من ملكات نفسه. وهذا بحاجة إلى كمال استعداد تلك النفس لقبول فيض التنزُّلات الإلهية، وأن يكون لها نفاذ بصيرة وإحاطة بالسبيل كما قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨]، وقد أيَّد هذا قوله تعالى: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

ومن ثَمَّ يتعين ما يجب أن يكون عليه الداعي نفسيًا، وما يتحلَّى به من صفات وما يختمر في نفسه من ملكات، تُعتبر أساسًا لتنزُّل الفيض، الذي هو ضياء البصيرة. ذلك الضياء الذي لا تقوم الدعوة إلا عليه، فهو عليه الصلاة والسلام -في هذا المقام- يُسمى نورًا تستبين به سبيل الحق، التي هي الصراط المستقيم كما بيَّن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

وهذه الهداية الإرشادية والعناية التوجيهية للداعي تجعله أُسوة حسنة، كما أشار إليه تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] وكما قال عن (إبراهيم) عليه السلام ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤]

والمقصود بالأسوة -الإنسان النموذجي- الذي يُعتبر مقياسًا للكمال الذاتي، الذي يحصل به العبد على مقام المحبة. ومقام المحبة له شعبتان عُلْيا ودُنْيا.

فالعليا محبة الله لعبده كأساس، أما الدنيا فمحبة العبد لربه كبناء. وعلى هذا تكون المحبة الإلهية للعبد سببًا بتوجُّه محبة العبد لربه، كما قال تعالى: ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [المائدة: ٥٤] فهو مَصْدر الحب، وهذا مفهوم من النص ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم: ٩٦].

ومتى ثبتت المحبة وقامت المودة كانت الدعوة فعلية لا انفعالية، فيكون الداعي سعيدًا بالدعوة، مسترسلاً مع ملكاتها النفسية. ومن أجل ذلك وبحكم أنه ﴿ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف: ١٠٨] وأن هذه البصيرة في الدعوة ليست قاصرة على الرسول ﷺ وحده، بل هي له ولمن اتبعه ﴿ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف: ١٠٨] يكون الإتباع هو تحرّي الأُسوة التي يأنس بها كل مؤمن ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١] لأن الاتباع هو ملازمة الأسوة. أما إذا انقطعت الملازمة كان الفاعل مخالفًا عن أمره ﷺ ، ويدخل هذا المنقطع -عن اتباع الأسوة اتباع الملازمة- في زُمرة (المُنْذَرين)، فيكون النبي عليه السلام -بالنسبة له- نذيرًا لا بشيرًا. ويؤيد هذا قول الله جل شأنه ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣] ونحن لا نقصد بالعذاب الأليم مجرد وقوع الآلام أو حدوث الأمراض للبدن -فذلك أمر لا يخلو منه المؤمنون ولا المُرْسَلون- وإنما نقصد بالعذاب الأليم ذلك الانقطاع الوجداني وحيرة الضمير وظُلُمات الشك. فهذه من أهْوَل ألوان العذاب ﴿ وَلَعَذَابُ

ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ [طه: ١٢٧].

بل هو في الواقع ما كان لا بد أن يُصاب به ويقع فيه قوم (يونس) لو لم يؤمنوا، فقد قال تعالى:﴿ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ [يونس: ٩٨] فقوله تعالى: ﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ إنما يُراد به عذاب الخزي الأليم والارتباك الوخيم والشك المُضْطرب وعدم الاستقرار وفساد البال، لأن الذين ﴿ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ففساد البال نوع من أنواع ذلك العذاب الأليم، المترتب على تعمُّد مخالفة سَيْر الأُسوة الحسنة.

ونحن نعلم -بالقياس العقلي- أن القطار الذي أُحكمت الصلة الفولاذية بينه وبين ما خلفه من العربات، لا يتم نظام السير لهذه العربات إلا ما دامت متصلة مع القطار على صراط مستقيم. أما إذا انفلتت عن الصراط أو القضبان فإن العُروة الرابطة بينها وبين القطار ستنفصم. ومعنى هذا أنها ستُدْفَع دفعًا إلى مصيرها المحتوم ولا تكاد تصل خلف القطار إلى محطة الوصول إلا وقد تحطمت تحطيمًا شديدًا. وهو نفس العذاب الأليم المَعْنِيّ بمقطع الآية السابقة.

فإذا قال قائل إن العربة لا تُحس قلنا له إنها مثل لا أكثر ولا أقل. أما الإنسان الذي لا بد له من المصير المحتوم، فسوف يكون متمتعًا بأقصى درجات الحس والإدراك وتكون ألوان العذاب أشد إيلامًا له. ولا سلامة له إلا في إحكام المتابعة، كما أنه -في المثل المضروب- لا سلامة للعربة إلا في اتِّزَانِها وملازمتها للطريق المرسوم حتى تصل بسلام إلى مثواها الأخير.

على أن الصلة الإمدادية قائمة بين الأسوة والمتأسِّين بها. كما يقوم المثل (خرطوم الباكم) بالهيمنة على سير العجلات حتى لا تزيغ ولا يزل عن الصراط أو الطريق.

وهذا معنى قوله عليه السلام: «**فأنا آخذ بحُجزِكُم**(١) **من النار وأنتم تغلبونني فتُفْلِتون فتقعون فيها**»(٢).

فإذا علمت -أيها المؤمن- أن داعيًا دعاك ومناديًا ناداك وهو على بصيرة من أمر دعوته وعلى خبرة من بواعث ندائِه، لم يكن لك مَفَرّ من أحد أمرين إما المتابعة الصادقة والأسوة الحسنة والطاعة المطلقة، وإما الانفلات والسقوط أعاذنا الله وإياك منهما، وهذا يفسر قوله سبحانه وتعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران: ٣١].

فما عليك يا أخي إلا أن تميِّز في تبيُّن وأن تتبيَّن في تمييز ووعي ما تنطوي عليه المعاني العليا لقوله تعالى ممثِّلاً المقام الأسمى لعباده ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣] والأبرار هنا -لا كما يقول الأغرار بأنهم الأطفال- إنما الأبرار من البِّر؛ لقوله تعالى عن الملائكة

---

(١) بحجزكم: أماكن (الخُنَّاق) أمام حنجرة الرقبة.

(٢) والحديث الشريف كما ورد في الأثر قال رسول الله ﷺ: «**إن مثل ما بعثني الله به من الهُدى والعلم كمثل رجل استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش والجنادب وتلك الدوابُّ التي تدُبّ في الأرض تتهاوى فيها وأنا أذبُّها عنها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تغلبونني فتُفْلِتون فتقعون فيها**».

﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس: ١٥-١٦] فالأبرار اسم جمع مفرده البَرّ أو البارّ، وهو اسم من أسماء الله -تعالى- الاشتراكية، لجواز إطلاق هذا الاسم على بني الإنسان من كل من اتبع مفهوم هذه الآية: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧](١).

هؤلاء يا عزيزي هم الأبرار، وليس الأطفال بعد ما قرأنا من صفاتهم. ولذلك أَتْبَع -سبحانه وتعالى- دعاءهم بقوله: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

وأجاب -جل شأنه- على دعائهم هذا بقوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

أما كونه ﷺ في هذه الدعوة نورًا ساريًا يبدِّد ظلمات الأوهام وآلام الليالي والأيام، فقد أجمع جمهور الأمة على أنه هو النور الثاني فيما جاء بالذكر

---

(١) وكما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ [الانفطار: ١٣]، وهو اسم مشتق من البر، وصفات البر واردة في سورة البقرة: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ....﴾ إلخ الآيات.

الحكيم المشهور ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ [النور: ٣٥]. فالنور الأعلى هو نور المصدر المتجلِّي، والنور الثاني هو نور المتجلَّى عليه الذي سطع على صفاته ذلك النور الأعلى. فلا غَرو أن جعل هؤلاء المستمدين من ذلك النور السرمديّ أئمة ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

أرأيت -يا أخي المؤمن- أوضح مِنهاجًا وأحكم إدخالاً وإخراجًا وعملاً وإنتاجًا من هذه الدعوة، التي آمنت بأن الدَّاعي له -هو ذاته- نور يسري في ظلمات الجاهلية وعماياتها؛ فيجعل تلك الظلمات نهارًا متألقًا فالق الإصباح؟ ويكون هذا المقام تمهيدًا لمواجهة هذه الحقيقة النورانية لقوله تعالى: ﴿ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾ بعد أن جعل الدعوة إنما صدرت بإذن ربه وأمره ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ ﴾ وعلاقة الإذن تيسير سبيل الدعوة وإمداد الداعي بقوة احتمال ثابتة؛ لأن جميع الأمم الضالة إنما استقبلت أنبياءها بالتكذيب والكفران والإهانة والإتهام والامتهان والقتل. فلا بد من أن يكون نصيبهم من الصبر وقوة الاحتمال أوفى نصيب.

ومن ثَمَّ يقول عليه السلام: «**أشدُّ الناسِ ابتلاءً الأنبياءُ ثم الأولياءُ ثُمَّ الأمثلُ فالأمثل**» وكل هذا مندرج في قول الله تعالى ﴿ بِإِذْنِهِۦ ﴾ فلولا هذا الإذن ما صَرَف لهم تموينهم من الصبر، الذي لا يوجد -مُطلقًا- إلا عند الله فيما تقرأون ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨] والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك. ولَعَمْرُك إنك لو تأملت الفارق بين البصر والبصيرة لرأيته يتجلَّى في جميع

مشاهد الوجود، بالإحكام والإتقان والإبداع وكمال التكوين ودقة التلوين.

وانظر إليه كيف تجلّى -تبارك وتعالى- في نظرات النرجس وبسمات الورود وسنا النَّوار. ثم انظر إليه كيف سرى سريان الماء في الوِرْد والروح في الجسد؛ فأمدَّ بالحياة الحيوان والنبات والفِلِزَّات وما فيها من عناصر ومعادن وغازات، ثم تعمق يا أخي فاسبح بفكرك وانظر ببصيرتك في عالم الأعماق في المحيطات وما شُحِنت به الأحياء المائية من قوى ذاتية ومواد فسفورية تضيء لها مسالك الأعماق ومجاهل البحار والمحيطات، ثم اصعد فجأة وانظر ببصيرتك -بصّرنا الله وإياك- كيف أدار العليم الخبير الكواكب السيارة زحل والمُشْتَرِى والمريخ والشمس والقمر وعطارد والأرض، ثم جعل ذلك مُسَخَّرًا لهذا الإنسان الكريم. ويقسم جل قدره ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٦].

كما يقول تعالى: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١] ويقول جل شأنه: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقد جعل هذه الآية الأخيرة مُشبَّعة في استفهامها بواو التنديد، ثم بيَّن أنه هو -وحده تعالى- الذي تجلّى لسيدنا (إبراهيم) ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥]. وبحكم هذه الآية وما سبقها، تتعيَّن العلاقة بين الإنسان وجميع الأكوان. وقد وعد -سبحانه- بكشف ذلك مستخدمًا سين التنفيس، عندما قال وقوله الحق: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْأَفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ

شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣] فإذا كنت لا تراه في كل ذلك، فسلامٌ على البصيرة.

ثم اعلم -يا أخي- أن مولاك جلّ شأنه إذا كان باطنًا على الأبصار، فقد تجلى ظاهرًا بمُبْدَعاته ومكوَّناته ولوامع بيناته ومُحكَمات آياته للبصائر، بل جعل الأساس ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٠].

وما أردت يا أخي أن أتعالى عليك أو أن أترفع على قدرك؛ فإني أعلم أنك كائن كرَّمه الله وأكرم مثواه وخلق له ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ولكني أقول لأزداد بقولي إليك من اليقين ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥].

فخذ -يا أخي- طريقك فور هذه الساعة إلى الشاهد المبشِّر النذير، الداعي إلى الله بإذنه السراج المنير؛ حتى لا يتخبَّطك الشيطان من المس وتتبعه في وديان الضلالة ﴿ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١].

هذا أملي لوجه الله ورسوله؛ لأنَّ الذين يحبون الرؤوف الرحيم بالمؤمنين -عليه أفضل الصلوات وأتم التسليمات- يتخذونه أسوة لهم؛ فيكون كل واحد منهم بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا. وقد دعت (التوراة) -المُنزَّلة على (موسى) غير المُحرَّفة- صفة محمد ﷺ والذين معه بالرأفة والرحمة، حيث قال تعالى عن مَثَل أمته عليه السلام في التوراة: ﴿ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي

ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾ [الفتح: ٢٩]. أرأيت أوضح منهاجًا من هذه الدعوة؟ وأين هو وماذا يكون؟

آمنتُ بالقَدَر المقدُورِ أنْ هدىً	**من العنايةِ وافٍ ويَهْدِينَا**
وأنْعَشَ القلبَ بالنُّور المُبِينِ على	**ذِكْرٍ تَخِذْنَاهُ في أحوالِنا دينَا**
لا نَفْتَرِي فيه من تِلقَاءِ أَنْفُسِنَا	**ولاَ نحاولُ تحضيرًا وتمدْينَا**
لكنهُ الحقُّ لم نُشْرِكْ بِهِ أحدًا	**حَيَّاكَ ربُّكَ إلاَّ قُلْتَ آمِينَا**

* * *

المبحث الثالث:

الميزان في تقدير الإيمان

وإنّ لك يا أخي أن تُقيم القسط وتعقد الميزان فيما بين القلوب التي كانت محلاً صالحًا لسريان الرحمة الذاتية، والقلوب التي جمُدت على مادَّتها؛ فلم تعد بعدُ صالحة لسريان تلك الرحمة.

فإذا كانت الآيات ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ [الفتح: ٢٩] معيّة العقيدة والتجاوب والإيمان والحب الصادق، الناشئ عن وعي صحيح لماهيّة الرسالة التي جاء بها هذا الرسول الأمين، والتي نزل بها -على قلبه- الروح الأمين، معلنًا بها ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فإن هذه الآية المُبِينة لا تحرم أحدًا من حقه في الرحمة الرسالية؛ لأنها لمجموع العالمين الذين هم مربُوبون لرب العالمين.

ويتبين من هذا أن المعنى الرسالي هو معنى نُورانيّ، والمحرومون منه هم العميان؛ لأنه لا مِزْية للنور مع وجود العمى، كما قال تعالى في الرعد: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد: ١٩] الذين استنارت -بنور الذكر- قلوبهم واصطبغت به أرواحهم وانشرحت به صدورهم، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر: ٢٢] وكما أشار إليه قوله -مخاطبًا أهل الكتاب- بصدد هذا النور ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ

وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [المائدة: ١٥-١٦] وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى: ٥٢].

كل ذلك -على سبيل المثال لا على سبيل الحصر- يدل على أن هذا النور المنزل لهداية الجن والإنس، والذي تستمع إليه الملائكة هو الظاهرة الأولى لتلك الرحمة التي غمرت جميع العالَمِين، فتقبلها قوم واستعصت على آخرين. كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧] فهؤلاء قست قلوبهم، فلا يمكن أن تكون صالحة -بحال- لسريان الرحمة، التي قلنا إن أول ظواهرها هذا النور. فتلك القلوب القاسية الغليظة ما كانت كذلك إلا لانقطاع مَدَد الرحمة النُّورانية عنها؛ لجحودها واستحبابها ﴿ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾ . وذلك يدل على أن ظواهر الظلمات أيضًا انحصار همة النفس في الأمور الجسدية، وانهماكها في تحصيل الفانيات، وانعدام إيمانها بالخلود ﴿ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ التي هي ﴿ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ﴾ [الكهف: ٤٦].

فمن أجل ذلك انقطع أولئك عن المعية الإيجابية مع محمد ﷺ ؛ فكانوا -بذلك الانقطاع- أولياء الشيطان وأعداء الرحمن كأثر لانقطاعهم عن الرسول، الذي يحمل رسالة هي -بذاتها ومضمونها- رحمة للعالمين من الجن والإنس والملائكة أجمعين، بوصف كونها نورًا فيّاضًا من حضرة النور الأعلى ذاته؛ لأن الله -تبارك وتعالى- من أسمائه النور الهادي.

فالذين انقطعوا عن محمد -عليه السلام- كانوا ممن لَذَّ لهم إعراضهم عنه وإقبالهم على أهوائهم -بما أنهم ليسوا منه- فكانوا رحماء على الكفار ومِنْ

أحزابهم، أشداء على المؤمنين؛ لأنهم مِنْ أعدائهم. وعدو المؤمن عدو الإيمان وعدو الإيمان منقطع عن مجالي الرحمة. فهو -إذًا- في الظلمات؛ لأننا قلنا إن النور هو الظاهرة الأولى من ظواهر رحمة الله -سبحانه وتعالى- بالحيارى الذين هم في ظلماتهم يتخبطون، وفي طغيانهم يعمهون ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]. ومن هذه الآية نحكم بأن العمى إذا طرأ على البصيرة سمَّيناه (عمهًا)، وهذا العمه أشد في غِلظ حجاب القلب من عمى البصر. كما ورد أن النبي ﷺ كان قد أناب المكفوف (عبد الله بن أم مكتوم) في الصلاة بالناس عند قيامه -عليه السلام- لإحدى الغزوات. وهؤلاء الذين يعيشون دنياهم متخبطين في متائه الأحلام، سادرين في صحراوات الأوهام، يُحْشَرون يوم القيامة محجوبين عن المشاهد العليا، عميانًا تمامًا كما كانوا ﴿ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ [الفرقان: ٧٣]. وهم فيما هم فيه، يظنون أنهم مبصرون ولا يجدون من مُبْصَراتهم نفعًا. ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلاً ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥].

ومن أجل ذلك بيَّن عنهم وعن الذين إذا أذنبوا لا يتوبون ﴿ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين: ١٥]. بينما الذين كانوا من المؤمنين يتمتعون بالمعية المحمدية وهم في الآخرة ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] وقد فاتني أن أورد لك عن هذا الحكم دليلاً ﴿ وَمَن

كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء: ٧٢][١].

نعوذ بالله من غم الحجاب، وعسر الحساب، وسوء المآب، والإعراض عن الكتاب.

فلله -يا أخي- هل يستوي الأعمى والبصير؟ أم هل تستوي الظلمات والنور؟ فالقرآن من حيث كونه نورًا ليس حروفًا ولا ألفاظًا ولا عبارات ذوات أصوات، بل هو أمر كبير تشهده البصائر، ولا تشهده الأبصار. وهذا هو معنى كونه مكنونًا، أي لا تشهده إلا البصائر، ولا بصائر إلا لقوم مُطَهَّرين.

وإلا فكيف ترى الأبصار -من أعين الرؤوس- تلك القوة الهائلة التي تحرك الجماد، إن كنت للقرآن سميعًا ﴿ وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ [الرعد: ٣١].

عَفَا اللهُ عن ليلى وأيامِ وصْلِها … وتلك الليالي والنجومُ شهودُ

لياليَ كُنّا بالبصائر نجتلِي … معانيَ عليا والقلوبُ سجودُ

وكنّا نناجِي الروحَ والروحُ حاضرٌ … وشئنا سُهادًا والأنامُ هجودُ

---

(١) ولذلك نبه سبحانه محذرًا ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤] وهذا العمى هو أصل الحجاب عن جمال النظر إلى وجهه الكريم.

فـلا عـدمًا كنـا ولا كـان أمرُنـا إذا امـتُحِنَ المُضْنَى فـأين وجـودُ
ألا إنـه ذكـرٌ حكـيمٌ منـزَّلٌ فـأين بُـرُوقٌ دونَـهُ ورعـودُ
إذا لـم يكـن نـورُ البصـائرِ نافـذًا فللـنّفس فـي جُـنحِ الظّـلامِ ركـودُ

أجل، إن الذي أخلد إلى الأرض واتَّبع هواه فيها وفي مشتقَّاتها وعناصرها من نبات وحيوان ومعادن، منغلقًا من النظرية العليا والروحية السامية، يكون قد قَصُرَ إدراكه وانحطَّت همته إلى الدركات الدنيا، مُعْرِضًا عن الدرجات العلا في آيات تجتلى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وهذا الانحطاط، هو الشِّرك بعينه.

والشرك نجس يغمر المشرك، حتى يجعله -نفسه- نجسًا كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ ﴾ [التوبة: ٢٨].

ومتى كان نجسًا بنفسه وبسوء عقيدته وضلال وجهته، فإنه يكون على النقيض تمامًا من أفراد الصف الأعلى؛ لأن أفراد الصف الأعلى هؤلاء مُطَهَّرون، لا متطهِّرون فحسب وهؤلاء المطهرون بلغ بهم السُّمو بالذات عن الدركات الدنيا مبلغًا جعلهم في المستوى اللائق لاستجلاء معاني الكتاب المكنون، من الحَفْرات العليا والمشاهد الملكوتية والفيض الذاتي لمنزِّل الوحي من لدنه، حيث يقول ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤] وخير ورثة العلي الحكيم -هُم أنفسهم- يجب أن يكونوا أعلياء حكماء، على

النقيض -تمامًا- من الأدنياء السُّفهاء الذين رغبوا عمدًا عن ملة (إبراهيم) ﴿ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وما ملة (إبراهيم) إلا تعميم سريان الرحمة في جميع الكائنات، عن حب صادق وحنان أصيل جعل (إبراهيم) يقول لربه ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [إبراهيم: ٣٦]. وهذه الرحمة هي النور، والنور الذي هو سر التسامي عن الدنايا بقوة الإيمان والتعلق بالخالدات من صوالح التصرُّفات.

فهذه هي الرحمة النورانية، التي هي سر الرسالة المحمدية للعالمين أجمعين.

وبهذا يكون محمد ﷺ هو نفسه سر دعوة (إبراهيم) عليه السلام ومَثَل الاستجابة له عند الله حينما قال: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٩].

ولهذا يقول -عليه السلام- «**أنا دعوةُ أبي إبراهيم**» وإنها لَلأُبوة الروحية العليا، أبوة الإمداد والأسوة والصلاة والإسلام، لا أبوة النسب وحدها.

فلا غَرو كان الذين مع محمد ﷺ -في هذا المقام- هم مع (إبراهيم) في نفس الوقت. وكانوا بذلك مَجَالِيَ للرسولَيْن الكريمين -عليهما الصلاة والسلام- في التوحيد المجرد والتفريد الحق، الذي هو سر المِلَّة الحنيفية. وكانوا -بحسن الاتباع- ألسنة صدق لإبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

وهذه هي الاستجابة لدعاء (إبراهيم) ﴿ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤] وقوله تعالى لمحمد ﷺ : ﴿ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴾ [الإسراء: ١٠٦] وفي قوله ﴿ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ تجوز بحذف المضاف فيكون تقديره لتقرأه على ألسنة الناس وأسماعهم. فما من قارئ صدقت نِيَّتُه وصحَّت في الله تعالى وجهته، إلا كان استمرارًا لإبراهيم ومحمد في نشر الملة ودعوة الحق، كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٨]، ومعنى المكث في قوله تعالى: ﴿ عَلَىٰ مُكۡثٖ ﴾ هو الاستمرار. كما قال تعالى عن أهل الجنة ﴿ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ۝٢ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ﴾ [الكهف: ٢-٣] ولقوله عن الهدهد في سورة النمل ﴿ فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ ﴾ [النمل: ٢٢]. والنص واضح الدلالة عندما تتذوق معنى قوله عليه السلام: ﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ ﴾ . فيكون لسانًا صادقًا لـ(إبراهيم) ومحمد عليهما الصلاة والسلام، مستمرًا على الدعوة، متمسكًا بالعُروة، مؤتسيًا بالأُسوة، وارثًا في حياته الدنيا بعدهما، يقوم على منهاجهما بترديد ما أُنْزِل عليهما من صحف أشار إليها قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٨-١٩].

ويكون اندماجًا تامًا في نور الدعوة ما يَبْلُغ بذويه حدَّ التفاني فيها، وإنكار الذات من أجلها؛ ليكون تفكيره تفكيرًا جماعيًا عاليًا في شئون أهل الكون من جن وإنس ومَلَك.

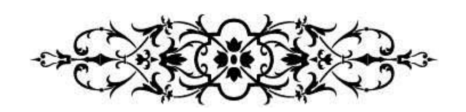
وهذا هو المفهوم المبين من قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

والرحمة واجبة ما دامت الرسالة قائمة؛ لأن المعنى الرسالي من المعاني الثابتة المتعلقة بالهداية، وشمول رحمة الله بعباده وعبيده؛ لأنه -تعالى- يُصرِّح ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. ومحاولة الإنسان إدراك تلك الرحمة الكونية في كل شيء يحتاج إلى فيض عالٍ من الله سبحانه لا يمنحه إلا لأهل الصفاء ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٥] فهذا هو طريق التعيين في كل ما بينَّاه ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] لأن التقوى زاد الفارِّ إلى الله من كل ما سواه، كما أُمِر الأوائل من الناس والأفذاذ الكِفَايات ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات: ٥٠] وفيها مضاف محذوف فيكون تقديرها ففروا إلى رضوان الله وحُكْمه المبين في كُتُبه. وفروا إلى الأرواح متخلِّصين متحررين من تعلُّقات الأبدان؛ لكي تكونوا لائقين لتلك النظرات الملكوتية في هذا المستوى الأعلى الذي أشار إليه ﷺ عُلُوُّ الهمة من الإيمان. وعلو الهمة محاولة بلوغ المجد والتعالي عن الحيوانيات.

ولا يفوتنا في ختام هذا الفصل أن ننوِّه بتبيينك النعمتين الكبيرتين اللتين أمتَنَّ الله تعالى بهما على العباد وهما نعمتا الحياة والنور. فقد أنشأ الكائن حيًا ووهب هذا الحي نورًا يسير على هداه بين مناهج الحياة. وندَّد بالواو على الذي يتغافل عن النعمتين الأساسيتين في قوله تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. والآية جعلت النور لازمًا للسير أو المشي في الناس، ولا بد من التجوُّز في فهم الآية فإنه لا يمشي في دنيا الناس، وما يكتنفها من ظلمات الأيام ومتائه الجرائم

والجنايات، وتلك الخِلال الساقطة التي يتردَّى فيها السالك في الليل الحالك، فلا بد له من نور يقيه التردي في تلك المهاوي والمهالك.

وإني -والله- يا أخي لأدعو لك -في إخلاص وصدق إنابة- أن يلطف بي وبك لطفًا يلطِّف حجاب النفس ويكشف غشاوة العماية عن البصيرة، ويرد أوهام الغواية عن النفس، وأن يجعلنا من أولئك المطهَّرين عن شوائب العِلل في الحس والمحسوسات؛ ليتسنَّى لنا حق مس القرآن الكريم، واستنزال المكنون العلي إلى قلوبنا هداية من الله تعالى لنا في حيرتنا بين الماديات والمعنويات، وعلاجًا لقلوبنا من مرض الشهوات وتحكُّم الأهواء، وألا يجعل قلوبنا في أكنة من آياته، وألا يجعل على بصائرنا غشاوة ممَّا نعاني من بلاء بين أرضه وسمائه. فإنه لا يَزِلُّ من احتمى بحِماه ولا يَضِلُّ من اهتدى بهُداه.



المبحث الرابع:

القرآن والعلاج الرُّوحي وحِكمة وُجود الإنسان

تحيط بالنفس في كثير من الأحيان جمهرة من الأسئلة المُلحة:

أ- من أنا؟

ب- لِمَ جئت؟

ج- إلى أين أسير؟

د- كيف يكون المصير؟

هـ- لماذا خُلِقْتُ؟

و- ما هي عِلة وجودي الذي فيه بدأت؟

ومدى هذه الأسئلة -فيما يُوحيه الشيطان- يسميه القرآن نزغًا، ويعطي عنه علاجًا روحيًا حاسمًا لقوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وقرر أنه لا سلطان له إلا على الذين يتولَّوْنه منكم، والذين هم به مؤمنون.

وهي -فيما يبدو- محاولة تضليلية يُراد بها زلزلة قواعد الإيمان، إلى حد أن يُصاب فيها القلب بمرض الشك والرَّيب، وحكمت الآية بأن محمدًا عليه الصلاة والسلام لا قدرة له -كما لا قدرة لفرد من أفراد أمته، سواءً من استجاب لدعوته أو من أعرض عنها- عن دفع هذا النزغ. وكثيرًا ما تكون نزغات شيطانية تترتب عليها دوافع نفسية قد تُفْضِي بالفرد إلى اقتراف جنايات دامية، وهو يستصوب اقترافها ويراه خير رأى يتجه إليه عمله.

ومن حيث عجز الإنسان عن دفع تلك النزغات، تعيَّن الالتجاء إلى قوة

أقدر منه على دفعها. ولم تكن تلك القوة سوى قوة الله تعالى حيث قال: ﴿ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ ﴾ أي التجئ إليه واحتمِ بِحماه واهتدِ بهُداه؛ لكي تنجو من الشِّراك التي نَصَبَها لك الشيطان.

فللجواب في نور الهداية الإلهية والنجدة العلية بموجِب الاستعاذة، نجد أن قولك متسائلاً: من أنا؟

فاعلم أنه ليس من حقك أن تبحث عن العلة التي قام عليها وجودك الممكن -لا الواجب- ذلك لأن بارئك تعالت ذاته أوجدك لا لعلة ذاتية عنده ولا لطبع شخصيّ فيه تعالى بل هو ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٧] ما يريد هو، لا ما تريده أنت.

وقال (الكفافيّ) في جوهرته:

«وَمَنْ يَقُلْ بِالطَّبْعِ أو بالعِلَّةِ ... فذاك كفرٌ عند أهلِ المِلَّةِ»

فيكون الجواب على قولك من أنا؟

إنك أنت العبد المتحرك إلى أجل مسمّىً، كما بقيت في الأرحام إلى أجل مسمّى بمشيئة صادرة من حكيم عليم حسيب خبير رقيب قريب ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [القصص: ٦٨]، ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص: ٤] حتى يسأله فيما حصل؛ لأنه -سبحانه- لعليائه في حكمته وجلاله في عظمته في القول المحصَّل ﴿ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فلا يبقى لك من سؤالك إلا أن تقف في مقام العبودية له والإيمان به؛ لأن جوارحك من منبعه وعقلك من إبداعه. ولو سألت ذلك العقل كيف كانت الحياة سارية في لِينَةٍ من

الحياة النباتية، لوقف عقلك هذا مَبْهُوتًا حائرًا، يرى الإبداع ولا يدرك الصُّناع.

فهذا مقام يوحى إليك بأدب العبودية بين يديه والإنابة في كل شيء إليه؛ لأنه أَوْلى بك منك وأعلم بشأنك وتقديرك من عقلك وتدبيرك. فإن أعجبك هذا الجواب من نفسك لنفسك فبها ونعمت، وإلا فما لك إلا ما أَنْذَر به الكافرين والمنافقين الذين ردَّهم أسفل السافلين في مطلع سورة التوبة عندما قال تعالى شأنه: ﴿ فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢].

كهذا يا عزيزي يمكن أن تلتمس الجواب على نزغات الشيطان في بحث حقيقة الإنسان. فإذا قال لك في السؤال الثاني ... لِمَ جئت؟

والجواب -في نور الإيمان- أنك نزلت إلى الميدان لصراع دائم دوام الأجل بين العقل والهوى وبين الروح والغريزة وبين إنسانيتك وآدميتك.

فأنت بين نور أعلى -من حيث كونك إنسانًا- ونار دنيا -من حيث كونك آدميًا- محكومًا بالنَّواميس الكونية. ومطالِب آدميتك الحيوانية قد تتعلّق بشئون تُنْكِرها أنت بعقلك من حيث الرتبة الإنسانية النورانية، وسيقوم الصراع فعلاً. فإذا انتصر أعلاك على الأدنى سُمِّيت عبادة وجهادًا. وانتصارًا للحق وانحيازًا إلى العلياء. وإذا غلَّبت أهواءك على أمرك وأعرضت عن إحكام عقلك، فقد اتبعت الهوى. وتعين على الحَكَم العدل -بما رسم وقدر وقسم- أن يخالف وجهتك ويقاوم دعوتك كما قرر ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى

ﭐلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١]، وبذلك تحتوشك[(١)] شياطين الظلمات ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧١]، ﴿ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٠].

ألا تراه يقول لـ(داود) عليه السلام وهو ذلك الرجل الذي ألان له الحديد وسخَّر معه الطير يُسَبحن بالعشيّ والإبكار، يقول سبحانه لهذا الرجل كله ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ ﴾ [ص: ٢٦].

فإنك إذًا جئت لتقاوم بواعث الشر وتناصر بواعث الخير لصالح السلام والإنسانية والمحبة وتؤازر الجهود وتعاوِن القُوى في نشر الرحمة بين آفاق الناس قدر طاقتك.. لهذا جئت يا أخي وإنه لهدف كريم، بل هو هدف الأهداف ومقام الأشراف، وهو بلاء مُبِين واختبار للنفس عميق، يتبيّن به مقادير الرجال وموازين الأبطال حول هذا الهُدى.

وكيفَ وقد لاَحتْ إلينا البشائرْ ... بأنَّ إلى الله العليمِ المصائرْ

وأن الهُدَى في نُصْرَةِ الحق دائمًا ... ومن يأبهُ عمدًا فذلك كافرْ

فَوَاللهِ لا أنسى هُداه على المدى ... وإن لامني فيه القَنَا والبواترْ

---

(١) تحتوشك: تستولي عليك إراديًا بالسَّيْطرة والسلب.

نعم يا أخي جئت إلى المعركة لكي تنتصر بالحق على الباطل وبالنور على الظلام وبالروح على الجسد وبالعقل على الهوى. وألا تتطوح بك الأوهام بين سباسب الظلمات وصحراوات الأحداث المترامية الأطراف؛ فتزِلَّ قدم بعد ثُبوتها وتذوق السوء بما صددت عن علياء سبيل الله وأخلدت إلى الأرض، التي هي مصدر حيوانيتك البائدة وكونك العابر المؤقت بين الذين بيَّن -سبحانه وتعالى- عنهم أنه جعل لهم أجلاً لا ريب فيه. وتلك آياته تُتْرى وبيناته تُدْرى .. ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ ﴾ [الإسراء: ٥٩]. فلهذا جئت، كما جاء الأنبياء من قبلك والمرسلون، وكما جاءت الملائكة العالون. فهل بين الملائكة من تطاول على مسند العرش ليقول في نفسه .. من أنا؟ ولم جئت؟ وطالبًا على ذلك أن يتلقّى الجواب من خالقه الذي جاء به .. فأنت لا تعلم بل جئت كما يعلم .. وأنت معلوم له بعقلك وتكوينك وخطرات نفسك ودوافع جنسك وقرارة طبعك، وحوادث يومك وأمسك وحياتك ورَمْسك(١).

والذي بدأ الشيء أَوْلى بمصيره، والذي خلق العبد أحقُّ بتدبيره.

أما قول النزغات في السؤال الثالث .. إلى أين المسير؟ ففي نور ذلك الإيمان تُجِيب مع نفسك بنفسك، إنني أسير بسرعة الشمس إلى مصير محتوم

---

(١) والأوْلى أن نقول إنما جئت لأُعِين من رجَّح وجودي على عدمي، وجعلني حيًا سمعيًا بصيرًا متكلمًا مفكرًا عاقلاً دَرَّاكًا، ذا مزايا زاخرة وحِكم بالغة. هذا الذي يجعلني أعبده؛ ولهذا جئت وبهذا أمرت ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والرمس هو القبر.

ومسير معلوم، يعلمه الذي بدأه بميلاد وخَتَمَهُ بموت. وأنا بين المقاميْن لستُ حريًا بأن أذكر كيف جئت، ولا كيف أعود، ولا أين يكون المسير. وفي هذه الحيرة أتخبط بين دياجيها وأدور بين أيامها ولياليها حتى لمع أمام بصيرتي بارق من الأمل السعيد، أرسله الوحي يقول لي بما يشرح الصدور ﴿ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ﴾ [الشورى: ٥٣] وعلى هَدْي هذا المصير تتعين مراحل المسير.

فأنت إذًا -يا أخي- قادم من عند الله، سائر إلى الله رغم أنفك وفوق مشيئتك -إذ إنه لا بد مما ليس منه بُدّ- وإنما يختلف المسير. فالسائر على الصراط المستقيم في استقامة هي أقرب الطرق إلى من إليه المصير في غير لف ولا دوران لكل ذي قلب سليم ﴿ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦] فقال في نفسه وقرَّر في قلبه ربي الله ثم استقام عليها، متمتع البصيرة في مشاهدات إبداعات الله بين أنهاره وجنّاته وبساتينه من تجلِّى آياته، فإن الملائكة تتنزّل على هذا العبد المستقيم؛ لتدفع عنه بواعث الخوف والحزن؛ فَيُمَيِّز بين القبيح والحسن، والحقّ والباطل، وهذا نص منصوص فيما تقرأون ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠].

هذا هو القِسم الإنساني الأعلى في مصيره ومسيره. أما الذين تطوَّح بهم السير عن سبيل الله -باختلاف أهوائهم وتنوُّع شهواتهم وعوامّ نزواتهم- فلا قرار لهم إلا على الأوهام ولا استقرار لهم إلا على صخرة الآثام ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ

جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [هود: ١١٨-١١٩] وكذلك عَلِمَهُم على ما اتَّجهت إليه نيَّاتهم ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٧] والذين تعددت بهم السبل وتفرقوا شيعًا، منقطعون عن المعية المحمدية وبذلك يكونون قد ضلُّوا ضلالاً بعيدًا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٤] لكثافة حُجُب قلوبهم واحتواء الأكنّة عليها. فمهما نُقِمْ في وجوههم الدعوة -دعوة الحق- فهم عنها مُعْرِضُون، ويقولون سمعنا وهم لا يسمعون ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣]. وقد أشار سبحانه إلى عِلَل التفرق عن سبيله حيث قال في البند العاشر من المحرمات في سورة الأنعام: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقد جاء في أول البنود العشرة، وهي أيضًا أول الربع من السورة: ﴿ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١] إلخ البند العاشر الناهي عن التفرُّق والامتناع عن اتباع سبيل الحق تعالى. هذا مما سبب التفرق لاختلاف الطرق وتعدد السبل، وهكذا يتبين مصيرهم إلى دار جَهنّم ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر: ٤٤].

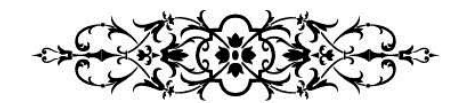
فهذا هو الجواب الصحيح والرشاد الصريح من تساؤل النفس وكيف يكون المصير؛ لأنه مرتبط بكيف كان المسير. ولو صح المسير لصح المصير جزاءً وفاقًا وقياسًا طِباقًا.

أما سؤال النفس ... لماذا خُلِقْتُ؟ ... فقد أجاب سبحانه وتعالى بقوله العزيز، وهو الذي يعلم ما تخفون وما تبدون ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وقد يقول لك نزغ الشيطان: وماذا يعود على الله -تعالى- من عبادتنا؟ وهل له فيها فائدة؟

والجواب على ذلك أنه -تعالى- بالناس رؤوف رحيم، فمن رأفته ورحمته أن مهَّد لهم سبيل عبادته؛ ليسعدهم برأفته ورحمته من غير علة. فإن أحدًا لن يملك أن ينفع ربه ولا أن يضره؛ لِتَنَزُّهه -سبحانه وتعالى- عن النفع والضر؛ لأنه هو النافع الضار لا سواه. فلا يأمر بأمر يجلب به نفعًا ولا ليدفع به ضرًا سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وببطلان الحكم بالعلة يتبين أن العلة تتبع المعلول وجودًا أو عدمًا في الكون كله، لا في ذات المكوِّن سبحانه وتعالى. فأنت إذا عبدت ربك كان ذلك عائدًا عليك بنور الهداية والتوفيق وفعل الخير وكمال الإحساس للمجتمع الذي من حولك، حتى لتكاد تحس أحاسيس النبات، فتألم لظمئه أو تأخُّر موعد ريه، وتألم كذلك إذا رأيت حيوانًا معذبًا أو هرة تعبث بها أيدي الأطفال على حسن نية، وتعمد إلى إرضائهم وإنقاذ الهرة من أيديهم. وهذا الفيض الرحيم أثر من آثار تلك العبادة التي عنها تقول لي: ماذا يستفيد الله إذا عُبد؟

لا إله إلا أنت سبحانك، مسير الركاب إليك ومصير الأمم بين يديك تباركت وتعاليت، ما عَرَفناك حق معرفتك ولا قَدرناك حق قدرك ولا تَلَوْنا كتابك حق تلاوته.



المبحث الخامس:

خُطوط الاتِّصال الشَّيطاني ببني آدم

إنك تعلم الآن أن العبادة رحمة بالعبد، وأن الرب الرحيم هو مَصْدر هذه الرحمة، فلا يبقى لك إلا أن تواجه نزغات الشيطان بسؤاله هو: هل تريد أن تقول لرحيم - لماذا تحب الرحمة؟! وتقول للرؤوف لماذا تعطف وتحب الرأفة؟!

وبهذا ينهزم النزغ أمام قوة المنطق. وتبطل سفسطة المُتَشدِّقين بالأسئلة الباطلة في ذاتها بطلانًا ذاتيًا وقانونيًا.

كذلك يكون للشيطان -فوق خط النزغ- خط آخر يسمى الهمز.

وقد حصَّن الله -تعالى- محمدًا ﷺ، وبها حصَّن جميع المؤمنين من ذوي القلب السليم ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٧-٩٨].

ولا ترِدُ تلك الهمزات المتتابعة الملحة، بل تنحصر -غالبًا- في الناحية المادية من الحياة الاقتصادية وهمّ الرزق، وموازنة الميزانية الأسرية أو بلوغ مأرب أو نوال مطلب أو انتفاء مهرب، وما إلى ذلك من الهمزات التي توحي إلى ضحيتها بالسأم والملل والتبرُّم بالحياة واحتقار القيم والازدراء بالمُقَدَّسات. وهو -كما ترى- طريق يندفع سالكه إلى (جهنم) اندفاع النَّهِم إلى اللبن إلى صدر أمه. وإنها لكذلك فيما تشير إليه الآية التالية: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ [القارعة: ٩-١١]. فهم بها مُغْرمون ومن التفكير في سواها محرومون ﴿ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟

ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ [البقرة: ١٥-١٦] إلخ الآيات من سورة البقرة إن كنت من القارئين.

والجواب الإلهي على الهمزات من الشياطين -إنسًا وجنًّا- هو أن جميع مُتعلَّقات الحياة العنصرية لهذا البدن تابعة لتدبير النواميس الكونية التي يدبرها مدبر الأمر -الذي إليه يرجع الأمر كله- وقد أشار سبحانه وتعالى في مطلع الآية الثانية من سورة الرعد ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد: ٢].

فبعد أن جعل مطلع الآية عرضًا لقدرته وبيانًا لقوته فيما أنشأ وخلق، وجعلها جملة المبتدي. جاء الخبر ليقول إن هذا الصانع للكون كله هو وحده الذي ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ﴾ ثم استطرد -سبحانه- في الآية الثالثة عرضًا، حين قال: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الرعد: ٣].

وهكذا -أيها الهامز- تندفع تلك الهموم التي تقذف بها إلى صدري ليضيق، وإلى أعصابي لتتوتر، وإلى أملي لينهار، وإلى ألمي ليزداد، وإلى إيماني لينهزم. فهذا أنت أمام تيار الإيمان الجارف تندفع -منهزمًا لهمزاتك السوء- اندفاع الغُثاء فوق السيل، ويَبْهرك نور الحق بالأمل الوثيق يرد على الألم والضيق. والرجاء المحقَّق يُرْقِد الطرف المُؤرَّق. كنت تريدني كائنًا مكتئبًا قانطًا يائسًا من رَوْح الله ومن رحمة الله، حتى لتكاد تدنيني لأقتل نفسي بيدي .. أهذا حل؟ وهل هذه هي النتيجة الحتمية لليأس؟ هل أنا المدبِّر؟ هل أنا الذي أنشأتُ نفسي؟ أليس الذي أنشأني هو أوْلى بي مني؟

وقد تندفع ثورة الأعصاب حيال إلحاح الهمزات إلى الكفر بكل شيء، والشك في كل أحد حتى الزوجة والولد .. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨] إلخ.

ومعنى هذا أن شدة إلحاح الهمزات -إذا واجهها إيمان قويّ- انعكست الآية على الشيطان، حيث يتنبه المؤمن فور شدة الهمزات إلى موقفه؛ فيزول عنه عَمَهُ البصيرة في الحال، فإذا هو يستغفر وينيب كما هو ظاهر النص في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٢].

وكونهم مبصرين هو انعكاس الريح على كل هَمَّاز مشَّاءٍ بنميم، منَّاع للخير معتدٍ أثيم. وهذا ما أردناه بقولنا عن انعكاس الآية على الشيطان، الذي لم يكن يريد لهم أن يكونوا مبصرين.

والهمز قد يكون همسًا في الأذن أو إيحاءً إلى القلب، ونتاجه على كل حال يبدو سيئًا ببداهة العقل؛ ذلك لأن «**الحلال بَيِّن والحرام بَيِّن**». فلن يقع بعد ذلك للشيطان -في الخط الثاني وهو خط الهمز- إلا من غفل عن المبادرة إلى الاستعاذة المنصوصة، والتي تضمَّنت أيضًا خط اتصال ثالثًا وهو قوله تعالى: ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٨]. وهذا الحضور الشيطانيّ أشبه بالاحتلال الكهربيّ، فكأنها بطريق الشحنة بوصف كونه «**يجري من ابن آدم مجرى الدم في العروق**».

وهو -أعوذ بالله من همزاته- في تكوينه من المارج الناريّ لا من ذات النار. من أجل ذلك كان له قوة الاتصال المغناطيسي والكهربي بكل كائن، حتى من الْمُرْسَلين والأنبياء لأن المُخَاطب بها ﷺ لو لم يكن هدفًا للإصابة بهذه الهمزات وبهذا الحضور، لانعدمت الحكمة في إنزال الأمر إليه. ولا يقُلْ قائل إن الأمر عام لأفراد أمته، فنقول إن ما كان لأفراد أمته -عنه- يكون فيه من باب الأولى؛ تفاديًا للنص الذي يفيد شدة المَقْت للذين يقولون ما لا يفعلون. والنص -بين أيدينا- بصيغة الأمر ﴿ وَقُل رَّبِّ ﴾ فلا مفرّ من الالتزام بقوة النص.

وهو ﷺ يقول: «**حَمَل عليَّ الشيطان في الصلاة ليقطع على الصلاة، فذَعَتْتُه**[١] **وهممت أن أربطه إلى سارية المسجد؛ حتى تصبحوا فتنظروا إليه فذكرت قول (سليمان)** ﴿ لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِىٓ ﴾ [ص: ٣٥] **فأقدرني الله عليه؛ وصرفه عني**». فهذا الحديث الصحيح شهادة دالَّة على مهاجمة الشيطان بطريق الحضور الذاتيّ حتى على المرسلين، بل وعلى إمام المرسلين ليكون أيضًا إمام المجاهدين.

ويقال عمَّن حضره الشيطان إنه رجل محضور أو امرأة محضورة، تتصرف بغير إرادتها هي، بل بإرادة خفية توحي إليها ما تقول وما تفعل لا بطريق التشنُّج العصبيّ أو المِزْماريّ الذي يغير الصوت ولكن بطريق التصرفات العملية والأقوال المثيرة للأعصاب، وقد تبلغ حد الكفر الصُّراح. ويكون حالتئذٍ هدف الشيطان -من تلك المحضورة وذلك المحضور- هو

---

(١) ذعَتته: أمسكت به وقبضت عليه بكفّي.

الترشيح لوقوع جناية قتل إذا تيسَّر.

فالرجل الذي يرسل القول جُزافًا ويطلق الشرارة لفظًا ويحطم الأواني، ويسُب ويلعن ويؤذي ويصخب ويسخر، ويحتقر نظام المجتمع لا بد أن يكون رجلاً محضورًا. ولذلك شملت الاستعاذة تعيين الخط الثالث من خطوط الاتصال الشيطاني بالنفس وهو الحضور.

وهناك خط رابع -وهو أشد من مجرد الحضور- وهو المس. والمس في اللغة هو الغشيان، ومن ناحية المرأة هو الوطء. فشاهِدُ الأول قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]. وقوله -تعالى- على لسان (أيوب) ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. فهذا هو الغشيان. وأمَّا المس الوطِئ ففي قوله تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وكما قال في سورة المجادلة: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ﴾ [المجادلة: ٣]. فما هو إذًا مس الشيطان؟ أهو من قبيل الغشيان أم من قبيل الوطء والمباشَرة؟

وقد يكون الجواب أنه يفعلهما معًا، ففي الرجال يكون مسه غشيانًا فيغشاه فيكلم نفسه وتثور أعصابه ويندفع إلى أعمال سيكوباتية[١]، لا يبالي فيها نتائج عمله ولا مصائر تصرُّفه. وفي المرأة وطء استمتاعي، ما لم يتعوّذ الرجل بالصيغة المأثورة عند الجميع وهي قولهم «**اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا**». كما جاء التأمين في قول (أم مريم) ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

---

(١) سيكوباتية: عُدْوانيّة عَصَبيَّة لا إراديّة.

وهذا من قبيل المثال لا الحصر، فإذا لم يتعوَّذ حَضَرَهُ الشيطان إما سلبًا فلا يجعل الانتشار، وإما إيجابًا إن وُجد نوع من الإغراء التَّباذُلي. والمراد فيه استمتاع الشيطان بالمرأة عن طريق زوجها وسريانه في الحرارة الغريزية حيث مجرى الدم وفصيلته الذاتية.

ولقائل أن يقول إن هذا القول يُفْضِي منا إلى الحكم بإمكان حصول الاستمتاع الجنسيّ بين الجن والإنس. وأقول لك: ولم لا؟ وقد بيَّن ذلك سبحانه وتعالى في سورة الأنعام صريحًا ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، ولولا جواز الاستمتاع، ما نبَّهنا رسول الله ﷺ إلى الاستعاذة في تلك المواطن. وهو إمام لا ينطق عن الهوى، زاده الله صلاة وسلامًا وجزاءً صديقًا وأخًا ورسولاً وإمامًا.

فهذه ناحية المس، وقد يقع فيها المُرابون كثيرًا كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وهذا أيضًا على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.

ولعلّك -إن كنت على إلمام بمطالع القرآن الكريم- تذكُر ما جاء من تسخير الجن لـ(سليمان) عليه السلام ﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ [ص: ٣٧-٣٨] وكان هذا مشهودًا عند العرب، حتى قال (النابغة الذُّبياني) وهو يُطْرِي النعمان بن المُنذر في داليَّته المشهورة:

لا أرى فاعلاً في الناس يشبهُه	ولا أُحَاشِي من الأقوام من أحدِ
إلا سليمانَ إذ قال الإلهُ له	قم في البَرِيَّة فَاصْدُدْها عن الفَنَدِ[1]
وسَخِّر الجن إني قد أذنتُ لهم	يبنون (تَدْمُرَ) بالصّفّاح فالعَمَدِ
فمن أطاع فأكْرِمْهُ بطاعته	ومن أَبَى عنك فاسجِنْهُ إلى الأبدِ

ولا أريد أن أتخذ من الشعر أسطورة قديمة أقدمها إليك إلا للدلالة على حقيقة واحدة داخلة في موضوع الجن ومحطة المس. وفي القرآن الكريم ما يغنيني عن (النابغة الذبياني) فمن القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَـٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠]، إلى آخر آية الجن من سورة (ص)، وأيضًا قوله تعالى: ﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٢-١٣].

وكانت صفوف الجن أكبر مؤثر عند قدوم مجلس وزراء (سبأ) بالهدايا، وعند قدوم (بلقيس) في بقية جنودها وكنوزها، كانت الجن هي التي صنعت له الصرح الذي أذهل ملكة (سبأ) وهي تلك الملكة العريقة بنت (هدهاد)، والتي تتميز بمحاسن أشار إليها الهدهد إلماحًا بقوله: ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا

---

(١) الفند: الهلاك.

عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل: ٢٣] أذهلتها عمليات الجن حيث مردوا لـ(سليمان) الصرح من القوارير. فإذا رآه الإنسان لأول وهلة ظن أن أرضه لُجَّة تتماوج إلى آخر عمليات الجن. وما فتئوا على عهد (سليمان) مما جاء نصه في سورة البقرة: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠١-١٠٢] فلم يبقَ عندك من رَيْب في جواز تجسُّد الجني عند الملاءمة -أي ملاءمة الوسيط- ومتى كان ذلك، عرفنا طبيعة الاستمتاع مع التجسد حتى لَتَنْصرف المرأة عن زوجها إرضاءً لسيدها من الجن، كما هو مفهوم في قوله تعالى: ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ﴾.

وقد احتوى كتاب «أحكام المُرجان في أنباء الجان» الكثير من الحوادث والعمليات الدالة على وجود شعراء في الجن يؤازرون شعراء الإنس ببلاغة سامية، وليس ذلك بعزيز على قوم قال القرآن عن المؤمنين منهم ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ

مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٠].

فلا غرو قالت العرب: (**لولا هُبَيْد ما كان لُبَيْد**). وهو مثل شائع حيث يُنْطق بالضاد. فلم يبقَ لك -أيها الأخ- أي مجال للزوغان أمام هذه الحقائق الناصعة؛ لأن الزَّيْغ في مثل هذه الحالة لا يكون إلا مُكابرة، وهذا ضلال بعيد. وأمر الاتصال بين الإنس والجن أمر مفروغ منه بما أجمعت عليه النصوص من القرآن والحديث.

وما أورده في التفسير الكبير العلامة (فخر الدين الرَّازي). فارجع إليه في الجزء الأول من قوله تعالى: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] فقد قرر أكثر من ألف مسألة حول قول الإنسان (أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) إذا شئت الاستقصاء أو الاستقراء، وحيث إننا بسبيل الكلام عن الخط السادس لاتصال الشيطان بـ(بني آدم) وهو الوسواس.

وهذا الخط يبدو أخطر من المس نفسه؛ لأنه يتجه به الشيطان إلى الصدر. ولذلك كانت المُعَوِّذة الأخيرة من القرآن الكريم نصًّا على أن الشيطان يستخدم في الوسواس أفرادًا من بني الإنسان، فيتكلم على ألسنتهم بالشر والوعيد والتشكيك والتنديد؛ فأصدرها إليه -سبحانه وتعالى- بالأمر.

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ وهذا مقام الربوبية المتعلق بتربية الكيان الحيواني.

﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ وهو يتعلق بالنظام التشريعي والأحكام وما إليها من فنون العدل والتشريع.

﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ وهو المتعلق بالإمداد المطلق بسر الحياة وسر الموت، فتكون الاستعاذة في المقامات الثلاثة دليلاً على خطورة هذا الخط السادس.

ثم يقول: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ ويراد بالخناس، الذي يخنس هاربًا أمام قوة الاستعاذة؛ لأنه الخناس ﴿ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ والمقصود باتخاذ الحملة في صدور الناس، على الصدور لا يكون إلا متعلقًا بإحداث أمراض القلق والتوجُّس والترقُّب وتوقع الشر والهمّ والحَزَن، والجبن والخوف والبخل والتردُّد وسقوط الهمة وفتُور العزيمة واضطراب الفكر.

ثم يختتم بقوله جلَّ شأنه ووسِع علمه ﴿ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ من ذرية (إبليس) التي تتناسل فيه. وإن تعجب لقولنا ذرية (إبليس) المتناسلة عنه، فعجب تجاهلك أنت لقوله تعالى: ﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلاً ﴾ [الكهف: ٥٠]. ولقوله -تعالى- فيما يتعلق بوسوسة الناس للناس بناء على وسوسة الجن للناس ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ ﴾ [الأنعام: ١٢١] ولقوله تعالى: ﴿ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦][1].

---

(١) كذلك في الأنعام من قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ ﴾ [الأنعام: ١١٢] وكذلك قوله جل شأنه: ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلاً ﴾ =

ومن نفثات الوسواس طرح الأسئلة عليك متلاحقة على هذا النحو: ها أنت مستقيم لا تزنِي ولا تسرق ولا تفعل الحرام، وها أنت تصلِّى وتصوم وتؤمن، فما بالك تعيش في حال تعيسة وحياة منكُودة وعسر مستمر، بينما الآلاف أمامك من العابثين وكبار المجرمين والزُّناة والذين يعاقرون الخمر ولا يقربون الصلاة ولا يؤمنون بالله متمتعون بعيش رغيد وأموال وافرة وحدائق وبساتين ونساء جميلات، وغير ذلك مما تُصَوِّره الوساوس؛ لتخرُج بك إلى نتيجة واحدة مُؤدَّاها أنه لا قوة للإيمان بالله ولا نفع أو فائدة تعود من طاعة الله.

ولقطع دابر هذه الوساوس نجيب عليهم بقوله تبارك وتعالى: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٢ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٢-٣] وقوله سبحانه: ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ ﴾ [محمد: ١٢] وقوله -عزت ذاته وقُدِّست صفاته- لحبيبه المصطفى عليه السلام ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجًا مِّنۡهُمۡ زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا لِنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَرِزۡقُ رَبِّكَ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ ﴾ [طه: ١٣١]. والرزق هنا هو فيض الله تعالى بنعيم لا ينفد ومُلك لا يبلَى ﴿ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ۝٣٤ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۝٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ۝٣٧ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ [الواقعة: ٣٤-٣٨] فهذا هو الرزق الأبقى والمتاع الأخلد والنعيم المقيم والنور الأعظم الأقدس. هذا هو رزق الله، وما سواه راجع إلى ما أوردنا من قبل حول قوله تعالى: ﴿ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا

=

[الكهف: ١٠٢].

يَظْهَرُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٣] الآيات من سورة (الزخرف).

ولا تحسبنَّ الشيطان يقف صامتًا أو يكُفّ عن مواصلة الوسواس أمام هذه الآيات الصادعة والحجج القاطعة، فسوف يقول لك إنك تتعزّى بذكر ذلك النعيم الخالد الذي لا يزال شيئًا غيبيًّا، وتتناسى ما تعاني من متاعب الحرمان ومرارة الضنك والحاجة، ولا يُغني عنك ما تحكم به من سعادة الجَنَّة وما فيها من حُور وقصور. بينما هو ذاته -جل شأنه- يقول لك: ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وهكذا يستند الوسواس الشيطاني المباشر أو غير المباشر إلى الاحتجاج -في وجهه- بهذه الآيات الناصعات.

وللجواب على ما احتجّ به الشيطان نقول:

أيها الشيطان المضلِّل والمحتج المزيِّف، إنك عندما عيَّرتَني بما يعتريني الآن من شظف العيش وبؤس الحياة، إنما هو أمر عرضيٌّ مُؤقَّت؛ لأن الله تعالى: ﴿ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ ﴾ [البقرة: ٢٤٥] فيمنع حين يحسُن المنع بعلمه وحكمته ورأفته ورحمته، ويعطي عندما يكون الأمر كذلك. ومرجع القبض والبسط إليه. ولم أقل لك ولم أعترف بين يديك -أيها الوسواس الخناس- بأني يائس من نجدة الله أو قانط من رحمة الله أو ساخط على قَدَر الله بل أنا مؤمن بعمق حنانه، ولو أَصْلَتْنِي الفاقة نارًا حامية[١]. بل لو شاءت حكمته -على هَدْى قول (إبراهيم) أبي الأنبياء عليه السلام- أن أُحرق وأن يُذَرَّ جسمي رمادًا، فإن كل

(١) وقوله تعالى قاطع في تكفير القانطين من رحمته ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧].

ذرة من ذرات ذلك الجسد المتطايرة تؤمن بوُده وتُسِّبح بحمده راضية بقضائه وقدره، وتشهد أنه الله الواحد الأحد.

وهذا المقام لا سلطان فيه للشياطين على المؤمنين، حيث لا مفر من أن يخنس الشيطان على الفور أمام هذه البسالة الإيمانية الصامدة الصاعدة الثابتة الأركان المنيعة البُنيان.

ثم انظر يا (إبليس) أو يا أي فرد من ذرية (إبليس) كم من الأنبياء قُتِلُوا؟ وكم من المؤمنين أُحْرِقوا؟ وكم من الشهداء صعدت أرواحهم إلى الحياة العالية الكريمة في دار الشُّهداء، بعد أن تركوا على رمال المعارك ذلك الثوب الأُرْجُوانيّ الثمين من دمائهم الزكية؟ ولكنك تُنْكِر حياة الشهداء وما على الشمس إذا أنكرها الأعمى!!.

ثم تعالَ فانظر معي كيف جمع الله لنا في سورة (الكهف) بين رجُلَين أحدهما مؤمن فقير، والثاني كافر ثريّ؛ لكي نتخذ العظة والعبرة؛ ولكي نلمس بمشاعرنا المُوازَنة القائمة بين معنويات الفقير وسُفْليات الثري ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ﴾ -أي لصاحب الجنتين- ﴿ ثَمَرٌ ﴾ -معد للتوزيع بعد حصاده- ﴿ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ ﴾ -أي الفقير المؤمن- ﴿ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ -أي أكثر رجالاً؛ لأن الناس تجتمع حول الموسِر الثري، وبعد تفاخره هذا ومكاثرته لصاحبه، تمادى في الغرور ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾ -أي لن تزول ولن تفنى- ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ -أي لن تكون هناك قيامة، إنما هي أسطورة خيالية قديمة اصطنعها

المُرتَزِقون من المُشَعْوِذين؛ ليُخَدِّروا بها أعصاب تابعيهم- ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ -ودل قوله: ﴿ وَلَئِن ﴾ على الشك في قيام الساعة شكًا واضحًا. وبهذا فقد كفر كفرًا صريحًا، أدى إلى أن يصارحه صاحبه المؤمن ولا يخشى ثراءه ولا كثرة رجاله ولا انقطاع نفع يصل إليه -وهو الفقير- من ثروة ذلك الثري ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٣٣-٣٨] أي لا أحابيك على حساب ديني ولا أنافقك على حساب عقيدتي، بل أُوثر الحق ولو أغضبك فأصارحك بأنك -بهذه المكاثرة في المال والرجال والاعتماد عليها كآخر شيء أمكن الوصول إليه من المتاع، وإعلان الشك بحرف «إن» في قيام الساعة- كفرت كفرًا يُوجِب عليَّ مواجهتك به وإعلامك إياه، لعل باب التوبة والرجوع إلى الله ينفتح أمامك قبل أن تحيق بك الكارثة، حيث لا ينفع الندم ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾ -أي ما أشهده من ثمرات يانعة وجنات واسعة ونخيل باسقة وأمواه جارية إنما هو بمشيئة الله وقوته، لا بمشيئتي ولا بقوتي إذ إنه ﴿ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾ ولكنك لم تفطن إلى شيء من هذا لتباهيني وتعلن الكبرياء عليَّ بشيء غير داخل في كيانك ولا متعلق بمعنوياتك ﴿ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ [الكهف: ٣٩-٤٠] -لأنك بمباهاتك ومكاثرتك تغفل عن المنعم وتستند إلى النعمة، فلن أجاريك ولن أشرك بربي أحدًا مثلك، وأرفع أمري حِيالَك إلى الله ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤] أُفوِّضه تعالى؛ فهو الذي يعلم سرك ونجواك.

وأمام هذه النصيحة الصريحة الصادرة من المشاعر الجريحة والعزة الطعينة، نزلت به نقمة المنتقم ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ وبادره سيل منهمر من السماء فاكتسح جنَّتيه بما فيهما من نخيل وأعناب ومختلِف الثمرات، ولم يبقَ منها إلا أرض مليئة بالأوحال ﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ ﴾ -بعد فوات الأوان- ﴿ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ -وهنا انصرف عنه من كانوا حوله وتفرقوا في الآفاق يلتمسون الرزق من مكان آخر- ﴿ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴾ [الكهف: ٤٣] فلم يجد حوله من يدفع عنه حسبان السماء ولا جزاء الاجتراء، وحلَّ به الندم حيث لم يعد ينفع الندم ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَـٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ [الكهف: ٤٤].

ومن الموازنة بين مقاميْ كلٍّ من هذين الرجُلينِ، يتضح لكل مؤمن -جعل الله له نورًا يمشي به في الناس- أيُّ الميزانين أثقل وأيهما أخف. وأنت تعلم يا (إبليس) -يا مثير الهواجس والوساوس- كيف امْتُحِن (أيوب) عليه السلام، حينما مسه نَصَب منك وعذاب في الولد والمال والثمرات وفي النفس بالذات، وعلمت أنه إنما كان يعبد الله لله لا لشيء سواه. فهذا الموقف يمنحني مناعة تحُول بيني وبين ما تثيره في نفسي من آلام وحسرات وفواجع ومرارة. على أني مأجور -على كل ذلك- من الله سبحانه وتعالى أجرًا يتكافأ مع حسن البلاء وضراوة المحنة.

وإن لك الآن أن تكُفَّ عن هذا الوسواس الفاشل، مهما يكن أمرك من التكفير والتشكيك، فما أنا بفاعل. فلم يبقَ لك -بعد ما تبيَّن لك الهُدى- إلا أن تلجأ إلى خط آخر، وأظنك لاجئًا إلى الخط السابع من خطوط اتصالك ألا وهو الأز.

والأَزُّ كمد يغمُر النفس بثورة الغضب وعنف التصرف وسوء تقدير الأمور وعدم المبالاة بنتائجها. ولكن هذا الخط لا يعمل على المؤمنين؛ لأنه مُختص بتأثيره على الكافرين لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ [مريم: ٨٣] يعصف بمشاعرهم ويهيج فيهم الوحشية والدنس واقتراف المنكرات. وهو في الغالب خط عنيف يظهر أثره بميادين القتال وساحات الحرب، ومن ثَمَّ لا نُفيض فيه ويكفي أن نشير إلى ما يقوم بنفس المحارب المُبْطل الذي لا يقوم عمله على حق ولا يسنده مُسَوِّغ، وهو أشد ضراوة وأخطر افتراسًا من وحوش الغابات.

ولنتجه إلى الخط الثامن وهو خط التَّنزُّل.

وهذا خط يعم كثيرًا من الناس، حيث يوحي بالكذب حتى يسمى صاحبه عند الله بالكذب، كما يوحي بارتكاب الآثام واقتراف الجنايات وهو الخط المقابل لتنزيل الملائكة، وقد بيَّن الكتاب الحكيم هذا الخط الثامن -من خطوط اتصال (إبليس) ببني آدم- بقوله تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٢].

وبهذا يكون اعتياد الإنسان الكذب والاجتراء على الافتراء مرشَّحًا له للاتصال بالشيطان عن طريق هذا الخط الثامن، فيستمر تنزُّل الشياطين على الأفَّاكين الآثمين متتابعًا في صور مختلفة وألوان متعددة، وتكون النهاية غالبًا سقوط هؤلاء في طائلة العقاب في الدنيا قبل الآخرة وقبل البرزخ ﴿ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٤].

ويقابل هذا الخط -عند المؤمنين- خط المقاومة الملكوتية، وهو خط تنزُّل الملائكة لمقاومة أثر تنزُّل الشياطين. وهذا الخط الملكوتي الإيمانيّ لا يكون

إلا للذين ثبتت أقدامهم في مقام المحبة ووَحدانية الربوبية ثباتًا يُفضي إلى سلامة سَيْرهم واستقامة خُطاهم، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠] إلخ الآيات.

والظاهر أن هذا الخط الملكوتي يكفي -وحده- للرد على الخطوط الشيطانية الثمانية جميعًا؛ لأنه متى حصل الثبات وتمت الاستقامة على طريقته، ثبتت محبة الله تعالى في قلب العبد واستشعر الأُنس بربه والحنين إلى معبده والاطمئنان بذكره، كما يقول بعض المحبين:

لقد ثَبَتَتْ في القلبِ فيكم محبةٌ ... كما ثبتت بالراحتَيْنِ مِنِّي الأصابعُ

وهذه المحبة هي مبعث النور، ومتى ظهر النور ولَّى الظلام تلقائيًا؛ حيث لا يجتمع النقيضان. والنور كفيل بأن يكشف للإنسان المنير مسالك هُداه ومعالم رضوان الله؛ فيتجلّى بالصبر الجميل من فيض الله تعالى، كما قال لحبيبه ﷺ : ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧-١٢٨].

والإحسان -كما أسلفنا- أن تعبد الله كأنك تراه، ومتى كان الأمر كذلك، فكيف تغضب على قضائه؟ وكيف تنساه بنعمائه؟

وهكذا نجد كل ناحية من نواحي الخطوط الشيطانية الثمانية أمامها حصنًا منيعًا وركنًا ثابتًا ونورًا يبيِّن السبيل ويهدي إلى الحق ويفيض بالقوة في جميع الزَّوايا النفسية. وجميع عمليات المقاومة؛ لمواجهة آثار كل خط من الخطوط

الثمانية، تعد جهادًا أكبر وكفاحًا أشقّ وأخطر من كفاح الميادين المحسوس الملموس المشهود، الذي هو أيسر خَطْبًا من ذلك الكفاح المُثَمَّن الجهات -المتعدد الهمزات والخَطَرات والهمسات والحسرات- مما لا يُعَدُّ ضرب السيوف والرماح والسهام بجانبه شيئًا مذكورًا.

ذلك أيها الأخ الزكيّ من كل ما ذكرنا، ينجيك من تلبيس (إبليس) وافتنانه في وسائل التضليل ومزلات الأقدام. على أنه قد يبدو لك في صورة الناصح الأمين، وقد يستشهد بآيات من القرآن وبعض الأحاديث النبوية؛ ليعطيك مُسوِّغًا -ربما يوحي به إليك أو يحمل به عليك- فيزيِّن لك سوء العمل ويوقفك موقف المعتمد على ذلك العمل، حتى تزعم أنك ملكت رحمة الله، كما قالت اليهود ﴿ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة: ١٨]. وعلى هذا النحو نجد أكثر النشاط الشيطاني في صور أولئك الذين نصَّبوا أنفسهم لإرشاد المُريدين، وهم أبعد الناس عن علوم الدين -مثل مشايخ الطرق ونُقَباء الدراويش ومن إليهم- من الذين اختلفت طرقهم وعميت عليهم السُّبل ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٤] وقد أشار إليهم في قوله -تعالى- كذلك في سورة الكهف ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَـٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥].

وها أنت يا أخي قد رأيت الفرق بين مَنْ عاش مستقيمًا ومَنْ عاش منحرفًا غويًا ﴿ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴾ [مريم: ٧٣].

هذا على أن تزيين سوء العمل ابتغاء التضليل، قد يصل بالمضلَّل إلى الخط التاسع من الخطوط الشيطانية للاتصال ببني البشر وهو خط الاستهواء.

حيث يستهوي نفس ضحيته بصنوف من المُغْرِيات، حتى يدعه في حيرة من أمره إلى أيها يتجه وماذا -منها- يختار؟!

وهذا الاستهواء هو أخطر خطوط الشيطان على عقل الضحية. وقد أشار سبحانه وتعالى إلى هذا النوع في سورة الأنعام عندما قال: ﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَـٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ٧١]. وخطورة هذا الخط أنه مشترك، لا يقوم به شيطان واحد، بل يتقاسمه جمع من الشياطين، كما هو مفهوم النص حيث أشار إلى أن الضحية مفرد بالاسم الموصول وهو «الذي» ثم أفرد بها الضمير حيث قال «استهوته» فلا جمع فيهما، ولكن الجمع ورد في ذكر الذين يقومون بالاستهواء حيث قال: «استهوته الشَّياطين» وهو جمع المفرد شيطان؛ فعليه تدور صنوف التأثيرات المختلفة في النفس والمال والعِرْض والكرامة والقوة وحسن النظر إلى الحقائق وغير ذلك من مُتَعلَّقات النفس في الحياة الدنيا. ولا يمكن وقوع علاج روحي بمثل هذا إلا إذا كانت العناية الإلهية قد تعلقت بنجدته، وإلا فهو -لا محالة- من الخاسرين.

والحيرة -التي هي أثر أو ظاهرة من ظواهر الاستهواء- تجعل صاحبها يبدو أمام الناس مشدوهًا ساهمًا قلقًا مضطربًا، لا يعرف معنىً للاستقرار ولا يجد فترة تَحُفُّه فيها الطمأنينة أو تنزِل عليه السكينة، وهو ما يُفهم من قوله تعالى ﴿ ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ ﴾ . والواضح من هذه الكلمات هو ما أشرنا إليه من القلق والبلبلة وعدم حصول السكينة أو الاطمئنان في قلب الحائر. وبتمام هذه الحيرة، يكون الضلال ضلالاً بعيدًا والخسران

خُسرانًا مبينًا، أعاذنا الله وإياك يا أخي من مثل هذا الموقف.

وإنك لترى رجلاً يتوجَّه بحسن نية إلى ما يظن أن له فيه إلى الله زُلفى، فتتلقَّفه الشياطين ثم تطوِّح به في وديان من الأوهام وبيداوات من الشك والتوجُّس؛ فيقول عنه الناس إنه (مجذوب) وقد صدقوا، ولكنَّ الذين جذبوه ليسوا سوى الشياطين؛ لأن المنجذب إلى الحق لا بد أن يكون مستقرًا ساكنًا بصيرًا بالقرآن متَّبعًا للسنة المطهرة؛ لأن الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ﴾ [الفتح: ٤] بهذه السكينة على المؤمنين، وهي ليست إلا قوة مضادة لتنزُّل الشياطين على كل أفَّاك أثيم.

إذًا فانعدام السكينة وكثرة الحركة والجذب الشيطاني إنما هي الدليل على انعدام الإيمان وأَخَصّ علامات الاستهواء الشيطاني الجهل بالقرآن والسنة وأحكام الدين وأصول الفقه والتوحيد، إلى غير ذلك من العلوم التي يجعلها الله -تعالى- لمن اتَّقاه، وهو القائل ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وما اتخذ الله من وليّ جاهل؛ لأن الجهل ذاته ينفي الولاية الإلهية، ولو اتخذه لَعلَّمه لأنه تعالى يقول صادقًا ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [الإسراء: ٨٥].

وإذا لم يكن عِلْمٌ فلا تقوَى، وقد يقول قائل: إننا نجد كثيرًا من العلماء هم أشد ضلالاً من الجهلة. وأقول: إن هؤلاء لا يمكن أن يكونوا من العلماء فعلاً، بل هم مُتعَالِمُون، أخذوا ظواهر النصوص ووقفوا عندها فكانت حجابًا على معانيها. وتشدَّقوا بظواهر الألفاظ؛ ليقول الناس إنهم علماء، ولكنهم -في الواقع- يحاولون تسويق كلماتهم سعيًا وراء المنافع الدنيوية التافهة، ولو سَمَتْ نفوسهم بالعلم الحقيقي لارتفعت هممهم عن الدنيا، وقد أشار ﷺ إلى هذا

بقوله: «عُلُوُّ الهمة من الإيمان»، ومن علت همَّتُه سَمَتْ عزَّتُه عن دنِيَّات الأمور وفانياتها، واستغرقتهم همتهم في نُشْدان الحياة العليا، حيث تتجلَّى لهم دائمًا حقائق الوحدانية الجامعة الشاملة، فيكون لنفوسهم من اللذة الذوقية ما تهُون بجانبه جميع ملاذّ الدنيا.

وقد أثنى الله -تعالى- على العلماء وجعلهم في مصاف الملائكة، شاهدين لذاته بالوحدانية حيث قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨] كما قال: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وكما ورد مثل هذا كثيرًا في القرآن؛ لذلك نحكم مطمئنين أن العلم الحق أساس التقوى، وأن وصف غير الأتقياء بالعلم وصف باطل بطلانًا ذاتيًا؛ فإنني لا أستطيع أن أقول هذا ضياء مظلم أو أقول هذا هُدىً ضال؛ لأنه من لوازم ماهية العلم حصول التقوى، ومن لوازم ماهية الجهل حصول الضلال وانعدام التقوى. فهذا الأخير دليل جهل لا دليل علم. وقد يكون استبصارٌ ومعرفةٌ مجرَّدين من التأثر والانفعال الوجداني، كما قال تعالى عن جماعة من الذين أهلكهم وكانوا مستبصرين، وسمى هذا الاستبصار علمًا عن طريق المجاز، والذين وقعوا في قبضة الاستهواء فعبدوا الأهواء حتى محا من نفوسهم أثر العلم، كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣] وهذا أثر واضح من آثار الاستهواء[1]. وهكذا

---

(١) البحث في: اتخاذ الإنسان أهواءه آلهة من دون الله تعالى، وعبادة الأهواء شِرْك.

نرى الاستهواء خطيرًا وعميقًا، لا ينجو منه إلا ذو همة عالية ونفس سامية غير مُعبَّدة لشيء ولا لأحد سوى الله تعالى.

وهل ترى أسخف من آثار الاستهواء التي تبدو في جماعة من الناس ينحني كل منهم ليقبِّل يد رجل ذي لحية طويلة وعمامة كبيرة محكمة اللف والدوران، يلتمس منه مددًا ويجعله لله -تعالى- ندًا. ثم يأتي ليدَّعي للناس أنه محبٌ لله تعالى، بينما هو لم يستشعر حبًا إلا لنفسه. وهذا اللون من ألوان الاستهواء الذي يأتي فيه الشيطان عن يمين من يستهويه ليُمْعِن في ضلاله.

والمفهوم أن من اقترف سيئة وهو يعلم أنها سيئة، يكون قد اعترف ضمنًا بالتشريع ويُنتظر له أن يتوب. لكن من يقترف السيئة وهو يظن أنها حسنة فلن يتوب منها؛ لعدم اعترافه بكونها سيئة. وهؤلاء أشد الناس شركًا وأشدهم عذابًا وقد أشار -سبحانه وتعالى- إلى هذا النوع من الحب المشترك وهو قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾ [البقرة: ١٦٥] وقد حكم بشركهم عندما قال بعد هذا النص تمامًا ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] ثم بيَّن سبحانه تبرّؤ المتبوعين الضالّين المُضلِّلين من الذين اتّبعوهم، ممن كانوا ضحايا استهواء الشياطين بقوله سبحانه ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧]. وهكذا حكم -عزت مشيئته- بخلودهم في (جهنم) حكمًا قطعيًا، وقوله تعالى عنهم إنهم «ظلموا» يُراد به أنهم أشركوا إذ جعلوا لله تعالى أندادًا

-والنِّد هو المساوي- وما كان ذلك إلا لأن شركاءهم هم الذين خدعوهم واتخذهم الشيطان أدوات استهواء؛ فوقع الناس -أو بعبارة أصح المؤيدون لهم- في حبائل هذا الاستهواء، وهم يظنون أنهم ما جاءوا بدعًا، ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

ولو أمعنّا النظر في لفظ الاستهواء، لوجدنا السين والتاء للطلب وما بقي من الفعل إلا مجرده وهو الهوى -فيكون معنى الاستهواء هو دفع الضحية إلى اتباع هواه- وعلى هذا انقسم الاستهواء قسمين، مباشر وبالواسطة.

فالمباشر يأتيه الشيطان أو الشياطين بالتنزُّل المنصوص عنه في قوله تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴾ فبهذا الخط يقع التأثير المباشر في أعصاب الضحية، فلا يعبد سوى هواه ولا يتبع إلا ما يرضاه، سواءً أكان في ذلك معصية أو إغضاب لله أو غير ذلك.

أما القسم الثاني وهو الاستهواء بالواسطة، فكما يكون بالدجال المضلِّل الذي يزعُم الاتصال بالله -تعالى- وبأسراره، والاطلاع على الغيب. وإما أن يكون بطريق الغرائز فيثير في ضحاياه الغريزة الجنسية فعلاً، فيفتنه بامرأة قد لا تكون على قسط من الجمال ولكنه يراها مالكة قلبه وسالبة لُبه؛ ومن هنا جاء المثل الشائع إن الحب يُعمِي ويصُم. وهذا القسم الثاني يقع غالبًا للأفراد منذ مطالع سن البلوغ، ثم قد يلازم صاحبه إلى ما وراء الستين. وهو الهوى العارم الذي كلما ازداد الفرد في السن ازداد عنفه، ويسميه الناس عِشقًا وهُيامًا ويكون صاحبه مُولعًا بمن يهوى وُلوعًا يجعله في صَمَم عن نصيحة كل ناصح أو لوم كل لائم. وقد أشار (البوصيري) في البردة بقوله:

يا لائمي في الهوى العذريّ معذرةً   مِنِّـي إليكَ ولـو انصفتَ لـم تَلُـمِ

مَحَّضْتَني النّصْحَ لكنْ لستُ أسمعُهُ   إنَّ المُحِبَّ عن العُذّالِ فِي صَمَمِ

ويزعم الدراويش أنه يعني الحب الإلهي، مع أن الحب الإلهي لا يدعو إلى رفض النصيحة المُمَحّضة -أي الخالصة- فكيف يكون حبًا إلهيًا، مع رفض النصيحة والصمم عن كلمات الناصحين؟! كما قال -تعالى- على لسان أحد المرسلين: ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وقول (البوصيري) يدل على أنه يريد الهوى العذري. وقد قيل إن بني (عُذْرة) أجمل القبائل وإن نساءهم أجمل النساء. وهذا قول لا يُعْتَدُّ به ولا يُعَوَّلُ عليه، وإنما هو يقصد -بالهوى العذريّ- حب العذراوات من الفتيات. فمن تحكَّم في قلبه هوى عذراء فهو ذلك الحب العذري. إذًا فهو إنما يريد وصف الحب المعتاد كشاعر، ولا يريد حب الله تعالى؛ لأن حب الله -تنزَّهت أسماؤُه وصفاته- لا يكون عذريًا بحال من الأحوال. ولكن العرب اعتادوا في شعرهم أن يبدأوا بالغزل والنَّسيب، كما قال (كعب بن زهير) مثلاً، حينما اعتذر إلى النبي ﷺ قصيدته المشهورة اللامية التي مطلعها:

بانـت سـعادُ فقلبـي اليـوم متبُـولُ   مُتَـيَّمٌ إِثْرَهَـا لـم يُفْـدَ مكبـولُ

ومـا سـعادٌ غَداةَ البَيْنِ إذ رحلـوا   إلا نُجَـيْمٌ فضـيضُ الطـرف مكحُـولُ

هيفـاءُ مُقْبِلَـةً عجـزاءُ مُـدْبِرةً   لاَ يُشْـتَكَى قِصَـرٌ فيهـا ولا طـولُ

فهذا طراز من شعر العرب، يفتتح فيه (كعب بن زهير بن أبي سلمى) قصيدته وهو في ختامها يقول:

أُنْبِئْتُ أن رسولَ اللهِ أوعدني والعفوُ عند رسولِ اللهِ مأمولُ

إن الرسولَ لَسَيْفٌ يُستضاءُ به مهندٌ (من سُيُوفِ الهندِ) مسلُولُ

فقال له عليه الصلاة والسلام: «**بل قل -من سيوف الله- يا كعب**» بعد أن عرفه وكشف تنكره ثم عفا عنه، بعد أن قال عليه السلام فيه من قبل: «**من رأى منكم (كعب بن زهير) فليقتله ... فقد أبحتُ دمه**». وكان (كعب) قد هجا أخاه (بُجَيْر بن زهير) عندما أسلم من غير مشورة أخيه (كعب). فلما قدم القصيدة بعد أن ضاقت عليه الأرض بما رحُبت، وكان يدفع دِيَة نفسه كلما حاول الالتجاء إلى أحد، حتى نفِد ماله وساءت حاله. وقد أشار في القصيدة إلى هذا الموقف الأليم:

وقالَ كلُّ خليلٍ كنتُ آملُهُ لاَ أَلْهِيَنّكَ إنِّي عنكَ مشغولُ

فقلتُ خلّوا سبيلِي لا أَبَالَكُمُ فكلُّ ما قدَّرَ الرحمنُ مفعولُ

كلُّ ابنِ أنثى وإن طالت سلامتُهُ يومًا على أَكَةٍ حدباءَ محمولُ

إلى أن قال:

وقد أتيتُ رسولَ اللهِ معتذرًا والعُذْرُ عندَ رسولِ اللهِ مقبولُ

فالحاصل أنه لا يجوز -بتاتًا- استخدام الشعر الغزلي في التوجه إلى الله تعالى. ولا أن يُطلَق عليه -سبحانه- أسماء لم يأتِ بها الإذن من المشرِّع ﷺ. كما يفعل أدعياء التصوف عندما يسمون الله -جل شأنه- باسم (ليلى). وقد زعموا أن (ابن الفارض) قال لربه:

قلبي يحدثُني بأنك متلِفي رُوحِي ... عَرَفْتَ أَوْلَمْ تَعْرِفِ

وهذه جرأة وتهجم على جلال المقام الإلهي الذي بيَّن القرآن ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]. وكان الأجدر أن يقول -بدلاً من عَرفتَ أو تَعرِف بفتح الفاء والتاء- أن يقول عُرِفْت أو لم تُعْرَف، بضمهما. وعلى هذا فلا يزال الخطأ مستقرًا جاثمًا؛ فإن الله تعالى منزَّه عن التلف والإتلاف، كما هو منزَّه عن إحاطة المعرفة البشرية بذاته. وقد جاء في سورة الحج ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٤] وقد قال بعض المحققين في مناجاتهم لله تعالى: «سبحانك اللهم، ما عرفناك حق معرفتك» وأنا أقول إن المعرفة إحاطة بالمعروف، والمعروف هو الله، والله -تعالى- ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٠] فكيف يحيط به سواه. وبهذا تنتفي الإحاطة من الحادث العاجز للقدير القادر.

وكفى بهذا الدليل برهانًا على ما وقع فيه هؤلاء الدراويش، ضحايا استهواء الشياطين من ضلال مبين وابتداع في الأسماء الربَّانية وإلحاد فيها، والله -تعالى- يقول: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠] كذلك يجعلون (الألف والهاء) بين الأسماء، فيقولون -آه- ويكررونها ويتخذونها وِرْدًا دوريًا، ويحسبون أنهم مُهْتَدون، وهم في الضلالة مُوغِلون(١).

---

(١) البحث في: اتخاذ بعض طوائف المشعوذين أورادًا مُبْتَدعة وإيهام مُرِيديهم باتباعها إمعانًا في التضليل المستمر المتصاعد.

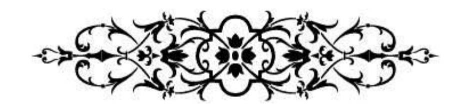
ومن أشدِّ أنواع الاستهواء الغريزي إحداث انتكاس وانقلاب في الاستمتاع الجنسيّ، حين يُصاب الضحية بشذوذ جنسي. وقد يبدأ تدريبه على هذا الداء العُضال على يد من توحى إليهم الشياطين بطمس معالم الحدود الإلهية. وقد تبيَّن في هذا العصر وفي جَهْرة العلم والطب أن قومًا -مَرَدُوا على اللِّواط- يقدمون المريد إلى المشعوذ الدجال في خُلوة، ويأمرونه بالتجرد من سرواله ثم يأمرونه بالسجود والثبات في الامتحان، ثم يُسفِر الأمر عن مادة الامتحان وهي قيام الدجال بانتهاك عِرض المُريد. حتى إذا صبر أعطاه الحق -بعد ذلك التكريس- بمباشرة أية امرأة من نساء إخوانه المريدين، كما ثبت من التحقيق الجنائيّ مع شيخ الطريقة الغرامية.

ولولا أن أحد (الأُمباشية) الذي أراد أن يكون غراميًا، حتى إذا دخل الامتحان ووجد نفسه مهدَّدًا ببلطتين -يحمل كلاً منهما أحد المريدين- ما استطاع أن يسكت، فلما انتهى ذلك الامتحان القذر خرج على التَّو وإخوانه يباركون ويعرضون عليه الاستمتاع بأي واحدة من النسوة المريدات أو زوجات المريدين؛ حيث إنه تم له سريان البركة فيه ولكنه ما كاد يخرج حتى توجه إلى (قسم شرطة مصر الجديدة) حيث أبلغ عن الجناية وأُحيل إلى الكشف الطبي، وبدأت الحكومة تمسك بطرف هذا الحبل الدنس.

واتضح من التحقيقات التي أجراها مركز المنزلة -دقهلية- أن ببلدة (الجمالية) عددًا كبيرًا من الغراميين. ولا حاجة بنا إلى تلويث أقلامنا بشيء أفاضت فيه الصحف وتعقبته جريدة (أخبار اليوم). ومن هذا الحادث انتشر اسم التكريس والمكرسين.

فهل تجد يا أخي استهواءً أقذر من هذا الاستهواء؟! وهل تريد دليلاً أشد فظاعة من رجل يتحدث بأنفه كما تقول الأقاصيص، شخْر ونخْر وسبّ وكُفر. أظن أنك تشعر معي ببالغ الأسف والأسى والحسرة على ما تطوَّح إليه ضحايا الاستهواء إلى هذا الحد.

لا إله إلا أنت سبحانك. حارت في بحار ملكوت علمك العقول فسلكت إليك مسالك. وأنت لا إله إلا أنت الواحد المالك. ومن حاد عن سبيلك هالك. اللهم نجِّ المسلمين من كل سوء أو شطط.



الفصل الرابع:

افتتاحية:

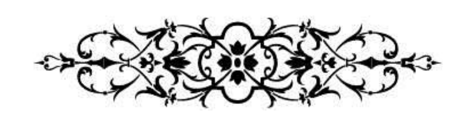
سلامة الفِطْرة خير ضمان لمقاومة الاستهواء بأنواعه

من أجل ذلك رأينا أن العلاج الرُّوحي بالقرآن الكريم -كما يُشفي الصدور، وينقذها من الحيرة والضلالة- يشفي أيضًا النفوس والأجسام من العِلَلِ الطارئة التي تنحرف بالإنسان عن الفطرة، التي هي دين قيّم ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

وفي نور هذا قال (إبراهيم) عليه السلام ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠] لأنه متى استقام القلب بالإيمان، كان نور الإيمان هاديًا للعبد إلى ما فيه صلاح دينه وبدنه، والمؤمن القوي خير وأَحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف؛ للارتباط الثابت بين سلامة العقل وسلامة البدن.

ونور الإيمان هادٍ إلى اتّباع ما يلائم واجتناب ما لا يلائم رُوحيًا وجِسمانيًا، كما يقول تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [يونس: ٩]. مُثْبت من هذا أن العلاج الرُّوحي في القرآن الكريم أمر مُقرّر يجب الإيمان به. وهذا كله لا يتعلق بمنطوق اللفظ ولا نص العبارة، إنما يتعلق بقوة العقيدة وقداسة الروح؛ لأن الأرواح القدسية هي أرواح المُطهّرين، وهي -من ثَمَّ- في نفس الأفق والمستوى اللَّذين تنزَّل بهما القرآن من لدن حكيم عليم. وبهذا تكون الأرواح -أرواح المطهرين- في مقام مقابلة، لا مقام انحراف كما قال (محي الدين بن عربي) في كتابه «الفتوحات المكية».

ومن مجموع ما تقدم يتبين أن في القرآن قوة إيجابية فعالة بذات السر، لا بشكل النص ولا الحرف. وهذا أمر ذوقيّ لا يتسنّى ذوقه إلا للمطهَّرين. وهذا هو المعنى المُراد بالذات لقوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩] وكذلك فإن القرآن لا يشفي إلا الذين يمسونه، ولا يمسه إلا المطهرون. إذًا فإنه لا يُشفَى به إلا المطهرون ولا يحيا به إلا المستبصرون بنوره المستضيئون بهداه ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠] وهؤلاء -هم أنفسهم- الذين لا تفلح معهم خطوط الشياطين التسعة؛ لأنها لا تغلب علمهم ولا سلطان لها عليهم ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ١٠٠].



المبحث الأول:

دسائس التَّلْبِيس

وإذا كنا قد سلَّمنا بأن القرآن نور ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٦] بما يجرى على ألسنة رسله وعباده المؤمنين والصِّديقين من بليغ الإرشاد وحكمة الرأي وزاجر النص وقاطع الحُجَّة؛ للقضاء على ما يقع من التَّلْبِيسات الوهمية التي تُوحِي إلى المستعدين من الناس قليلي المناعة ضعيفي المقاومة من مرض التَّدْلِيس، وهو محاولة الوصول إلى أهواء النفس بتأوُّلات غير قويمة يتأوَّلها صاحب الهوى، ليجعل من ذلك التأوُّل غير القويم سندًا يستند إليه فيما عوَّل من الأهواء عليه، ولنَضْرِبْ لذلك مثلاً:

ذلك أن الله -سبحانه وتعالى- كان يعلم ما تنطوي عليه طبائع أصحاب (موسى) من مطاوعة للشهوات ومتابعة للأهواء، وكان قد أفسد فطرتهم ذلك المرض الوجداني الوبيل المشار إليه في قوله تعالى: ﴿ وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة: ٩٣] أي أنهم آمنوا بالعجل (إيبيس) إيمانًا خالط حُشَاشة قلوبهم وامتزج بدِمائهم، فأراد سبحانه -عندما زعموا أنهم تابوا- أن يَمْتَحِن توبتهم، فأصدر إليهم أمرًا بالامتناع عن أحبِّ شيء إليهم من الأطعمة، وهو الامتناع عن أكل (السمك) يوم السبت امتناعًا باتًّا لا يَقْرَبون البحر خلال مدته كلها. فبدأ التلبيس يصور لهم أنهم يبلُغون ما يريدون من السمك في بقية أيام الأسبوع. وأحاط الله علمًا بما يُبَيِّتُون مما أَوْحَى إليهم وَهْم التلبيس، فكان -سبحانه وتعالى- أشدَّ منهم مكرًا ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ

لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٦٣] فترى السمك يبدو بعضه الأعلى مُغْرِيًا لعيونهم وبطونهم مثيرًا لشهواتهم ولأفضل المآكل عندهم. حتى إذا أصبحوا -يوم الأحد- وجدوا البحر كأنه قد صُفِّي بمِنْخَل من السمك، وهكذا إلى يوم الجمعة. وفي اليوم المُحَرَّمِ يعود إليهم الإغراء، فأَوْحَى التلبيس إليهم تدليسًا جعلهم يصنعون مزالق في جانِبَي الضِّفَّتَيْن ترتهن الأسماك المتدافقة المتكاثرة يوم السبت، فتم لهم ما أرادوا من -اعتقال- الأسماك، ثم أخرجوها من الماء فجر يوم الأحد -في تلك القرية التي كانت ﴿ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾ أي عاصمة الميناء -ولكنهم ما كادوا يتناولون السمك بعد إعداده حتى انقلبوا بالمسخ ﴿ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ فلم يُتِمُّوا أكل السمك إلا بأفواه القردة وأنيابها وصورها، وهم يعلمون أنهم هم من الناحية العقلية -التي لم تتحول بتحوُّل أجسامهم بالمسخ- وكان هذا نَكَالاً شديدًا عَيَّرَهُم به في بقية الأيام بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٦٥-٦٦].

وقد يبدو -لأول وهلة- أن مثل هذا التصرف التلبيسيّ -وما ترتب عليه من التَّدْليس- داخل في نطاق اختصاص الشيطان، ولكني أصارحك بأن الشيطان في مثل هذه الأصول لا يكون (مقدمة هجومية) بل يكون نتيجة لمرض يعترِي القلب. فإن الله سبحانه وتعالى حكم بأن الاستعداد لسوء التصرف وسوء التقدير وسوء النظر يكون بذاته داعيًا لتدخل الشياطين ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦] وكما قال -تعالى- في موضع آخر: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ

وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٥].

والعَشْوُ عن ذكر الرحمن -أي عن كتابه- وتفحُّص حكمته هو مرض بذاته يترتب عليه عَمَهُ البصيرة، حتى يُخَيَّل إلى الشخص أن القبيح حَسَن، وهذا عَرَض من أعراض ذلك المرض، كما قال تعالى محذرًا نساء النبيّ ﷺ : ﴿ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ ﴾ [الأحزاب: ٣٢]. وقال -سبحانه- بالعطف التفسيريّ ﴿ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الأحزاب: ٦٠].

ومما تقدَّم يتبين أن مرض القلب هو المقدمة، وأن وَحْي الشياطين هو النتيجة. فالعمل على تطهير القلب وتجنيبه مواطن الإصابة هو الضمان لطرد الشيطان والقضاء على سلطانه والعمل على هزيمته وانْدِحاره.

وعندك من الأمثلة الأخرى ما يدل على خبث التدليس في الذين يحتالون في مقادير الزَّكَوات المفروضة عليهم، حيث يُخفون ما عندهم، يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ويقدِّمون للرُّسل وجُباة الزكوات أقل مما يجب أن يُدفع.

فأولاً: جاء المسيح -عليه السلام- إلى رجل من بني إسرائيل فسأله: كم عندك الآن من المال؟ فقال الرجل بلسانه: عندي عشرة آلاف، وكان في قلبه يعلم أنه أنقص أربعين ألفًا. فقال له السيد المسيح عليه السلام: إذًا فادخل وائتنا بحق الرب في العشرة آلاف، فدخل الرجل فإذا هو لا يجد سوى العشرة آلاف التي قال عنها، فخرج مهرولاً يقبِّل أقدام المسيح، ويسأله العفو عما بدر منه، ويقدم -من العشرة آلاف- زكاة الخمسين ألفًا. فابتسم السيد المسيح عليه السلام وقال للرجل: عد الآن فستجد الرب قد أعاد إليك ما أخفيت. وهذا ما يشير إلى

قول الله تعالى عن المسيح عليه السلام: ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ ﴾ [آل عمران: ٤٩] فهذا النوع من الشُّح مرض مزمن أصيل، لا دخل للشيطان فيه، ونحن لا نستطيع أن نمسح في وجه الشيطان جميع أخطائنا وجرائمنا. فإنه إن كان الشيطان عدوًا مبينًا للإنسان، إلا أن الإنسان -نفسه- قد يكون أشد عداوة لنفسه من الشيطان الرجيم، وقد تكرر قول الله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ [النحل: ١١٨].

لذلك نرى أن من استطاع أن يُلزم نفسه متابعة روحانية القرآن وملازمة نصوصه والإفادة من نُور هُداه، استطاع بهذا أن يُسْلِم قلبه من الإصابات العَمَهِيَّة التي تصيب القلب وتجعله أشدّ قسوة من الحجارة، فيَحُول الله -سبحانه- بين المرء وبين هذا القلب الميِّت المُتَحجِّر، فيعيش هذا الإنسان من غير قلب ويكون -بذلك- ميتًا موتًا وِجْدانيًا، أشار إليه قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤]. وكذلك يقول في مقام التأييد: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴾ [ق: ٣٧] أي أنه متى كان للإنسان قلب حيّ كان هذا الإنسان قويّ الوعي، ومتى كان قوي الوعي كان حريصًا على ما يسمع قَوِيَّ السَّمْع، ومتى كان قوي السمع تجلَّت له الحقائق كأنما يراها من خلال نافذة، فيكون عليها شهيدًا.

هذا هو سبيل المُصْطَفين الأخيار الذين اجتباهم لمحبته واصطفاهم لمودته فَعَزَمُوا السُّهاد لحق الجهاد، وما ابتدعتُ عليك يا أخي حكمًا ولا اخترعتُ عليك خُطَّة ولكنه -سبحانه- هو الذي قال: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ

جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

فانظر بلطف العقل كيف دعانا لما يحيينا وطلب إلينا الاستجابة لدعوته، وحذَّر بقوله في مقطع الآية ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ ﴾ [الأنفال: ٢٤] إذا هو لم يستجب لدعوة الله لما يحييه، وآثر موت القلب على حياته، وهذا -أعاذنا الله وإياكم منه- هو ما كان يقوله الكافرون عندما يَقْرأ عليهم رسول الله ﷺ آيات الذكر الحكيم وهو كتاب الحق ودعوة الحق ومنهج الحق، كما حكى القرآن نفسه زاده الله نُصُوعًا ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ [فصلت: ٥] وهو اعتراف صريح بأنهم قومٌ موتى القلوب، وهذا أصل أصول الكفر؛ حيث حُجِبُوا عن سَنَا الحق المتألق، ومتى كان القلب -كذلك- في أكنة من دعوة الحق، لَزِم انقطاع قوة السمع بوجود الوَقْر الَّذي اعترفوا به، وبهَذَيْن الموضِعَيْن وقعوا تحت الحجاب كما اعترفوا بأنفسهم.

فإذا كنتُ أريد لك النجاة من مثل هذا الموقف اللعين، والانحياز إلى جانب المؤمنين المُطَهَّرين الذين خَلُصت قلوبهم من الأكِنَّة ولم تكن غُلْفًا، فسلِمت أسماعهم ولم يكونوا من الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣]. هؤلاء هم النماذج السيئة للانحراف عن جادّة الحق والصراط المستقيم. فلا غَرْو أن كانت

حياتهم عِوَجًا ولم يجدوا لهم مما وقعوا فيه -وأحاطت بهم جناياته- مَخْرَجًا. وقد نبَّه -تعالى- لذلك بقوله وقوله الحق: ﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨١].

وما أردتُ لك -بإلهام الله تعالى- إلا أن تكون من أصحاب الجنة وأهلها الذين عاشت قلوبهم مُطَهَّرة من الأهواء والأدناس؛ فشفَّ حجاب الحِسّ فيهم من كل غَيُور كريم أتى الله بقلب سليم، من تلك الأمراض وانحطاط الأغراض. وبسلامته هذه كان جديرًا بجنات النعيم، كما قال تعالى وأَنْعِم به وليًا ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم: ٦٣].

وها نحن قد أَبْرَأْنَا ذِمَّتَنَا من تَبِعَات الكتمان لأهداف القرآن، وأخلصنا النُّصح حِيَال هذا البيان، ووضعنا الأمر على إحدى كِفَّتَيْ الميزان وهكذا ﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٤] وأرسلنا الأضواء على أمثلة من دسائس الشيطان وذريته وأوليائه، ومداخلهم من تسعة خطوط؛ حتى لا تقع نفسٌ فريسةَ واحد منها، وألا تَغْفَل سريرة من السَّرائر النقيَّة عنها.

فَمَا ثَمَّ إلاَّ أَنْ تَكُونَ عَلَى هُدىً ... مِنَ الأَمْرِ أو نَحْوَ الضَّلاَلَةِ سَاعِيَا

فَكُنْ كَيْفَ شَاءَتْ نَفْسُكَ اليَوْمَ ... جَهْرَةً وَكُنْ لِلْهُدَى أَوْ لِلضَّلاَلَةِ دَاعِيَا

فإنك لن تكون بِدْعًا من كَفَرَةِ الغابرين ولا أوَّل من انحاز إلى مصافِّ الغادرين ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٩].

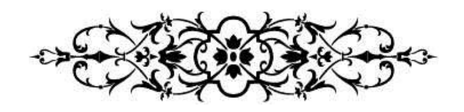
وأذكر لك -يا أخي- غِنَى الله عن طاعتنا -سبحانه وتعالى- وعُلاه عن معصيتنا، وما منا -بالنسبة إلى سبيله- إلا من هو إما من المُقبِلين وإما من المُدْبِرين وقد قال تعالى: ﴿ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧٠].

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُفْرَدًا أَحَدًا عَمَّا يَقُولُ ضَعِيفُ الْعَقْلِ وَالدِّينِ

مَهْمَا يَكُنْ أَمْرُهُ فَالْمَوتُ آخِرُهُ وَنَشْأَةُ النَّاسِ بَيْنَ الْكَافِ وَالنُّونِ

يَوْمَ القِيَامَةِ خَلْفَ السِّتْرِ مَرْجِعُهُ كَمَا تَقَرَّرَ فِي حَزْمٍ وَتَمْكِينِ

أو كما قال -جل شأنه- موجهًا أمره إلى النبي ﷺ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٤٦].



المبحث الثاني:

الكُفْر وكَثَافة الْحِجَاب

ومما لا شك فيه أن الكفر بالحقائق الثابتة إنما يترتب على كثافة حجاب النفس، تلك الكثافة السَّمِيكة التي تَعْمَهُ بها البصائر وتعمي القلوب ويختلط الحابل بالنابل، ويُصبِح الرجل مؤمنًا ويُمْسي كافرًا ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠] وبهذا يعيش الرجل سَطْحيًّا، لا نفاذ لبصره إلى الحقائق ولا تعمُّق في مشاهداته، لا يراها إلا مظاهر مُلَوَّنة مُصَوَّرة، ثم لا شأن له بعد بعد ذلك فيمن لَوَّنها أو صَوَّرها ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ .

ولقد انتهزت الشياطين أولئك السطحيين فرصة للتضليل، واتخذتهم سوقًا نافقة -رابحة- لترويج الأكاذيب والأخاديع. كمَثَل أولئك الذين لا حظَّ لهم في القرآن وهم يتلُونه على غير حق تلاوته ولا يعدُو -في أنظارهم- أن يكون حروفًا وأصواتًا ومقاطع وفواصل وأوراقًا تحمل بالموادّ صُوَر الأحرُف، ثم لا شأن لهم بعد ذلك بالمعاني السامية والحِكَم البالغة والنِّعم السابغة والأنوار الكشّافة والآياتِ الشافية لِمَا في الصدور. ولئن سألتهم -في الغالب- عن معنى ما يقرأون لوجدتَهُم يُحِيلونك على كتب التفاسير، وهم لا يعلمون أنهم -بهذه الإحالة- قد حكموا على أنفسهم بالسطحية، وهي التي نصّ عليها قوله سبحانه في سورة الأنعام: ﴿ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٧].

ومن هؤلاء المُطَوِّفُونَ بالأحجار والنُّصُب والأبنية والأَضْرِحة، زاعمين أنهم بذلك يلتمسون البركة من أصحابها؛ ظنًّا منهم أن أولياء الله وأحبّاءه

سُجَناء في الأرض، لم يرتفعوا مع كتبهم إلى عِلِّيين. وعملهم هذا تكذيب صريح لمجموع من نصوص القرآن، نورده -بإذن الله- تِبَاعًا.

وأقرب نص هو ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴾ [المطففين: ١٨] إلخ الآيات، على أننا لو فرضنا أن هؤلاء الموتى الذين يستعين بهم الأحياء ما زالوا على قيد الحياة، فإنه لا قدرة لهم على إمداد هؤلاء الطالبين المستعينين بشيء من مطالبهم. فما بالنا وهم موتى لا يسمعون نداءً ولا يُلَبُّون دعاء، كما يتبين من صراحة النصوص في قوله تعالى: ﴿ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٤] وكذلك قوله تعالى بهذا الشأن نفسه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَـٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٤] إلخ الآيات التالية، ثم قوله تعالى ضاربًا مَثَلَهُم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـًٔا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٣-٧٤].

وقد أشار سبحانه إلى وجوب رعاية الوحدانية في الدعاء والاستعانة حين قال تعالى: ﴿ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَىۡءٌ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ ﴾ [فاطر: ١٨] فضلاً عن قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَسۡتَوِى ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُۚ ﴾ [فاطر: ٢٢] وقوله جل شأنه: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٍ مَّن فِى ٱلۡقُبُورِ ﴾ [فاطر: ٢٢]، ومثله: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ [النمل: ٣٠]. وغير هذا من النصوص الدالة -دلالة قاطعة- على أن الاستعانة أو القَسَم بغير الله شِرْك جليّ، كذلك النَّذْر

لغير الله شرك واضح، وقد صدرت فتوى منذ حين نشرتها الصحف بعناوين عريضة وهي أن زيارة الأضرحة شرك، وأموال الصناديق سُحْت. وهي صادرة من فضيلة مفتي الديار المصرية، كما نشرتها إحدى مجلات دار الهلال.

وفضلاً عن ذلك، أصدرت وزارة الأوقاف منذ خمس سنين كُتَيِّبًا منشورًا عنوانه «تقاليد يجب أن تَزُول» بَيَّنت فيه بالنصوص الناطقة وصحيح السُّنة ما يغمُر البلاد من شِرْك جليّ وامتهان لكرامة الإنسانية، وتعبيد الناس للناس وتأليه الناس على الناس، حتى ليقف الحيّ متوسلاً إلى الميت، متسولاً لديه يسأله ألف مدد ومدد، ثم يطُوف حول بناء مُربَّع مرتفع سامق -كما يطوف تمامًا حول الكعبة- تاليًا بعض الأدعية الإسرائيلية سائلاً الميت المعونة يوم القيامة والوسيلة إلى الله والشفاعة بين يديه، ويسأله أن يغفر له ذنوبه -كأنه إله- ويَنْشُر ذكره ويُنْشِد مدحه في كل صَقْع ونادٍ ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥].

فإذا سَمِع اسم الله تعالى لم تتحرك فيه شعرة، وإذا ذُكر الشيخ صاحب الطريقة أو الضَّريح أو صاحبهما معًا.. قفز من الأرض صارخًا صادق الحال باسطًا يديه «المدد يا عمّ».

وهكذا يعيش السَّطحيون على غير عُمْق، وشتَّان بين هؤلاء القُشُورِيِّين الغافلين وبين أولئك المؤمنين الذين يحبون بعمق الإيمان ﴿ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ ﴾ [يونس: ٩] ما نظروا نظرة إلى مشهد -مهما يكن شأنه- إلا كانت عبادة صافية عميقة التأمُّل بروح سارية بين ذرات الأشياء وتضاعيف

الارتفاقات بين الحيوان والنبات.

حقًا شتَّان بينهما؛ حيث لا يستويان مثلاً.

سَارَتْ مُشَرِّقَةً وَسِرْتُ مُغَرِّبًا   شَتَّانَ بَيْنَ مُشَرِّقٍ وَمُغَرِّبِ

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧].

فعلى كِفَّتي هذا الميزان يثبت أمر التقدير للحقيقة الإنسانية، تلك الحقيقة المشتركة بين أفراد النوع الإنساني قاطبة. فمنهم ثابت الدعائم بعيد امتداد الجذور في تُخُوم الأرض، يستمِدُّها بالامتصاص المنتظم من القوة والنماء والازدهار. وكُلَّما امتدت جذوره في التخوم ازداد ثباتًا وثُبوتًا ورِفْعة وسُموًا؛ فتتوارد على نفسه كل حين واردات من التنزُّلات الإلهية والتجلِّيات القدسية في أنوار القرآن وأسرار البيان.

هذا ومنهم من كان عديم التعمُّق قريب الغور[1] لا تسنده جذور في رفعته ولا يقوم على أصول في نزعته. فإذا ما ارتفع على غير جذور مُجْتَثًّا من فوق الأرض ما له من قرار؛ لحرمانه من التنزُّل الثابت في الحياة الدنيا، وهذا القول الثابت إنما يتعلَّق بالحقائق الثابتة، ومتى انفكَّت عُرْوة الصلة بينه وبين عوامل الثبات فقد استقراره وزايلته السكينة وجانبته الطمأنينة ﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴾ [الحج: ٣١].

---

(١) الغور: العُمْق.

المبحث الثالث:

الطَّواف بالأحجار بعد رسالة التوحيد

فكيف تَطُوف بالأحجار عمدًا وأنت تعلم أن زمن الطواف بالأحجار قد انتهى، وأن الذي تناديه -سواء كان حيًا أو ميتًا- ليس محلاً للاستجابة والالتجاء والتوسُّل بذاته إلى الله تعالى، فقد نقل رجال الصِّحَاح مرفوعًا عن (عبد الله بن عبَّاس) رضي الله عنهما قال: كُنْتُ رديف النبيّ ﷺ ذات يوم فقلت له: عِظْني يا رسول الله، فقال ﷺ : «**يا بُنَيَّ اتَّقِ الله تَجِدْهُ تجاهك وإذا سألتَ فاسأل الله وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله، واعلم أن الناس لو اجتمعوا على أن ينفعُوك فلن ينفعوك إلا بشيء قد قَسَمَهُ الله لك، وأن الناس لو اجتمعوا على أن يَضُرُّوك فلن يَضُرُّوك إلا بشيء قد قَدَره الله عليك. طُوِيت الصحف وجفَّت الأقلام وفَرغ ربنا مما كان وما يكون**».

وقد نُودِي ﷺ في القرآن بصيغة الأمر: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقد قضى سبحانه وتعالى بأن ﴿ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٢] وهذا الحكم العدل يقتضي سعة علمه ﴿ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ ﴾ [الرعد: ٤١] فإذا ما اتخذتَ سواه وليًا لك فأنت وليّ لذلك الذي اتخذت. فما هي قدرة وليك؟ وما هي آثار علمه أو حكمته؟ إنك لن تجد شيئًا من ذلك ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ۝٩٤ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا ﴾ [مريم: ٩٣-٩٥].

وسيظهر لك هذا ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل: ١١١] حيث ﴿ لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ ﴾ [لقمان: ٣٣].

وفي القرآن الكريم مئات الآيات الدالة على وحدانيته -سبحانه وتعالى- في الخَلْق والأمر، كما يقول عزَّت ذاته: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ويقول: ﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ [هود: ١٢٣]، وأمثال ذلك، مثل قوله: ﴿ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٣].

فبعزته عليك وبرسالته إليك إلى أيِّ اتِّجاه سِوَاه يتجه قلبك وتمتد يد استعانتك، وهو يتحدَّاك بقوله: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً ﴾ [الإسراء: ٥٦]، وقد نبه: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ ﴾ [يونس: ١٠٧].

كما أنه -جلَّ شأنه- قال بصيغة التَّأْنِيب: ﴿ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلاً ﴾ [الكهف: ١٠٢]، ولو أنهم اتخذوا الملائكة لكفاهم أن يسمعوا قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

وهذا كله يا أخي من جنايات هؤلاء السَّطحيين القُشوريين الذين لو مسُّوا القرآن حق المسّ وتَلَوْهُ حق تلاوته لكفَّ أيديهم عن التسوُّل من هؤلاء الموتى والتوسُّل بهم إلى المولى، الذي لا بد أن يأتي اليوم الذي فيه يعمُّ الصمت

المُطْبقُ جميع العباد ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه: ١٠٨] وما من وجه من الوجوه إلا وهو عانٍ خاضع الرأس أمام عظمة الله، كما يقول سبحانه ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: ١١١] والظلم هنا الشِّرك؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣].

وبهذا يتبيَّن كيف أن القرآن الذي أنزله الرحمن ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦] أي من هؤلاء السَّطحيين المخالفين ﴿ وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ ﴾ من أولئك المتعمِّقين المتذوقين المتجاوبين بمشاعرهم مع شعائر الله ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧] لأنهم -بما أصابهم من العَمَى- لم يَشْهَدُوا ذلك النور الذي تجلَّى لهم منذ الأزل وهم بعدُ أرواح مجرَّدة، قائلاً لهم ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فلمَّا آتاهُمْ أجسامهم وابتلاهم بالدنيا وهُمومها والأوهام وغُمومها والشياطين وسُمُومها، لم يَثْبُتْ سوى المتعمِّقين وزَلَّت -من دونهم- أقدام المتكبِّرين الذين نقضُوا هذا العهد ونسوا الذي تجلَّى لهم وشهدوا له. نسوه نسيانًا طوَّح بهم في متائه الضلالة وزجَّ بهم في أعماق الشرك والجهالة فلم يكونوا لائقين لمحبته ولا جديرين باصطفائه، وتهاوى بهم الضلال البعيد في الظلم العميق ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

أيها الإنسان:

فِـيمَ الطّـوَافُ بأحجـارٍ مزخرفـةٍ ... والله أقـربُ لِلشّـاكِي مِـنَ الشّـاكِي

ألا تـذكرتَ ذكـرَ اللهِ فـي سَـحَرٍ ... وسِجْدَةَ الخاضعِ المُسْتَرْحِمِ البَاكِي

وما يَفيضُ من النورِ المبينِ بهَا ... علـى المُنِيبـين فـي أثـوابِ نُسَّـاكِ

يا نفحةَ الطَيبِ من رضوانِ بارئِـهِ ... جُودِى عَلَى العَبْدِ إحسانًا بِرِيَّاكِ

حَاقَتْ بِـهِ حَسَراتُ الصَّدِّ فـانْفَطَرتْ ... منـهُ الحُشَاشَـةَ مـاذا عَنْـهُ أغفـاكِ

عُـودِي إليـهِ بنـورِ الـذكرياتِ هُـدىً ... لـولاكِ مـا نَالـهُ الإحسـانُ لـولاكِ

وأدركيـهِ فقـدْ ضـاقت مَذَاهِبُـهُ ... وَبَـاتَ مَرْقَـدُهُ مـن فـوقِ أَشْـوَاكِ

مـا زالَ يـؤمنُ بالتوحيـدِ معتقـدًا ... ولا يميـلُ إلـى إثـمٍ وإشـراكِ

حقًا إن نعمة التوحيد مَنَعة، ونظرة التفريد لَمْعة صدرت من جانب الرفيق الأعلى الذي هو بكل موحد أحقُّ وأولَى.

أما أنت -أيها الحائر المسكين- فالطريق أمامك مستقيم والمنهاج قويم والله بكل شيء عليم، ولا بد لك من رعاية عهده وذواقة وِرْده والصبر على صِعَابه وسُهْده؛ لأن هذا هو مهر الحُور العين في فراديس التكريم: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

ولعَمْرُك الله ما هي سلامة القلب؟ ومن أي شيء تكُون؟ إنها السلامة من المرض، وقد بيَّن الحبيب سبحانه أن المنافقين في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضًا ولا حقَّق لهم غرضًا؛ لأنهم كانوا سببًا -بأهوائهم- في مرض قلوبهم، كذلك قال الله تعالى عمَّن في قلبه مرض ﴿ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ لأنه غلبت عليه شِقْوَته وقهرتْه نَزْوته وبدت -بينه وبين آيات الله- جَفْوته، وهو

تعالى يقول: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وما كان هواه إلا سطحيًا مثله، فهو متعلِّق بمأكل أو مشرب أو ملبس أو مسكن أو موطئ، ولا نصيب له في الهدى الذي هو مُحَارِبٌ للهوى، وكما قال تعالى لـ(داود): ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص: ٢٦] فإذا كان الهَوَى يملك قوة تهاجم الأنبياء وتحاول إضلالهم، فما من مُنَزَّه عن اتباع الهوى سوى الله وحده الذي يَسْجُد الهوى بين يديه خاضعًا ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون: ٧١] وهؤلاء السطحيون عُبَّاد أهوائهم دائمًا، فأهواؤهم صارت آلهة لهم كما أشار سبحانه ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٣] حَجَبت عنه أنوار التجليات وحالت بينه وبين مشاهد الآيات، فهو سطحيّ يسمع من الآيات سُطوحها ولا يمسُّ معانيها، ويرى من المقابر صُورَها ولا يُوقِن بما فيها مع علمه بذلك. أي أنه يعلم أن القبور لا تحوي في الأرض إلا الرُّفات التي سَمَّاها رسول الله ﷺ كذلك في قوله: «**اللَّهُمَّ ربَّ هذه الأجسادِ الباليةِ والعظامِ النَّخِرَةِ الَّتي خرجَ أصحابُها من الدنيا وهم بك مؤمنون، أَبْلِغْ أرواحَ الصالحين منهم تحيةً وسلامًا، وأَلْحِقْنا بهم في جنَّات النعيم، سألتُ الله لنا ولهم العافية**».

هذا ما كان يقوله ﷺ عندما يمرُّ بقبور الأرض، فانظر إلى همته وترفُّعه عن السطحيات وسُمُوّه إلى درجة الرُّوحانيات وحكمه بأن أصحاب الأجساد البالية في القبور قد خرجوا من الدنيا مؤمنين طوعًا أو كَرْهًا؛ لأن الموت هو

اليقين كما قال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩]. ثم انظر كيف اختصّ المؤمنين منهم بالتحية والسلام، ثم انظر كيف رأت بصيرته نعيم الحياة البرزخية، فسأل الله لهم القوة لزيادة فيض النعيم على أرواحهم. وقد بيَّنت ذلك المقام آيات الواقعة ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ [الواقعة: ٨٨] أي المُحْتَضَر الذي بلغت روحه الحُلقوم، وهو في حالة تقرير المصير إن كان من المُقَرَّبين، فالحياة التي ستستقبله بَرْزَخيًا هي ﴿ فَرَوۡحٌ وَرَيۡحَانٌ ﴾ حتى يُنْفَخ في الصور فتستقبله الملائكة بالبشرى الكبرى ﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾.

وبالآية تعيَّنت البرزخية الرُّوحية، وهي وَسَط بين الدنيا والآخرة.

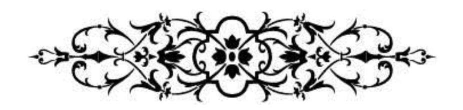
ويقابل هذا البرزخ -الذي هو للمؤمنين- روضة من رياض الجنة فيها ﴿ فَرَوۡحٌ وَرَيۡحَانٌ ﴾ وفضل وامتنان.

وعلى نقيض ذلك ما بيَّنه -سبحانه- بعد ذكر أهل اليمين، وهم الذين خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا؛ فهبط بهم عن مرتبة المقربين ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنۡ حَمِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٩٢-٩٣] وهو برزخه في حُفرة من حفر (جهنَّم) ﴿ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ في الآخرة.

وما أحسن قوله -تعالى- لقطع دابر الشك ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الواقعة: ٩٥-٩٦].

سبحانك الله تُضِلُّ من تشاء وتهدي من تشاء، تعالت ذاتك عن سَفَه السُّفهاء وسِمَات المُحْدَثات وصفات الفانيات. أنت -سبحانك- فوق ما يهرِفُون بما لا يعرفون ﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: ١٨٠] اللَّهم هَبْ أرواحنا من لدُنْك مَرَدًّا قُدْسِيًّا وبصيرة نفَّاذة خلال الارتفاقات وحُجُب

الكثافاتِ؛ حتى لا تُحْجَب بصائِرُنا عن بصائر آياتك، وإنَّ رحمتك بنا لَتُوحِي إلينا أن نطمع في استجابتك لنا وإلهامنا الاستجابة لك؛ حياةً منك وروحًا من لدُنْك إنك أنت أرحم الراحمين.



الفصل الخامس:

افتتاحية:

صفات المدعُوّ وخصائص الدُّعاء وأدب الدَّاعِي

من المُسَلَّمات أن الله -تعالى- بكل شيء محيط، وأنه مُنزَّه عن المسافة والبُعد؛ لأن المسافات والأبعاد من شأن الكميات ذوات الأبعاد الثلاثة: الطول والعرض والعمق.

فلما كان -سبحانه- مُنزَّهًا عن الجِسمية قطعًا، لزم من ذلك تنزُّهه وترفُّعه عن الجهة والنسبة والقرب والبعد. فهو إذًا سارٍ بأسرار ذاته، وصفة الحياة في كل كائن حيّ، لا استقلال له عنه ولا قيام له بسواه. ومن ثَمَّ يكون دعاء الداعي لمن هذه صفته مُمَثَّلاً في حالٍ تقوم بالنفس سواءً عبَّرت عنه النفس باللفظ والعبارة أو دامت في النفس مُسْتَكِنة. فهي على كل حال من كلمات النفس وقول الضمير، ومتى كان المدعوُّ أقرب إلى الداعي من حبل الوريد ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق: ١٦] فيكفي قيام الدعاء بالنفس وتوجُّه الضمير به إلى بارئه دون حاجة إلى الإبداء والإعلان ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ ﴾ [الرعد: ١٠]، ﴿ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الملك: ١٣]. وبهذا يكون للنفس نداؤها لمولاها والتجاؤها لباريها، وقد بيَّن سبحانه عن (يونس) عليه السلام: ﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧-٨٨].

إذًا فأدب الداعي يجب أن يكون ملائمًا لصفات المَدعُوّ، كما يجب أن

يكون الدعاء في حال عبادة؛ لقوله ﷺ : «**الدُّعاءُ مخُّ العبادة**». ومتى سُمِّي التجاء النفس نداء، فقد علمنا ما هي مساري صفة السمع الإلهي الأعلى وترفَّعنا بها عن مستوى سمع الخَلْق. فعلامَ إذًا رفع العقائر ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١].

والدعاء يُقَيَّد بالمعلوم للإنسان، فإذا دعا بما لا يعلم فدعاؤه باطل وسؤاله جاهل. وقد عُوقب في ذلك (نوح) عليه السلام عندما طلب إلى ربه إعادة النظر في مصرع ولده الأكبر، فكان التأديب الإلهيّ له في قوله جل شأنه: ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦] الذين يجهلون مساري صفة العلم الإلهي، وبادر (نوح) بالاعتذار عندما قال: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [هود: ٤٧]. ودلّ هذا دِلالةً قاطعة لحُجَّة كل مكابر، على أن سؤال الله -سبحانه- يجب أن يكون في نطاق ما يعلمه العبد عند نفسه وذريته ومكانه، كما قال خليل الله عليه الصلاة والسلام: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧] ثم قرر إحاطة علم العليم بأحوال الداعين فقال: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٨] ومع ذلك عاد للتخصيص فقال: ﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٤٠]، ثم ذكر أهم المطالب عندما قال: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ ﴾ [إبراهيم: ٤١] وسرت الرحمة في نفسه فانفعل بها،

عندما قال: ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ .

فما بالنا نسمع قومًا يحشرون أنوفهم في سابق القَدَر الإلهي ويسألون الله ما لا علم لهم به، وهذا يعتبر جريمة تنذر فاعلها بالخسران كما قال (نوح) عليه السلام. فهؤلاء الدجاجلة صنعوا كلامًا من الهُراء يسمونه (دعاء نصف شعبان) فهو يبدأ بإجراء حكم الزمان على الله سبحانه حيث يقول: اللهم إن كنت كتبتَني عندك في أمّ الكتاب شقيًّا أو محرومًا أو مطرودًا أو مُقْتَرًا عليَّ في الرزق.

فإنه بعد أن أجرى حكم الزمان بقوله (إن كنت) وإن تفيد الشك والاحتمال، فهو يشك إن كان الله -تعالت ذاته وتجلت قدرته- كتبه شقيًا أم سعيدًا. فعلى فرض أنه كتبه شقيًا فيما مضى، فهو يسأله الآن أن يعدِل عما قرره فيما مضى وهذه جَرْأة على الله سبحانه؛ لأنه إذا كتبه شقيًا فإنما هو يعلم المقدمات التي أنتجت شقاءه، فما كتبه إلا صدقًا وعدلاً ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٥].

ولو كان يعلم أنه سيمحو ما كتب لكان الأَوْلى ألا يكتب؛ لأن الكتابة مع العلم بالمحو المُنتظر هو ضرب من العبث، والله تعالى منزَّه فما كتب إلا ما علم، وما علم إلا بالحق، ولكن الكاتب الإسرائيليّ لا يعلم شيئًا عن أصول التوحيد، فاندفع يصف الله تعالى بالتَّقْتِير[1] والحرمان وهي -بالذات- كلمة اليهود في قوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ ﴾ [المائدة: ٦٤].

---

(١) التقتير: الشُّح والبُخْل.

فهذا الداعي المُلْحد يزعم أن الله -تعالى- تَحوّل عما كان عليه من قبل، فكأنما قال إذا كنت يا رب -فيما مضى- قد تورطت فسجَّلتني في سجل الأشقياء المحرومين المطرودين فامحُ ذلك وبدِّله بناءً على طلبي، وأثبتني -وها هو كتابي بين يديك، عندك في أمِّ الكتاب- سعيدًا موفَّقاً مرزوقاً. وكأنما خلق الله خلقًا ولم يرزقهم وهو إمعان في الجريمة، ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦][1].

ولكن أنَّى للإسرائيليّ أن يعلم علم القرآن أو أن يفهم روح الكتاب المكنون، وقد سجَّل على نفسه في هذا الدعاء ﴿ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴾ [الرعد: ١٤] إحدى جريمتين، فإما الجهل وإما تعمُّد التحريف وهو كفر صُراح؛ حيث إنه قال: إلهي بالتجلي الأعظم في ليلة النصف من شهر شعبان المكرم، التي يُفْرَق فيها كل أمر حكيم ويُبْرَم.

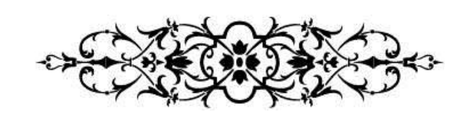
فقوله (التي يفرق فيها كل أمر حكيم) لأنها ليلة القدر بالنص وهي في أواخر شهر رمضان لا في نصف شعبان، والقرآن صريح في سورة الدخان: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: ٣-٤] ومعنى يُفرق: يُفصل فيه ويحدد ويقدر ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨] ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا

(١) كما قال تعالى وقوله الحق: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٦٠].

يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢]. فهذا هو الفرق في كل أمر حكيم، ونص سورة القدر يُظاهِر هذا النص ويؤيده ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر: ٤] فكيف جعلها نصف شعبان؟ ثم هو من السابقين والقارئين قبل ذلك بقوله (إلهي بالتجلي الأعظم) فهل يوجد تجلٍ أعظم من ليلة القدر؟ أم هو يريد صرف أذهان الناس عن ليلة القدر ومزاياها؟! فهو -لذلك- إما جهُول وهذه جريمة؛ لأنه جهُول يقول، وإما أنه تعمد الخلط والتحريف وهذه أشدُّ جرمًا، كما يقول الشاعر:

إنْ كُنْتَ لاَ تَدْرِي فتلكَ مصيبةٌ وإنْ كنتَ تدري فالمصيبةُ أعظمُ

كل هذا يا أخي من السطحية والشكلية التي غرق فيها أهل هذا العصر، إلا من رحم الله، فالقرآن -عندهم- لا عمق له بل هو ظواهر لفظية وعبارات سطحية وقشور خارجية؛ ومن أجل ذلك خَرُّوا على آيات الله -تعالى- صُمًّا وَعُمْيَانا.



المبحث الأول:

الإسرائيليَّات، واعتبارها أورادًا دوريَّة عند بعض المسلمين

وهذه السطحية بذاتها هي التي جعلتهم مخدوعين لشَقْشَقَات الألفاظ غير متأمّلين في معانيها، كما تراه واضحًا في الدعوات المنسوبة إلى (ابن بَشِيش) ولا ندري من هو هذا الابن بشيش! ويسمُّون هذه الدعوات بالوظيفية ويأتون بعدها بأكثر جرمًا من الأولى ويسمونها بالياقُوتيّة. وسنعرض عليك -بإذن الله تعالى- ما تحويه هذه الكلمات من كفر وزندقة وإلحاد، أعاذنا الله وإياك والمؤمنين من شروره.

والوظيفية يتعاونها رجلان، وسنضع أقوال الرجل الثاني بين أقواس فأولها كما يأتي: (اللهمَّ صلِّ وسلم بجميع الشئون في الظهور والبُطون على مَنْ مِنْهُ انشقَّت الأسرار الكامنة في ذاته العلية ظهورًا، وانْفَلَقَت الأنوار المنطوية في سماء صفاته السنية بدُورًا، وفيه ارتقت الحقائق منهُ إليه، وتنزّلت علوم (آدم) به فيه عليه) هذا الإيراد لابن بشيش وهو الثاني، أما سابقه -الذي لا نعلم هويته على وجه التحقيق كصاحبه هذا، فلا يدرى التاريخ شيئًا عنهما من ميلاد أو نشأة أو بلد أو قبر- فالأول يقول كما يأتي:

اللهمَّ صلِّ على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار، وفيه ارتقت الحقائق، وتنزّلت علوم (آدم) فأعجز الخلائق.

وتركيب الثاني على هذا الوضع:

(فأعجز الخلائق فَهْم ما أُودِع من السرِّ فيه، وله تضاءلت الفُهوم وكلٌّ عجزُه يكفيه، فذلك السر المصُون لم يدركه مِنَّا سابق في وجوده، ولا يبلُغه لاحق على سوابق شُهوده). وإلى غير ذلك من تلك الثَّرثرات والشقشقات اللفظية التي تَدْوِي كالطبل وهي فارغة جَوْفاء.

فأما ناحية الكفر فيها، فإنها تُسْنِد الصفات الإلهية الخاصة بالذات العليَّة إلى الرسول ﷺ وهو الذي يُؤْمَر في القرآن ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ [الكهف: ١١٠] والوحي روحيّ تمتاز به روحه، والجسد مثل جميع الأجساد بالنص. بينما هؤلاء الدجاجلة الزنادقة يجعلون ذاته من الغموض كأنما هي ذات الله، ويجعلون ذاته العليّة ﴿ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤٣].

والأدهَى من هذا كله والأوغل في الزندقة قولهم فيما يأتي: فأَعْظِمْ به من نبيٍّ رياض المُلك والمَلَكُوت، زهرات جماله الزّاهر مُورِقة، وحِيَاض معالم الجبرُوت بفيْض أنوار سرِّه الباهر متدفقة. ولا شيء إلا وهو به مَنُوط وبسره الساري مَحُوط، إذ لولا الواسطة في كل صعود وهبوط لذهب -كما قيل- الوُسُوط.

ولا يمكن لعاقل أن يسلِّم بالمعنى المفهوم أولاً من انشقاق الأسرار وانفلاق الأنوار ولا فيض حياض الجبروت؛ لأن النبي ﷺ كما نُودِيَ في الكتاب المبين ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فما معنى تدفُّق حياض الجبروت الذي يقف مُضادًّا للرحموت؟! ثم ما معنى كونه مَنُوطًا بكل شيء؟ ومن الأشياء (جَهنّم) والنجاسات والأدناس والخنازير والكفار والحشرات؟! فما معنى كونه ﷺ منُوطًا بكل هذا؟ أو محُوطًا بأسراره؟! ومن

الذي أنبأهم عن الأسرار فعلموا أنه محوط بها؟!

فلم يبقَ إلا أنه كلام مرصُوص وسجع مقصود لا ينطوي على معنى يمكن أن يستقر عليه الفهم، مثل اصطلاح (حياض معالم الجَبَرُوت) فما هي تلك الحياض؟ وما هي معالم الجبروت؟ وكيف تتدفق من رؤوف رحيم يناديه ربه ﴿ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٍۖ ﴾ [ق: ٤٥] فهل هنا تمييز لمعاني هذه الألفاظ؟!

وأشد من هذا غرابة، متابعة الياقوتية في الوظيفية البشيشية حيث تبدأ هي الأخرى بقولهم:

اللَّهُمَّ صلِّ على من جعلته مجلَى لانشقاق أسرارك الجبروتية وانفلاقًا لأنوارك الرحمانية، فصار نائبًا عن الحضرة الربّانية. فهو ياقوتة أَحَدِيَّةِ ذاتك الصَّمدية، وعين مظهر صفاتك الأزلية، فبك منك صار حجابًا عنك -ثم تُوغِل الياقوتية بعد ذلك في طمطمانيَّاتها حتى تقول عن النبي ﷺ بأنه- الغيهُوبة المُنْتَخَب منها مكنُوناتك.

يخاطبون الذات الإلهية بمثل هذه العبارات الجوفاء التي تدوي كالطَّبْل فتقرَع الآذان وتَصُكّ الأسماع بما لا تستطيع قوة التصوُّر والإدراك أن تعْقِل له معنى أو تَعِيَ له مغزى.

وهذا هو لهو الحديث الذي نَصَّتْ عليه الآية الكريمة: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ [لقمان: ٦].

وهكذا يتبيّن -من غير محل لجدال أو مكابرة- ما تقوم به هذه الطوائف من عمليات التضليل والإغواء وتدريب الناس على مُجافاة كتابهم المُقدَّس، بما يملأون به أوقاتهم ورؤوسهم من هذه الكلمات الجوفاء، التي هي إلحاد في الآيات وإمعان في السيئات تحت ستار الدين والتزمُّل بلباس التقوى؛ ليصرفوهم عن كتاب الله تعالى متكبِّرين عليه مُغْرَمين بتلك الألفاظ المرصوصة والتناقضات المنصوصة وابتكار تراكيب إلحادية، يعلمها الله سبحانه كما يقول جلّ شأنه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ ﴾ [فصلت: ٤٠] ويقول تعالت قدرته واتسع علمه: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ولا نريد أن نتابع هُراء الوظيفية والياقوتية وحزب البر وحزب البحر والبُرْهنية والجَلْجَلُوتيّة ... إلخ؛ لأن ذلك متابعة لهُراء إسرائيليّ مدسُوس على المسلمين بغرض صرفهم عمدًا عن كِتَابهم، كقولهم في (دلائل الخيرات من الشعر):

وواظِب عليها في الصباح وفي المساء، أي اجعلها ورْدَك المورود وهدفك المنشود ولا تَبْرَحْها، كأنها صلواتك.

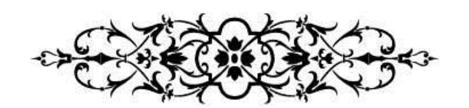
وقد قال الله تعالى: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [هود: ١١٤-١١٥].

أي وربك إنهم جعلوا تلك الأقاويل الإلحادية والخُزَعْبَلات البهلوانية صلاة موقوتة لمُرِيديهم من الغاوين، فهي -من ثَمَّ- غير جديرة بشرف المناقشة وكرامة التحليل والبحث العلمي؛ لأن مُواء الهِرّة وثُوَاج الكبش ونأيم البُوم ونعيب الغُراب وفحيح الأفاعِي وخُوار البقر، كل ذلك يعدّ تسبيحًا فطريًا سليمًا من ناحية عبادة الله تعالى وهؤلاء يُلْقُون ما لا يمكن أن يكون عبادة لغير الشيطان، ولا توجُّهًا إلا إلى الضلال وبهذا انْحَطُّوا عن مرتبة العَجْمَاوات من الأنعام لأن الله يقول: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وهم زرع (جهنَّم) من غير جدال.

هذه السطحية الجامدة التي خَيَّمت على عقولهم وغَشِيت بصائرهم بالظلام وجعلتهم يَهْرِفُون بما لا يَفْقَهون ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٧١] نقول إن هذه السطحية -بذاتها- هي التي حجبت عن البصائر نور القرآن الكريم الذي تنزَّل من العليِّ الحكيم ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤] على قلب الرسول الأُمِّي الصادق الأمين: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢]، هذا النور لا يَشْهَده الأعمى ولا يتحدث عنه الأبكم ولا يسمع أنباءه الأصمّ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ

يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٧].

هذا الرَّحيق السَّائغ الشراب العاطِر الرِّضاب(١) اللاَّمع الآهاب(٢) هم عنه محجُوبون ولشياطينهم مغلُوبون ولأهوائهم يطْلُبُون، وكان من حقّه -تعالَى- أن يقول لحبيبه الصَّافِي الصادق ﴿ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢]؛ لأن التوجُّه إلى هذا الكتاب من غير الرُّوح توجُّه محروم من بَرَكة القُدْس الأعلَى، ومَجَال العقول فيه محدود مرسوم ومجال الفكر فيه مفهوم ومجال البصائر في بصائر آياته مقرَّر معلوم، فهل هم -على هذا النحو- آيات القرآن يتدبَّرون ولأخطائهم في التأويل يُصْلِحون ﴿ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴾ [الروم: ١٧](٣).



(١) الرضاب: الريق، رغوة العسل.

(٢) الآهاب: بمعنى الأغلفة.

(٣) لأن فالق الإصباح -سبحانه- هو فالق الحَبّ والنَّوى ومرسل النور للهداية وموجّهه إلى قلوب من شاء بِخالص العناية، أما الذين أَعْرَضُوا عن نوره -وهو النور- فقد احتَوشَهم الغرور ﴿ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ ﴾ [يونس: ٢٧]، ﴿ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠].

المبحث الثاني:

قُوَّة الإِعْجَاز

والآن نَشْرَع في ذكر المضمار العقليّ والميدان الفنيّ، لتِبْيَان عظمة الذكر الحكيم، أو حكمة القرآن العظيم؛ لتستقرَّ حقائقها اللُّغوية في نفوس الذين وَعَوْها وتكوَّنت مَلَكات الإدراك عندهم من عناصرها، لعلَّ نَفَسًا من روح الرحمن يهب نسيمه العاطر على مشاعرهم؛ فينهضوا بتأييد التعمُّق الروحي في محاولة إدراك ما كان وما سيكون في أنوار هذا «الكتاب المكنون» فيقرأوه بعمق قراءته ويتلوه حق تلاوته. فتستشرف أرواحهم على معانيه وعقولهم على مبانيه، فإنهم متى تذوَّقُوا ما فيه من الإعجاز البيانيّ -الذي يقول الله تعالى عنه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]- تعمقت في نفوسهم مفاهيمه.

ومن أوائل الطوالع في ذلك الإعجاز -فاتحة الكتاب- وهي سبع آيات، وكَوْنُها سبعًا ينتهي بالوِتْر بعد التَّسْديس الكامل فيه بحث، وهي مكيَّة نزلت بعد المُدَّثِر.

فلنبدأ:-

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ :

﴿ بِسْمِ ﴾ أصلها (باسم) وحُذِفت أَلِفُها، و﴿ ٱللَّهِ ﴾ عَلَمٌ على الذات العليَّة، و﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ اسم المَلِك، و﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ مَنْشَأ الرحمة العامة. وباء «بسم الله» تُسمَّى باء التعلُّق؛ لأنها تتعلَّق بفعل محذوف، مثل قولك: بسم الله

اقرأ - أقوم - أفتتح كل خير - أدفع كل شر، وهكذا جميع الأفعال الكريمة التي تليق بمقام صاحب الاسم سبحانه وتعالى. واسم الجلالة يتعلَّق به وجودُ كل كائن تعلُّق العلم الأزليّ، وهو مقام الكرسي الذي استقرَّت فيه المعلومات كلها والكرسي متعلِّق بذي العرش تعلُّق الحُكم بالمُلْك، فَكَما أحاط مقام الكرسي بكل شيء علمًا وأحصى كل شيء عددًا، قبل وجود كل شيء، جرت قدرة العرش فيما خصَّصته الإرادة من تلك المعلومات المُسْتَقِرَّة في مقام الكرسي، حسب مشيئة الملك العليم، فإذا هو كائن بالذات في الزمان والمكان والأسباب والصفات والمقدار واللون والصورة والكيفية والكمية على ما اقتضاه العلم الأزليّ في مقام الكرسي، حيث استقرت المعلومات والحقائق المجرَّدة. كما قال سبحانه: ﴿ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٨] وقوله: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وهو ما يساوي الآية المُبينة ﴿ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ ﴾ [الأنعام: ٨٠]، ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ [الجن: ٢٨].

وهكذا يتَّضح تعلُّق الباء الأولى من ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾ بجميع الكائنات، متى عرفنا ترتيب الأسماء الثلاثة بعدها؛ لأن «الله» اسم الذات الأقدس، و«الرحمن» اسم المَلك، وهو يستلزم العرش والكرسي لزوم الحُكم والتدبير والإمداد والتقدير والوزن وغير هذا من اللُّطْف والإبداع في الصنع والحكمة والخبرة وسائر متعلَّقات الحكم، لذلك قال تعالى قدره: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٩] وقال أيضًا: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴾ [طه: ٥-٦].

وهذا المقام الرحمانيّ مقام محيط يتعلق به كل شيء صغيرًا أو كبيرًا ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ ﴾ [فاطر: ١١] وهو مقام كريم؛ لأنه مقام الرُّبوبية لرب العالمين. وقد ورد في سورة الرحمن ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦] أي جنة مُعَجَّلة يدخلها بعد موته، وجنة كبرى مُؤَجَّلة يدخلها عند البعث الأكبر.

ومعنى خوف المقام استشعار العظمة والجلال والخشية وتلك المشاعر التي يشعر بها المرء حين يواجه مُرَبِّيه أو وليَّ أمره أو طبيبه الحكيم. لهذا نرى الاسم «الرَّحيم» باعث الحنان والرأفة رحمةً منه بخَلْقه في الدنيا والآخرة.

وقد اعتبرت ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ تاجًا لكل سُورة ما عدا سورة التَّوبة -كما قدَّمنا- لما تحويه من معاني الإنذار وكشف المنافقين.

فأمَّا كونها مِفتاحًا لكل أمر حكيم، فدليلُهُ جَرَيَانُها على لسان (سليمان) عليه السلام حينما كتب إلى (بلقيس) ملكة (سبأ) يدعوها إلى الإسلام فكانت الآية المفتاحية هي كتابه الذي قال مَنْ عنده علم مِنْهُ -من هذا الكتاب-: ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ ﴾ [النمل: ٤٠] .. إلخ الوقائع الدالة على حصول النَّقل اللاَّزمنيّ لعرش (بلقيس).

وفاتحة الكتاب مثاني، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧]، ومعنى كونها مثاني أنها تقتضي بنصها مُتَجلّيًا ومَجْلَى.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ .

فالحمد: يشير إلى حامد ومحمود ولام التعلُّق باسم الجلالة يتلوها مباشرة رب العالمين: فالعبد يتوجه إلى المحمود. فهنا مثنى حامد ومحمود، أما كلمة «رب» فتقتضي مربُوبًا وهو «العالمين».

﴿ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ :

والرحمن كما قلنا في رسالة الأسماء هو اسم العرش ويقتضي الحُكم، والحُكم يقتضي الحَكَمْ والمحكوم له والمحكوم به والمحكوم فيه. فالمثنى هنا الحَكَمُ والمحكُوم.

كذلك الرحيم فإنها تقتضي بنصها راحمًا ومرحومًا، والمرحوم هنا خاص بخلاف الرب؛ لأنه رب العالمين أجمعين المرحوم منهم وغير المرحوم. فإنه وإن كانت رحمته في الدنيا -سبحانه وتعالى- قد وسعت كل شيء، كما قال حملة العرش: ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧] إلا أنها في الآخرة مُخصَّصة للمحسنين، لقوله تعالى في الحُكْم العام ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦]، ولقوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] هذا في الدنيا، أما قوله تعالى: ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فهذه في الآخرة.

وهكذا يتبيَّن لنا مدى سريان الرحيم برحمته، ثم قوله تعالى:

﴿ مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ .

فمالِكُ تقتضي مملوكًا ويوم تقتضي دَيْنُونة وديّانًا والدينونة على المدين والدَّيان هو المالك، ومعنى هذا أن الحُكم ومطلق الأمر يوم القيامة غير مشترك كما هو في الدنيا؛ إذ أسند الله -تعالى- الأمر إلى من سمَّاهم أُولي

الأمر منكم، وهو في الدنيا.. القرآن وتعاليمه وأحكامه. لكن يوم القيامة ينفرد سبحانه وتعالى بالأمر، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار: ١٩] وكما قال أيضًا: ﴿ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴾ [غافر: ١٢] وقال تعالى: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [غافر: ١٦]، الذي هو ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ .

لكي تطمئنَّ القلوب لأن الحَكَم العدل الذي هو الله الرؤوف الرحيم، اللطيف العليّ العظيم بلا مشاركة. ثم هنا يبدأ نص أم القرآن تُبُوعهُ من العبد إلى المعبود ليبين المثنى التالي.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ :

فهي تقتضي عابدًا ومعبودًا، وقدم المفعول ﴿ إِيَّاكَ ﴾ على الفعل ﴿ نَعْبُدُ ﴾ لإفادة حصر العبادة في ذات الله وحده، ومعنى العبادة نهاية الذل والخضوع مع الحب والولاء والإخلاص، ثم انتقل إلى المثنى التالي حين قال تعالى:

﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ :

وهي تقتضي بالذات مُسْتَعِينًا ومُسْتَعانًا، والعبد المستعين والله هو المستعان والعبد يستعين بالله في كل شئونه إذ لا قوة إلا بالله، هو المستعان على كُدورات الحياة الدنيا وهو المستعان على ما يصف المبطلون.

وبعد أن حدد مجالِيَ العبادة والاستعانة التَّامتين توجه إلى المثنى التالي:

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ :

وهي بدورها تقتضي مُسْتَهْدِيًا هو العبد وهاديًا وهو الله الذي هو الرحمن الرحيم، أما المُهْدَى إليه فهو الصراط المستقيم وهو الحق والدِّين، لا كما زعموا أنه قنطرة على شفير (جهنم) وَصَفُوها وسَمَّوْها كأن الله تعالى لم يقل

﴿ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة: ٦١] ثم انتقل إلى المثنى التالي:

﴿ صِرَاطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ :

أي من النبيين والصِّديقين والشُّهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، والإنعام يقتضي بذاته مُنْعِمًا ومُنْعَمًا عليه، والنعمة بكسر النون هي الرضا والهُدى، والرضا يقتضي مرضيًّا عنهم وراضيًا كذلك قوله:

﴿ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ :

والغضب ضِدَّ الرضا.

﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ :

أي الحائرين الذين يطلبون طريق الرضا فلا يهتدُون إليه، فهذا من أروع معاني الإعجاز البيانيّ في أم الكتاب. ولا نريد هنا استقصاء جميع ما تحتويه أم الكتاب من المعاني، حتى يأتي مقامها بإذن الله تعالى ومشيئته.

والضَّالُّون على قسمين:

الأول: الضلال بمعنى الحيرة في الحب أو الأمل، كما قال إخوة (يوسف) لأبيهم عندما قال: ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ [يوسف: ٩٤] فكان جوابهم عليهم: ﴿ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾ أي إفراطك في حبك لـ(يوسف) وقولهم القديم يرجع إلى ما أشاروا إليه عند بدء المؤامرة عندما قالوا: ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: ٨]. وقولهم: «مبين» هنا غلُوّ في الثورة النفسية تطوَّحوا فيه مع ما كان يغيظهم من إقبال أبيهم على أخويْهم، فهم في ثورة غضب والغضب شُعبة من الجنون يُعْفِيهم من المسئولية عن تكفير أبيهم إذ لم يخطر ببال أحدهم المعنى

المراد من لَفْظَيْ ﴿ ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ والمُبِين معناه البعيد، من البَيْن لا من البيان. إذْ لو كفَّرُوا أباهم لكانوا بهذا كُفَّارًا، وقد أحاط الله تعالى علمًا بأنهم (كواكب هدى) كما رآهم (يوسف) في رؤياه التي قصَّها على أبيه، وأنهم أنبياءٌ أصحاب كتب خاصة بالنص الثابت في سورة البقرة: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَـٰعِيلَ وَإِسۡحَـٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٦] وهؤلاء هم «الأسباط». وقد سبق العلم بالنُّبوة بدفع المعلوم نبوَّتهم عن الكبائر، وحيث إن التكفير من أكبر الكبائر، فإن اللازم الآن صحة الحكم بتجرُّدهم عن نية التكفير عندما قالوا ﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف: ٨] وإن قصدوا به المعنى الأول من القسم الأول وهو ضلال الحب وحيرة الأمل.

ومن بين أفراد القسم الأول ضلال الرأي من غير كفر، ويُضِلُّ رأي الإنسان اختلاف الظروف المحيطة به والملابسات الزمنية والأحوال النفسية المتفرعة عن المسئوليات الأسرية والشخصية، وفي حالة الضعف البدنيّ الذي يقتضي ضعف العقل وفساد التدبير مما يَحَار له الرأي، فهذا يسمى «ضلال الرأي» ولا يوجد فيه -مع هذا- سوء نية.

والقسم الثاني من الضلال، هو الضلال البعيد:

ومعنى البعيد هنا يكاد يكون إدمان اتِّباع الهوى بشكل مُزْمن فهو -منذ زمن بعيد- منحرف عن جادَّة الحق ناءٍ عن مطارح أشعَّة النُّور الروحانيّ؛ فكثف بذلك حِجَابُه، والأكنَّة المحيطة بالقلب كالأغشية الدهنية العازلة عن التأثر، فلا يصحُّ بعدها وعي ولا سمع كما قال تعالى وقوله الحق: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ ﴾ [فصلت: ٥]. فهذا الضلال البعيد يُنادَى صاحبه بصوت الحق ولكن لا يسمعه؛ لأنه يتلقَّاه أو يستقبله من مكان بعيد، كما قال القرآن المجيد حقًّا وصدقًا ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾ [فصلت: ٤٤].

ولو فتحنا أبواب معنى قوله تعالى: ﴿ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ لتعددت أمام بصائرنا مشاهد الضلال وميادين الخيال، فبحسبنا أن نعلم أنه -جلَّ شأنه- ختم «أم الكتاب» بالإشارة إلى الضالين وقانا الله الضلالة وإياكم وهدانا إلى الهُدى، إنه نعم المولى ونعم النصير.

ولقد كان محمد ﷺ من أبطال القسم الأول، فكان ضلاله الباحث المُسْتَشِفّ الذي تنطلق نظراته إلى السماء ونجومها والنَّيَازِك ورُجُومها والسماء وغُيُومها وغُيُوبها، والنفس وحسناتها وعُيُوبها، ثم ينظر في نفسه كيف يرى.

وكان ﷺ يدور بخلده قول حكيم (إياد) (قِسّ بن ساعدة) الشاعر الجاهلي حينما خطب في سوق (عُكَاظ) على جَمَله الأورق طويل الأذنين قائلاً:

إنَّ في السماءِ لَخَبَرًا وإنَّ في الأرضِ لعِبَرًا. ليلٌ داجٍ وسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، وأرضٌ ذاتُ فِجاجٍ وبِحَارٌ ذاتُ أَمْوَاجٍ... إلى أن يقول:

يا بني (إياد) .. أين الآباءُ والأجداد؟ وأين المريضُ والعَوَّاد؟ وأين مَنْ بَنى وشَيَّد؟ وزخرفَ ونَجَّد؟ تلك بيوتُهم خاوية، عَمَرَتْهَا الذِّئَابُ العاوية، كلاَّ بل هو الله الواحدُ المعبود ليس بوالدٍ ولا مولود.. ثم يتذكر عليه السلام أنه قال في خطبته هذه مواصلاً:

يا بني (إياد) ... أُقسِمُ قَسَمًا حقًّا لا آثمًا فيه ولا حانِثًا إن لله دينًا غيرَ دينِكُمُ الَّذي أنتم عليه، ونبيًّا قد آن أوانُهُ وأَظَلَّكُم إِبَانُه، فطُوبَى لمن أَدْرَكَهُ وَآمَنَ بِهِ وَهَدَاه، وويلٌ لمن خالَفَه وعَصَاه. فتقع هذه الكلمات على نفس محمد ﷺ ، الذي يتريَّض رياضة العُزْلة في الغار المبروك بعيدًا عن مجامع الناس وما فيها من لَغْو وعَبَث ومُجُون، يُنَافِي ما يصبُو إليه من روح السكون، فتدور في رأسه أسئلة حائرة فيما غاب وبدا ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلاًّ فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٧]. وكانت العناية الإلهيّة التي تُحْصِي أنفاسه ونَبَضَات قلبه تحتضنه كلما غَفَت عيناه احتضان صلاة وسلام يجيب على الأسئلة الحائرة التي تدور بها خَطَراته، فيشهد ببصيرته حال نومِه ما لا يمكن أن يشهده ببصره عند يقظته، وما كانت عطيَّات الجَنَاب الأعلَى نحوه بالصلاة والسلام إلا إعدادًا وتمهيدًا في نفسه وقلبه وكيانه لما ينتظره من أعباء الرسالة العامة التي انتظمت الجنّ والإنس وتستمع إليها الملائكة.

المبحث الثالث:

العِلْم هو هدفُ أهداف التَّكوين الإنسانيّ

هكذا ما كادت تنتهي في (غار حراء) تلك الفترة الإعداديَّة والنظرة الإمداديَّة حتى تلقَّى الأمر عند مُنْصَرَفه من خُلْوَتِه وهو بعدُ على رأس الأربعين من عُمْره، حين تلقَّى بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١-٥]. فكان الأمر الأوَّل أمرًا تَدْوينيًّا، فأجاب ما أنا بقارئ وغَطَّهُ (جبريل) فكان كما يقول ﷺ: «**حتى بلغ مِنِّي الجهد وظننتُ أنه الموت ثم أرسلني فقال اقرأ، فقلتُ: ما أنا بقارئ**» وهكذا كان الأمر الثاني كالأول، فلَزِم أن يتدفَّق الفَيْض بالأمر الثالث المُقْتَرِن باسم الذّات العليّة المُمِدَّة، فكان أمرًا تكوينيًّا بالنص ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ إلخ السُّورة.

وقَد مَرَّ على الأطوار التكوينيّة للكيان الإنسانيّ، حيثُ بدأ بالخَلْق من عَلَق ثم انتهى إلى هدف التكوين عندما قال: ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ وجاء من الكرم باسم التَّفْضيل قبل هذا التعليم عندما قال ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴾ وهذا حق، فهل يوجد أكرم من فيض قدسيّ ثقيل الوزن ينصبُّ على قلب ليَعُمَّه بالمعرفة ويملأهُ بالعلم؛ ليعلم ما لم يكن يعلم ويعرف ما لم يكن يعرف ويشهد ما لم يكن يشهد في جميع الشئون وفي ﴿ لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الدخان: ٣-٦].

وكان في تلك الليلة قد تلقَّى المعاني الكُلِّية للكتاب المكنون؛ حيث إن النص قاطع الدلالة على الكلية ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ۝٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ﴾ [القدر: ١-٥].

فقوله تعالى: ﴿ مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ﴾ دليلهُ الكلية، ويشهد بهذا ما سبق من قوله ﴿ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ أي في ليلة القدر التي هي سلام حتى نهايتها. تتنزَّل جميع ملائكة المَلأ الأعلى، فهل يدري أحد بأي شيء كانت تتنزَّل الملائكة والروح -وهو (جبريل)- أمين الوحي وزعيم الملائكة ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴾ [التكوير: ٢٠] نعم (جبريل) الذي هذا شأنه والملائكة معه يتنزَّلون جميعهم بذلك الفيض الكليّ الصّادر من اللَّوْح الأعلى إلى بيت العزة، ومن بيت العزة إلى قلب المبعوث به رحمة للعالمين، والله يقول: ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١] ولكنّ قلب محمد ﷺ كان أقوى من الجبل فيما تلقَّى وفيما احتمل، ولا نزيد على هذا دليلاً بعد قول الجليل سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل: ٥].

وهو كذلك لأنه تركيز تامّ للمعاني الكلية التي سيتلقَّاها منصوصة مُنَجَّمة[١]، مفصَّلة على الوقائع والأحداث في مدى ثلاث وعشرين سنة كما أخبرنا ﷺ ، فقوله «مُنَجَّمًا» يدل على أن الأمر عند نزوله إلى بيت العزة -وهو مقام أعلى للتلقّي عند الملأ الأعلى ويُسمَّى أيضًا بالأفق المبين- تهتزُّ له قلوب الملائكة، حتى قال رب العرش العظيم: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٣].

فلا مفرَّ إذًا أن يتعلَّق التَّنزيل بحركات النَّجم، كما أشار إليه بصَدَد المِعْراج الأعظم الذي تَمَّ في (رجب مُضَر) وهو الفرد بين الأشهُر السابقة؛ إذ هو أولٌ للإفراد بقوله تعالى: ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ [النجم:١][٢] إلى آخر أنباء المِعْراج. وعلى هذا نستطيع أن ننظر إلى الأحرف المُفْرَدة التي تَرِد في أوائل السُّور مثل: ﴿ الٓمٓ ﴾ ومثل ﴿ الٓمٓرۚ ﴾ وهكذا -نظر التَّقدير بأن لهذه الأحرُف الهجائية المُقَطَّعة- أو الحَوَامِيم كما يسمُّونها قُوَى عدديَّة ترمُز إليها، كما ترمُز الأحرف في الجبر والهندسة إلى المقادير العدديَّة.

وإنما لجأنا إلى هذا تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ [ص: ٢٩] وهذه الأحرف هي من الآيات، وتدبُّرها لا بد أن ينتهي إلى نتيجة مقبولة عقلاً، بعد أن قال تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٥-٧٩] والعَلاقة بين مواقع النُّجوم وبين الكتاب المكنون

---

(١) منجمة: متدرجة التنزُّل في تتابع قدسي أعلى.

(٢) التنزيل وعلاقته بمواقع النجوم وحركاتها.

منعقدة انعقادًا تامًا ومطابقًا لعلم من العلوم التي علَّمها الله عباده. ولأن العدول عن هذه الوجهة مفضٍ إلى طائفة من التخبُّط الذي يجعل ﴿ الٓمٓ ﴾ وأمثالها غير ذات موضوع وهذا مُحال، فمن أجل ذلك قُلنا إن هذا ثابت ثُبُوتًا أصليًّا في قوله تعالى: ﴿ فِى لَيۡلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ ﴾ [الدخان: ٣]، وفي قوله -جل شأنه- عن الليلة المباركة وما جعلها إنذارًا للناس ﴿ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ قال عنها: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٍ ﴾ [القدر: ٤].

وهذه الأمور وهذه الدلالات تدعو إلى التعلُّم وحب المعرفة، فالعلم -في القرآن- هدف أهداف التكوين الإنساني.

المبحث الرابع:

تحقيق معنى التحدث بنعمة الله

وحيث إنَّ الكليَّة في المعاني القرآنية غير قابلة للتَجْزِئة، فقد تلقَّى الأُمِّي عليه السلام -العائل من العلم تمام العِيلة- ما أغناه، وأُمِر أن يتحدث بنعمة الله عليه التي علَّمه الله بها ما لم يكن يعلم، وعلى هذا يكون قد تلقَّى الكلية في ليلة القَدْر مُجْمَلَةً وتلقَّاها تفصيلاً بالتنزُّلات العليَّة القُرْآنيَّة خلال الحوادث والشئون والمُلاَبَسات في مدى ثلاث وعشرين سنة، تفصيلاً لكل شيء وهدىً ورحمةً لقوم يؤمنون وبالآيات هم يَسْتَبْصِرُون، حيث لا يمسُّها إلا المُطَهَّرون.

وبهذا تكون الأحرُف المُفْردة ذات موضوع صالح للتدبُّر، لكون كلٍّ منها آية والله يأمرنا بالتدبر وأنزل كتابه للناس ليدَّبروا آياته والدال في «يَدَّبَّرُوا» إذا شُدِّدَت دَلَّت على إدغام تاء التدبر، فيكون معنى «ليدَّبروا» أي ليتدبروا، والتدبُّر متعلِّق باستخدام التفكر والرَّوِيَّة. فإذا كانت أحرفًا مجردة فأي شيء يمكن تدبُّره فيها؟

وبناءً على ما تقدم فإن ﴿ صٓ ﴾ ، و﴿ قٓ ﴾ ، و﴿ طه ﴾ ، و﴿ يسٓ ﴾ ، و﴿ نٓ ﴾ ونحوها آيات واجبة التدبر وليست مجرد أحرف مقطَّعة تدل على اللغة وكفى كما زعم بعض المتأوِّلين. ويحسُن بنا في هذه المناسبة أن نذكر أن هذه الآيات أزليَّة؛ لأنها كلام الله وصفة الكلام صفة أزليَّة قائمة بذات المتكلم سبحانه وتعالى، وكلامه -جل شأنه- مُنَزَّه عن الحرف والصوت معًا.

وكون هذا الكتاب -كما قال سبحانه عنه- له أُمّ، ولا تعريف بالعلم لمعنى تلك الأمومة إلا معنى المصدر والنص يدل على أن الكتاب في مصدره وأن

مصدره عليٌّ حكيم، وكلاهما من أسماء الله تعالى ومنطوق النص ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤].

فتبيَّن من هذا أن القول بأن هذه الأحرف أسماء لمحمد ﷺ ، بحجة وقوع كاف الخطاب أو تاء المخاطب بعدها قول باطل؛ فإن محمدًا ﷺ ، ما كان مُسمَّى باسم «ن» ولا «ص» ولا «ق» مثلاً، فكيف تكون هذه الأحرف أسماء له عليه السلام؟! و«ن» اسم الحوت كما قال تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ... إلخ الآية، وقوله تعالى عن (يونس) لـ(محمد) عليه السلام: ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴾ [القلم: ٤٨] وهي ترجمة حرفيَّة مطابقة لقوله تعالى: ﴿ وَذَا ﴾ ومعناه صاحب ﴿ ٱلنُّونِ ﴾ ومعناها الحُوت، فكيف أمام هذا البرهان يَسُوغ لهؤلاء المُؤَوِّلين أن يجعلوا هذه الأحرف أسماء للنبي عليه السلام؟!

فالحاصل أن الأحرف من المعجزات العلمية؛ لأن تدبُّرها ينتهي إلى مسألة رياضيَّة وفلكيَّة وحسابيَّة، وقد صَرَّح القرآن الكريم بالأمر بتعلُّم الحساب كقوله تعالى -بعد أن ذكر آيَتَيْ الليل والنهار ومَحْو آية الليل- وجعل آية النهار مُبْصِرة وهي الشمس قال بلام التعليل: ﴿ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ ﴾ [الإسراء: ١٢].

إذًا فتدبُّر الآيات الحرفية لا يتمُّ إلا مع الإحاطة بعلوم الحساب والجبر والهندسة والفَلَك، وكان من النادر إحاطة كثير من المفسرين أو المؤوِّلين -على الأصح- بهذه العلوم، فَقَصَر بهم جهلهم بها عن بُلُوغ هذا الأُفُق من التدبُّر والتقدير.

ومن اللَّطائف التي تحويها ناحية التدبر وعمق التفكير واستلهام الهُدى كون القرآن كليًا أحاط مُنَزِّلُه بكل شيء علمًا وأحصى كل شيء عددًا وأنزل به الملائكة والروح من لَدُنْه ﴿ مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ [القدر: ٤] من الأمور التي تخطرُ والتي لا تخطرُ على بال، وتناول ما نُبْصِر وما لا نُبْصِر وأقسم بقوله: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقة: ٣٨-٣٩] الأمر الذي يدل على التماس هدايته سبحانه وهو عالم الغيب والشهادة، مالك التفكير والاسْتِكْنَاه والتعرُّف بين ظواهر الأمور وبواطنها وألفاظ الكلمات ومعانيها ومشاهد الكائنات وأسرارها ومحاولة التذوُّق والاستشراف بتحقيق تطهير النفس عن الدنايا وتقديس الخَلْق عن دَرَكَات السَّفْسَاف من الأمور؛ لأنه ورد عنه ﷺ أنه قال: «**إنَّ الله تعالى يحبُّ معاليَ الأمور ويكرهُ سَفْسَافَها**».

وهيهات للسَّطْحيِّين -الذين هم في ظُلُمات الحُجُب القِشْرِيَّة تائهون- أن يبلُغوا من مُحْكم الذكر في الكتاب العزيز العليّ الحكيم ما يليق بشرفه الأعلى ومَنْهَله الأعذب الأحلَى وحُسْنه المُسْفِر المبين الأجلَى ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١].

كِتَابٌ حَوَى سِرَّ الحَيَاةِ بِيَانُهُ ... وَأَنْزَلَهُ رَبُّ السَّمَاءِ مُنِيرَا

وَأَوْحَى بِهِ لِلْمُصْطَفَى الحُرِّ نِعْمَةً ... فَصَارَ نَذِيرًا بِاسْمِهِ وبَشِيرَا

إلى الثَّقَلَيْنِ لِلإِنْسِ وَالجِنِّ رَحْمَةً ... وَجَنَّةَ فَضْلٍ لِلنُّهَى وَحَرِيرَا

وذِكْرَى لِذي قَلْبٍ مُنِيبٍ يَرَى بها ... مَعَالِمَ مُلْكٍ لاَ يَزَالُ كَبِيرَا

تَعالَى عن التمثيلِ لم يُرَ مِثْلُهُ ... ولا دارَ بالأخلادِ عِشْتَ بَصِيرَا

ولو حاولَتْهُ الجنُّ والإنسُ زُمْرَةً ... وَكُلٌّ لِكُلٍّ كَانَ فِيهِ ظَهِيرَا

لأَعْجَزَهُمْ مَسْرَاهُ وهو مُحَلِّقٌ ... عن الوصفِ والتعريفِ عَزَّ نَصِيرَا

تَبَاركَ من أوحَى به النّورَ ساطِعًا ... وأرسلَ صُبْحًا فِي الحياةِ شَهِيرَا

مبينٌ سَبِيلَ المجدِ عِزًّا ومَنْعَةً ... فديتُكَ فَاسْأَلْ بالكتابِ خَبِيرَا

يُنَبِّئُ عن حقٍ ويهدِي إلى العُلاَ ... فيغدُو يسيرًا ما يكونُ عَسِيرَا

ويُمْسِكُ أيدي المُقْعَدينَ مُؤَازِرًا ... ليُحْسِنَ كُلٌّ فِي الحَيَاةِ مَسِيرَا

ويعلنُ بالفردوسِ سبحانَ رَبِّهَا ... ويَحْسُنُ فِي يومِ الجزاءِ مَصِيرَا

فسبحانَ مَنْ أوحَى بآياتِ حكمةٍ ... وكَمْ باطنٍ أَوْفَى عليكَ ظَهُورَا

وكَمْ مَشهدٍ أعَلى من النفسِ رِفْعَةً ... تَجَلّى ولم تَبْذَلْ لَدَيْهِ مُهُورَا

له الفضلُ وفي ليلةِ القدْرِ حقُّها ... وأجرَى صِبَاهَا في الرياضِ عبيرَا

وأنزلَ فيها كلَّ أمرٍ سلامُهُ ... إلى الفجرِ إذْ أوحَى إليه كَثِيرَا

وكيف يُحيطُ العلمُ والروحُ عِنْدَهُ ... على كلِّ شيءٍ حينَ شاءَ قَدِيرَا

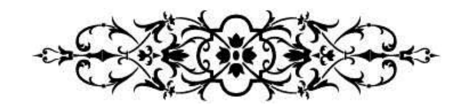
ملائكةَ العرشِ العظيمِ بأمرِهِ ... تنزَّلُ إذْ تلْقِي السلامَ نَضِيرَا

فلا زَهَرَاتُ الرَّوْضِ تُشْبِهُ نُورَهُ ... وكُلُّ غَنِيٍّ عَنْهُ بَاتَ فَقِيرَا

فما نعمةَ الدنيا وما عِزّ أَهْلِهَا ... بجانِبِهِ إلا الخيالُ غَرُورَا

ولمحةَ عينٍ من سَنَاهُ كفيلةً ... بنسيانِكَ الدُّنْيا سَلِمتَ صَبُورَا

فأَنْعِم بِهِ وَحْيًا وأَنْعِمْ بِهِ تُقىً ... وَأَنْعِمْ بِهِ صَوْتًا دَعَاكَ جَهِيرَا



الفصل السادس:

افتتاحية:

القُرْآنُ نورٌ ورُوح

نعم هذا هو الدواء الناجِع الذي يُشْفِي به الله صدور المؤمنين؛ لأنه روح من عند الله يسرِي سريان النور في الظلام وسريان الشفاء في السُّقَام ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ ﴾ [الشورى: ٥٢].

وفي قوله تعالى عن ذلك الروح يرى بعض المؤوِّلين أنه يعني (جبريل) عليه السلام، مستندين في هذا إلى قوله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]، وغير هذا من الآيات، إلا أن هذه الآية لا تشير إلى (جبريل) عليه السلام بمعنى الرسالة، ولو شاء ذلك لقال وكذلك أرسلنا إليك روحًا من أمرنا، ولكنه تعالى قال في النص القرآني ﴿ أَوۡحَيۡنَآ ﴾ ثم إن (جبريل) أمين الوحي -عليه السلام- ليس هو في ذاته وحيًا يُوحَى، ولكنه الفيض القدسيّ الذي ينفعل به (جبريل) وينفعل له، فيكون ذلك الفيض ذاته روحًا من أمر الله يسري كما سَرَى من قبل في طينة (آدم) فكانت بسريانه إنسانًا حيًا سميعًا بصيرًا متكلمًا حكيمًا حليمًا قويًا متينًا، صوَّره ربه فأحسن صورته وأودعه الإدراك والتخيُّل والوعي كما أودعه التوَّهم[1] وأسجد له ملائكته كلهم أجمعين، ولو كان الأمر في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٢٩] كما قال به

---

(١) مما يحيط بالحواس الباطنية، وأوسعها أفقًا الخيال والحَدْس والتخمين حتى بالغ (محي الدين بن عربي) حينما قال ناظمًا: **إنَّ الخيالَ محلُّ روحِ العَالَمْ.**

بعض القائلين من أنه نَفَخَ فيه عن طريق (جبريل) بتقدير الآية ﴿ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ الذي هو (جبريل) لما كان هناك معنى لقوله: ﴿ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ﴾ [الحجر: ٣٠] وفي أوائلهم (جبريل).

فكيف يكون (جبريل) طريقًا للنَّفخ ثم ساجدًا في نفس الوقت؟! وكذلك لم يَتَّفِقْ رأيهم على تعريف يحدِّدُ لنا ماهيَّة ذلك النفخ، ويقول أوسطهم عدلاً إن معنى النفخ توجُّه الإرادة الإلهية لتنفيذ مُتعلَّقات العليم الأزليّ بتكوين وإحياء خليفة الله في الأرض وهو الذي خلق سُكَّانها الأقدمين.

ومتى قلنا بتوجُّه الإرادة تعيَّن العُدُول عن الرأي الذي يَعْتَبر (جبريل) طريقًا للنفخ أو سببًا لسريان الروح، وكيف لا وقد قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦]، وقال جلّ شأنه: ﴿ أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴾ [الرعد: ٣٣].

على أن (جبريل) نفسه -عليه السلام- هو أثر لتوجُّه الإرادة الإلهية، فهل كان لـ(جبريل) نفسه، (جبريل) سابق عليه عندما خلقه الله أمينًا للوَحْي؟

وإذا كان الله سبحانه وتعالى هو -الحيّ- لَزِمَ أن يكون هو واهب الحياة لا (جبريل) ومن أجل ذلك تعيَّنت الحنيفيَّة أي المِلَّة، مُسْنَدَةً إلى (إبراهيم) الذي لم يستعن بـ(جبريل) عندما أُلْقِيَ بالمَنْجَنيق أمام النار، وهل قيل إن (جبريل)

كان طريقًا لتحوُّل النار إلى برد وسلام على (إبراهيم)؟[(١)]

ومن تأمل في معنى اسمه تعالى - الخالق - البارئ - المُحْيِي، نفى نفيًا باتًّا وَسَاطة (جبريل) في تحوُّل طينة (آدم) إلى إنسان سُوى[(٢)] حسن الصورة مُفعَم بالإدراكات والأحاسيس والخواص[(٣)] والمميزات. وعليه يكون قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ ﴾ [الشورى: ٥٢]. مشيرًا إلى القرآن ذاته لا إلى (جبريل) عليه السلام، ودليل الفيض عندنا -نحن المُحَقِّقين- قوله تعالى: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ ﴾ [الشورى: ٥٢] ثم سمَّاه نورًا كما سمَّاهُ روحًا من قبل، حيث قال عزت ذاته استدراكًا: ﴿ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ﴾ [الشورى: ٥٢] فهو إذًا -الروح والنور والهدى- الذي سُمِّي به محمد ﷺ هاديًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، كما أرسله شاهدًا ومبشِّرًا ونذيرًا.

---

(١) وانقلابها على عنصرها الذاتي، الواقع أنه لا يفعل ذلك إلا من خلق الشيء ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢] ولا نستطيع أن نقول إن (جبريل) عليه السلام شرط في حصول الحياة بالفعل وسريانها الذي حوَّل طينة (آدم) إلى ذلك الإنسان الذي أشرنا إلى طرف من خصائصه ومزاياه وحواسّه الباطنة الخاصة به وحواسه الظاهرة المشتركة بينه وبين الحيوان.

(٢) سوي: بمعنى عالٍ.

(٣) وخواص الإنسان مَلَكاته الإبداعية ومواهبه، ويشهد لهذا قول الشاعر:

لا يُصْلِحُ النَّاسُ فَوْضَى لا سُرَاةَ * لَهُمْ وَلاَ سُرَاةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا**

والسُّرَاةُ هنا هم القادة.

وهذا هو القرآن ذاته -زاده الله حُجَّة وبيانًا- الذي يفعل كل هذه الأفاعيل، والنبي ﷺ بين الذين اهْتَدَوْا بهديه واستناروُا بنوره واستمدُّوا من روحه..

والقرآن الجليل، هو الكتاب المبين ذو الذكر المجيد الحكيم لا يزال ولن يزال فيَّاضًا على قلوب الذين شاء الله لهم أن يتمتَّعوا بفيض ذلك الروح وهذا النور المبين حتى تقوم الساعة وتظهر حقيقة القرآن وحقيقة قوله تعالى في كلامه القديم: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤]، فيكون (جبريل) ذاته عليه السلام ومن حوله من الملائكة العالين، من الذين أفادوا من فيضه واقتبسوا من نوره؛ لأنه بالنسبة إلى الملائكة أيضًا «كتاب مكنون» يستمع إليه العالُون. كما دلت السُّنة على نزول الملائكة في حديث (سَهْل) وواقعة (الفَرَس):

وخُلاصتها أنه كان يقرأ القرآن ترتيلاً وإلى جواره فَرَسُهُ مربوطةً إلى سلسلة حديديّة فكان إذا قرأ جَالَتْ وإذا سكت سكنت، فَرِيعَ من أمرها -أي أدركه الفزع- ونظر فجأة فرأى ظُلَّة من النور ترتفع عندما سكت وسكنت الفرس، فهرول إلى النبي ﷺ فأخبره بالأمر فتبسَّم النبي ﷺ وانشرح صدره ثم قال: «**أولئك الملائكة نزلوا يستمعون إلى القرآن منك يا (سهل)**».

وتبين لنا من هذا أن القرآن روح من أمر الله، وأن الملائكة -وهم أرواح من أمر الله أيضًا من أجل ذلك الفيض- يُسَبِّحُونَ بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض، وقُواهم -عليهم الصلاة والسلام- مَجَازٌ لإبراز مشيئته سبحانه وتعالى وتكوُّن جميع مُتعلَّقات العلم الأزليّ؛ ولهذا تتنزَّل الملائكة والروح فيها -أي في ليلة القدر- بإذن ربهم من كل أمر؛ ولذلك ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ

ٱلْفَجْرِ ﴾ [القدر: ٥][1].

ولو تأمَّلْنا بروح قوية وبصيرة نفَّاذة معنى قوله جلَّ وعلا ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ ﴾ لأدركنا معنى النور في هذا السلام؛ لأن الذي يسير في النور آمن من كل سقوط أو انحراف، ومن ثَمَّ أُمِرَ النبي ﷺ بالنص في آخر سورة يوسف: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

ذلك لأن نور الروح القرآني نور نفَّاذ يُشْرِق له القلب المؤمن. والذين آمنوا يتمتعون بهذا النور الذي يزداد تِباعًا كلما تُلِيَ الذكر الحكيم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْۖ ﴾ [يونس: ٩] والهداية هي أثر النور المباشر، كما قال تعالى: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَاۚ ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وهكذا يتبيَّن أن الروح القرآنيّ المُوحَى به هو نور ذاتيّ، ما دام القرآن كلام الله وما دامت الصفة الكلامية مُسْنَدَةً إليه تعالى، والكلام صفة المتكلِّم. فأين هذا المقام من الذين يلتمسون القرآن في الألفاظ والحروف والأصوات وعلى الورق؟

---

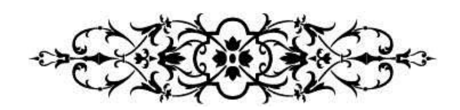
(١) وكلما نزلت آية من القرآن وَجِلَتْ قلوب الملائكة وتساءلوا بينهم ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ: ٢٣] وهكذا نرى الملائكة -بما فيهم من الاستعدادات النُّورانية- متجاوبين بأرواحهم مع هذا الكتاب العليّ الحكيم.

شَتَّانَ بين هذه المرتبة العليا وبين هذه الدَرَكَة السُّفلى، ولو أنهم طَهَّرُوا قلوبهم لانجلت لكلٍّ منهم مرآة نفسه، ولو انجلت لشهدوا عليها أنوار التجليَّات وبدائع الآيات. والكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة، ولن تكون شجرة طيبة إلا إذا كان أصلها ثابتًا وفرعها في السماء، ومتى كانت كذلك فهي ﴿ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ ﴾ [إبراهيم: ٢٥]. وعلى هذا قرَّرنا أبدية الروح القرآني بسريان النور الأزليّ الذي سيتجلَّى يوم القيامة منه صور السور كما قدَّمنا في هذا الكتاب.

على أن الذين منحهم الله -تعالى- البصائر لا يمكن أن يخروا على هذا القرآن صُمًّا وعُمْيانًا، أما الذين تشرَّبت قلوبهم الأمراض فإن العَمَى يكون مُحببًا إليهم مزيَّنًا لأبصارهم القاصرة؛ بحيث لا يمكن هِدايتهم كما قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧] وعلى غِرار أولئك نرى اليوم جميع السطحيين الذين كَبَّلَتْ أيديهم وَغلَّتْ أعناقهم مواريثُ الجهل ودسائس اليهود، فانحرفوا بعماهم وعمه بصائرهم عن صراط العزيز الحميد، أحرياء بهذا الانصراف ميئوسًا من هُداهم، بحكم قوله سبحانه: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٦].

وهكذا قيل للنبي ﷺ : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ ﴾ [الروم: ٥٣].

وقانا الله وإياك -أيها القارئ المُطَهَّر- غوائل الغفلة وبوائق التكذيب ﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وإليه يرجع قصد السبيل.



المبحث الأول:

الرُّوح القرآنيّ وأثر نوره في الثَّقَل الجِنِّيَ

لِزَامٌ على الباحث في هذا المبحث أن يحيط بتعريف للجنّ ولو أنهم ليسوا من نطاق عالَم الشَّهادة -وهو المشهود- فهُم والملائكة من عالَم الغيب الذي يَلْزَم الإيمان به على كل مسلم؛ إذ لا يعلم الغيب إلا الله تعالت قدرته.

ونحن لا نريد أن نقدِّم تعريفًا عن الجن من حيث الماهية الذاتية، أي الحقيقة الشخصية؛ لأن هذا داخل في نطاق القسم الغيبيّ، ولكننا نريد بالتعريف ما بلغ إلينا علمه بالتَّواتر وإجماع العلماء من المحقِّقين. فهم -أي الجن- أجسام ناريَّة لطيفة تتكثَّف ثم تَلْطُف ولهم خواصّ الإنس في الأكل والشرب والمُبَاشَرة والتَّنَاسُل والموت عند آجالهم.

وحيث إنهم يتمتعون بالحواس من السمع والبصر إلى غير ذلك مما هو للإنسان، فهم يستمعون إلى قول الإنسان ويرونه دون أن يراهم، كما قال -تعالى- عن (إبليس) لعنه الله: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧]، ومن هنا جاء القرآن الكريم بأسلحة الدفاع ضد الملأ الجِنِّيّ وهو (المُعَوِّذَات) التي سبق بيانها عند تناولنا (خطوط الاتصال الشيطاني ببني آدم).

والذي نريده الآن إنما هو أثر روح القرآن ونوره في هذا الثَّقَل، وقد أنزل الله تعالى «سورة الجن» وبيَّن فيها استماعهم للقرآن وتأثُّرهم به تأثرًا عميقًا، حيث كانوا يستمعون إليه في إنصات وانتباه وتدبُّر، كما أشار -سبحانه وتعالى- إلى هذا في قوله جل شأنه: ﴿ وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ

يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٠] إلى آخر الآية، حيث يَثْبُت بها تنصيب نُقَباء بوصفهم منذِرين لقومهم رُسُلاً بروح القرآن ونوره إليهم. وهذا نلتمس دليله في قوله تعالى: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

ولم يُحَدِّثنا العلم إلى اليوم عن أسماء الرُّسل الجنِّيين، فلم يبقَ لنا إلا أن نلتمسهم فيما كتبنا الآن من نصوص القرآن الحكيم من أنهم أولاً مصروفون من الله تعالى بقوة الإلهام أو هاتف السماء الذي أمرهم أن اذهبوا إلى محمد فاستمعوا إلى ما أُوحيَ إليه ثم بَلِّغوه أقوامكم وجَدِّدُوا موقفكم من القرآن، وهذا دليل قوله عنهم ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١-٢] إلخ سورة الجن وهذه الآية مطلعها.

فلمن قالوا إنهم سمعوا قرآنًا عجبًا يهدي إلى الرُّشد وإنهم آمنوا به وإنهم لن يُشْرِكوا بربهم أحدًا؟

القرآن -نفسه- يفسر هذا بقوله: ﴿ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٢٩] ﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٣٠] وكانوا أحسن من الإنس الذين يقول الله -تعالى- عنهم: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ

لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦].

أما الجن فلما حضروه قالوا أنصتوا، ولم يَهْرِجوا ولم يرفعوا أصواتهم في كتاب الله ولا فوق صوت رسول الله. وبهذا يكونون من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات: ٣].

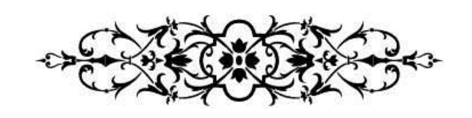
وبهذا -أيضًا- يكونون صالحين للحال التي ذهبوا بها من بين يَدَيْ النبي ﷺ حاملين من روح القرآن ونوره رسالة إلى قومهم بوصف كونهم مُنْذِرين.

واللغة تُقَرِّر للمُنْذِر -متى كان يحمل دعوة الحق- أنه رسول، وهذا ثابت في أوَّل سورة الدُّخان عن نزول القرآن حيث قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ [الدخان: ٣]. على أنه يتبيَّن لنا مما في سورة الجن وفي غيرها من الآيات السابقة عليها أن بين الجن ضَالِّين ومنحرفين، ولكن النبي ﷺ أشار إلى المؤمنين منهم عندما قال لأصحابه إثر نزول قوله تعالى في سورة الرحمن ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ١٣] حين قال: سبقتكم بها الجن. بعد أن قال هو عليه السلام: «**اللَّهم ولا بشيء من آلائك يا ربُّ نُكَذِّب**» فلما قال لأصحابه: سبقتكم بها الجن، قالوا: ما هي يا رسول الله؟ قال: عندما تَوَجَّه السؤال من الله سبحانه إلى الثَّقَلَيْن الجن والإنس بقوله تعالى: ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ١٣] قالت الجن: ولا بشيء من آلائك يا ربَّنا نُكَذِّب.

إذًا فهم -أي المؤمنون من الجن- أحسن وعيًا للقرآن ولما فيه من أساليب البيان بلغته العربية المُبِينَة ومواقع الأسئلة الإلهيَّة فيه. ولولا هذا الوعي الفنيّ لما قالوا: ﴿ قُرۡءَانًا عَجَبًا ﴾ [الجن: ١] ولما أدركوا أنه ﴿ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ ﴾ وعَلَّلُوا بهذه الهداية قولهم ﴿ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ ﴾ وأفادوا من حكمته في التوحيد المطلق «توحيد التفريد» وهو هدف الأهداف وقدس الأقداس من هذا الكتاب كله فقالوا بصيغة التَّأبِيد ﴿ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ .

ومن الواضح أن الجن أعمق تأثُّرًا بالقرآن الكريم؛ لأنهم ما كادوا يسمعونه حتى آمنوا به، وانطلقوا إلى أهلهم منذرين به ومبشرين، في الوقت الذي كان فريق من الإنس يقولون عن القرآن إنه ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٥]. فلا حرج على فضل الله.

ولَعَمْري لا أدري كيف كان العرب -وهم سَدَنَة البيان وأعلام الفصاحة- يُعْرِضُون عن القرآن العربيّ الحكيم، في الوقت الذي تُقْبِل عليه خلاله الجن!!



المبحث الثاني:

عبادة الإنس للجنّ

على أنه وإن تفشَّى في ظُلمات الماضي البعيد خلال القرون الوسطى من عبدوا الطَّواطم والتماثيل والطبيعة، كما عبدوا أفرادًا منهم، كما أشار إليه الفيلسوف الإنجليزي الكبير (تُومَاسْ كِرْلِيلّ) في مُحاضرته الأولى من كتابه «الأبطال» ... وليرجع إليه من يشاء. إلا أنه قد انتهى منذ تلك الأجيال البعيدة أثر عبادة البشر للبشر، وإن كان ثَمَّة أثر لهذا النوع من العبادة بين الآدميِّين إلى الآن، فلا يمكن أن يكون عن اعتقاد ولكن عن هوى في النفس من رغبة أو رهبة.

ولكن عبادة الجن لا تزال إلى اليوم شائعة بين البشر من أولئك الذين يسمون الجن بالأسياد، وهو جمع خاطئ من حيث اللغة يقصدون به السادة، ومتى كانوا كذلك كان سواهم من العبيد، وقد أعجبني هذا الخطأ الُّلغوي من العوام في هذا المقام؛ لأن الأسياد جمعه (سيِّد) بفتح الياء وتشديدها وهو (التَّيْس بين العِنْزَان)، و(سِيد) على وزن (جِيد) وجمعه (أسياد) أيضًا وهو الذئاب.

فالجن الذين يتعرَّضون للبشر هو أشبه بالذئاب التي لا تعمل إلا تحت أستار الظلام.

ولكن هؤلاء لا نفوذ لهم على مؤمنة الجن، ولولا هذا لأصابت البشر ضربات خفية من مردة الجن، وقد أشار الله -سبحانه وتعالى- في كتابه تنديدًا بالذين يعبدون الملائكة: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ

كَانُواْ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

فهؤلاء الذين يحاولون بالوسائل السوداء الاستعانة بأفراد من الثَّقل الجني لتنفيذ مآربهم والحصول على مطالبهم، قوم حَكَم القرآن الكريم بتكفيرهم وسوء مصيرهم في قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وإننا لنرى بين تضاعيف التاريخ الإسرائيليّ في عصر (سُليمان) أن المرأة تذهب مُرِيدة لسيدها الجنيّ، وتفصم عُروة زوجيَّتها في سبيل الاستمتاع الجني.

كما يقع الشاب الإنسيّ في هوى فتاة جنية فتُغرقه في هواها وتنفصم عروة زوجيته. وكان ذلك كله يحدث بتنظيم وتوجيه (ليسيفر) الذي هو اسم الشيطان اللعين في التوراة، حيث انتشر بين الشعب وبواسطة الكُهَّان الخونة من أعداء (سليمان) أمر السحر والتفريق بين المرء وزوجه. الأمر الذي أهبط الله من أجله في (بابل) (هاروت وماروت) لتعليم الناس السحر بمسجد (بابل) وحديقتها المُعلَّقة، وتحذيرهم من الفتنة به واستخدامه للإفساد وإعلانهم بأن استخدامه هكذا كفر.

وهذا كله ما تضمَّنه الموضوع في سورة البقرة ابتداءً من قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٠١ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ

ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ ۚ -أي: من نصيب إلى أن قال سبحانه:- وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠١-١٠٢] وشروا معناها باعوا، مثل قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

فهؤلاء الذين وقعوا في حبائل مَرَدة الجن بالاستهواء والتغرير وتَزيين سوء العمل، اتخذوا الجن آلهة لهم شغلوا حياتهم كلها بالاستسلام لهم والدعوة إليهم في محافل يختلط فيها النساء بالرجال من الجن والإنس ليرقصوا رقصات معينة على طَرَقات إيقاعية على النحو الذي لا نزال نراه إلى اليوم بين الطبقات المُنْحَطَّة من حفلات الزَّار وتسمية الجن بالأسياد وتسمية الإنس بالمُريدين والمُريدات. تمامًا كما يحدث من مشايخ الطرق، حيث يُنَصِّب الواحد منهم نفسه سيدًا للجميع وعليهم، ويُسَمَّى التابعون له بالمريدين وإنها لفتنة واحدة بين الجن والإنس من أولياء الشياطين ﴿ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦].

ويمتاز المؤمن من الإنس بمناعة تجعله خارجًا عن نطاق التغرير والاستهواء والتزيين، بنص قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢] وبانتفاء هذا السلطان يفيد المؤمن فائدة كبرى من مس الشيطان

له؛ حيث يوقظه هذا المس ويحرك فيه قوة الدفع الملكوتية، وقد بين الله تعالى ذلك تمامًا كما قدمنا، حيث قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

وعلى هذا النحو يكون الذين اتخذوا أهواءهم آلهة فعبدوها، هم من عُبَّاد الجن ومن أولياء الشيطان؛ حيث صرفهم عن عبادة الله من أجل السعادة الخالدة إلى عبادة أهوائهم وشهواتهم البائدة ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١١٩].

هذا إلاَّ أن البحث الآن في قوة إدراك مؤمني الجن بأسرار اللغة العربية. فقد ورد كثير من الأنباء عن شعر الجن، وأنه ما من شاعر من الإنس إلا كان له وحي من شاعر جنيّ كما قيل: «لولا هُبيد ما كان لُبيد» وكانوا يقصدون شاعرهم (لبيد بن أبي ربيعة) و(هبيد) جنيّه الذي يوحِي له الشعر.

ومِمَّا يجدر بنا الإشارة إليه ذلك الهاتف الجنيّ الذي صاح عشيًا من أعلى (أبي قبيس) الجبل، ينادي أهل الندوة مناجاة محمد ﷺ و(أبي بكر) في مُؤْتَمَرهم، وينبئ عن معجزة في الطريق ووصول بالسلام، حيث قال الهاتف الجني:

جَزى الله ربُّ الناسِ خيرَ جزائِهِ ... نـزيلَيْن حَـلاَّ خيمَتَـيْ أمِّ مَعْبَـدِ

هُمَـا نَـزَلاَ بـالبرِّ ثـم تَرَوَّحَـا ... وأفلـحَ مـن أمسَـى رفيـقَ مُحَمَّـدِ

لِـيُهِنْ بَنِـي كعـبٍ مكـانُ فَتَـائِهِم ... وَمَقْعَـدُهُم للمُـؤْمنينَ بِمَرْصَـدِ

فهذا الشعر تأليف جنيّ هتف به هذا الشاعر الذي دلَّ على علمه بخط سير النبي ﷺ وصاحبه، ومرورهما في الطريق على امرأة في خيمتها تسمى

(أم معبد) فسألاها هل عندها لله، فأشارت إلى شاة عجفاء متهالكة لا تقوَى على الوقوف لشدة هُزالها وضَعفها، وقد فُقِد الدَّر من ضَرْعها. فهي التي كانت باقية لم تخرج إلى المرعى، فتقدم النبي ﷺ وهو يقول: لا بأس .. لا بأس، ثم مسَّ الشاة مُسمِّيًا مرات فلم تلبث أن نهضت الشاة وتعافت بالقوة وامتلأ ضرعها لبنًا. فأخذ الرسول ﷺ يحلب ويقدم للمرأة فتعيده إليه ويدفعه إلى (أبي بكر). والمرأة لم ينحرف بصرها لحظة عن وجه النبي ﷺ الذي أخذ يحلب اللبن حتى ملأ لها أواني كثيرة وشرب هو وصاحبه حتى ارتويا وشبعا.

وكانت (أم معبد) هذه -فيما نقله رجال السيرة- أصدق امرأة برعت في وصف النبي ﷺ من حيث صورته وقَسَماته الشريفة، وهذا ما أشار إليه الشاعر الجني بقوله «حَلاَّ خيمَتَيْ أم معبد» وهو يدل على أن الجن يوجدون في كثير من الأماكن دون أن يراهم أحد؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقبيله: جنسه، كما يقول تعالى عن الخفاء والكائنات الخفية للذين يتفكرون: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الحاقة: ٣٨-٣٩].

ومما أدى بوفد الجن ونقبائهم إلى تأييد التحرر من رِبْقة الشِّرْك، إعلانهم أنهم آمنوا إيمانًا مترتبًا على سماعهم لآيات الهُدى؛ حيث يقولون في سورة الجن: ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ ﴾ [الجن: ١٣] والإيمان أعلى مراتب الإسلام وليس بعد الإيمان سوى الإحسان وهو أعلى مراتب الدِّين.

وقد اعترفوا بأنهم قبل بعثة النبي ﷺ قد لمس بعضهم السماء لاسْتِراق السمع ومحاولة معرفة ما يحدث لبني (آدم) من الأمور والأحداث، وأنهم وجدوها بعد مبعثه عليه السلام: ﴿ فَوَجَدۡنَـٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾

[الجن: ٨] لتدفع الماردين منهم من استراق السمع ومحاولة تخطِّي الحُجُب، والآية صريحة واضحة ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ [الجن: ٨-٩] وهذا يدل على أن لهم من القوى ما يجعلهم في المستوى الذي لا تبلغ مداه قوى البشر إلا بسلطان العلم.

فإن كانت الجن أعمق إيمانًا وأقوى مِراسًا من الإنس، فإن إيمانهم أدعى لتدعيم إيمان الإنس، إذ إن المفروض أن الثَّقَل الإنسيّ أدنى مرتبة -من حيث العنصر- من الملأ الجنيّ الذي هو أسبق تاريخًا في التكوين على (آدم).

ومن حق الإنسان أن يعتمد في تقرير الإيمان على من هو أسبق منه وجودًا وأمتن منه قوة، وفي هذا عبرة؛ لأن القَوِيّ هو خير قدوة للضعيف وأقرب أُسوة للحديث وجوده وأعلم بخصائص الحياة الدنيا، التي شاءت الحكمة الإلهية أن تجعل للجن رزقًا فيها، وآجالاً لا ريب فيها. فهم يتوالدون ويتناسلون ويأكلون ويشربون، ويشتركون مع الإنس في الإفادة من خصائص النبات والحيوان؛ لأنهم يمتصُّون من الأغذية خُلاصة المواد البروتينية والبروتوبلازم وغيرها، مما لا يستطيع العقل الرياضيّ إيجاد تعريف كامل عن حظ الجن منه.

وعلى هذا جاء الوحي يقول: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وكذلك أكدت السنة العطرة إمكان اتصال شياطين الجن، حيث سن ﷺ للمسلمين أن يقولوا قبل مباشرة نسائهم: «**اللهم جَنِّبْنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتَنَا**».

وللمتأمل في أمر الإيمان الجنيّ والاستهواء الواقع منهم بطريق الأحلام والاحتلام وما يقع في نفس النائم الإنسيّ من تهاويل وأمور أو مظاهر تثير الرعب والفزع، أن يحاول إرجاع هذه المظاهر إلى أسباب إيجابية ذات أثر فعال في النفس الإنسانية، ويبدو أن هذه المحاولة تكون في الغالب محفوفة بكثير من الأخطار في سبيل التَّعرُّف على وسائل حياة هذا الثقل الجني الرهيب. على أنه متى اندمج في البحث وتأثر بأهدافه زالت عنه رهبة الجن وأفاد رَبَاطَةَ جَأْش وقوة قلب لم تكن له من قبل.

وإننا لنعلم أن أقدمية الجن في الحياة الكونية، تلك الأقدمية كانت سببًا في قول الملائكة جميعًا من قبل عن (آدم) عليه السلام: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠] إلخ الآيات، ما يدل على أنهم عاشروا قبل (آدم) كائنات أفسدت في الأرض وسفكت الدماء.

فالجن إذًا أعلم من الإنس بما كان عليه أمر الحياة في هذه الأرض، ومن ثَمَّ لم يتخلف عن السجود من ملائكة الجن سوى (عَزَازيل) الذي هو (إبليس) اليائس يأسًا مُطلقًا. وما علَّل تخلفه عن السجود إلا بعلة كونه:

أولاً: أعلم هو وقبيله بشئون الحياة الأرضية على النحو الذي كان يجري قبل تكوين (آدم).

ثانيًا: أنه رأى شرف العنصر الناري على عنصر الطين وافتخر بذلك فتكبر حين قال: ﴿ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: ٦١]، ثم قال: ﴿ أَنَا۠ خَيۡرٌ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ [الأعراف: ١٢] وكان بهذا القياس الذي يواجه حكمة الحكيم وعلم العليم جديرًا بأن يُنَادَى بالطرد ﴿ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الحجر: ٢٤-٢٥].

وقد قال بعض قصار النظر إن اللعنة مؤَقَّتة إلى يوم الدين، ظانين أنها تُرفَع عن (إبليس) يوم الدين. وقد جهل هؤلاء قوله تعالى عن (إبليس) معترفًا لأغويائه: ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ ﴾ [إبراهيم: ٢٢] أي لا أنقذكم ولا تنقذونني، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٤٣] كما نَسُوا أن يوم الدين هذا هو يوم أبديّ لسُكَّان الجنة أو لسكان النار، كما ورد في الخبر عنه ﷺ : **«والله إنها لسعادة الأبد أو شقاوة الأبد»**.

ومتى كانت (جهنم) موعده وموعد من اتبعه أجمعين، يتبيّن لنا وحدة المصير بين الجن والإنس. والقول بتنويع العذاب في (جهنم) بما يناسب الجن وحدهم والإنس وحدهم، قول هو أشبه بخبط عشواء أُرْسِلت في العشية؛ لأنه وصف وتعريف وتكييف لأمر سمعيّ غيبيّ في نشأة مجهولة بالنص بقدرته ﴿ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الواقعة: ٦١]. وحيث إنها نشأة مجهولة سواءً في نعيمها أو في عذابها، فالقول فيها بأي وضع ووصف للمجهول وهو مُحَال ومحض افتراء ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧] بدار فيها «ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر».

ومتى كان الأمر كذلك فما معنى ما تلوكه ألسنة المتهوِّلين الذين يقولون ما لا يعقِلُون ويهرِفُون بما لا يعرِفُون.

والجن ثقل مُكَلَّف بالعبادات الإنسانية من صلاة وزكاة وصوم وحَجّ وتحرٍ للحلال في مآكلهم ومشاربهم ونسائهم. وهذا يدل على قيام اشتراك فعليّ في الإفادة من طبيعة الحياة الأرضية، وبحسبك أن تستشعر الاشتراك العنصريّ بين (آدم) وذريته و(إبليس) وذريته حين قال الله تبارك وتعالى: ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة: ٣٨-٣٩] سواء كانوا من الجن أو من الإنس معًا.

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران: ٨] وأنت مالك الرقاب يوم يقوم بين يديك الحساب.

المبحث الثالث:

(آدم) وسُجود الملائِكة -من النُّورانيِّين والنَّاريِّين- له جميعًا

ويبدو أن حُكْم الجن وملائكة النُّورِ على (آدم) بأنه ستكون له سُلاَلات تُفْسِد في الأرض وتَسْفِك الدماء كان قياسًا على المعلوم لهم من نشأة الأرض، وكانوا يجهَلُون تمامًا علاقات (آدم) وذُرِّيته بهذه النشأة الأرضيّة؛ لذلك أجابهم سبحانه بأنه يعلم ما لا يعلمون بقوله: ﴿ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

ثم أفاض على (آدم) الاستعدادات والمَلَكات والغرائز الداخلة في نِطاقه وذُرِّيته: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ٣١] في ذلك القياس الذي عَقَدْتُموه بين (آدم) والماضين من قَبْله، ولما كانت المعروضات خاصة بنشأة (آدم) -وهي نشأة فريدة لم يسبق لها مِثال- فقد تبيَّنت ملائكة النُّور والنَّار أن هذا شأن جديد من شئون الله في أيام الله لا يعلمون عنه شيئًا وكان حريًّا بهم أن ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢] فلا إحاطة بعلمك إلا بما تفضَّلْت فكَشَفْتَه لنا وعلَّمتنا إيَّاه.

فأراد سبحانه وتعالى أن يجعل (آدم) وسيلة علمهم بالنشأة الجديدة، فتفضَّل وأمر ﴿ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ ﴾ ونهض (آدم) على منصّة الإنباء فأنبأ الملائكة ونجح في ذلك ﴿ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ ﴾ قال الرب تبارك وتعالى: ﴿ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٣] أي من الإعجاب والغِبْطة بحصول العلم بما لم تكونوا تعلمون ﴿ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴾ في أنفُسكم من استعظام نعمتي وفضلي

على (آدم) واختصاصه بخلافتي في الأرض، وخِلافته بهذا الاختصاص للسابقين في أعماق العلم الإلهيّ.

وتبين من النص أن المعروضات المشهودة للملأ الأعلى -والتي لم يكن لهم العلم بأسمائها- كانت بالنسبة إليهم غَيْبًا؛ بدليل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ٣٣] الذي كان غائبًا ﴿ غَيْبَ ﴾ عنكم، مجهولاً لَدَيْكم.

فوجود (آدم) لهذا كان رحمة بكم وسعة لآفاقكم، وهنا يدرك اللبيب سر سجود الملائكة لـ(آدم) بوصف الخصائص الذاتية للفضل الإلهيّ ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٤].

ولله ما أسمَى الإشارة إلى القدرة في هذا المقام، حيث يسجد النُّور والنَّار معًا لكائن جمع النار والنور معًا، فكان أعلاه فوق الملائكة وأدناه أضلَّ من الأنعام، وهذا مِضْمار واسع تتسابق فيه الهمم العالية والغرائز الدنيئة، والإنسان هنا مُكَلَّف باسم الروح والخُلْد الفِرْدَوْسِيّ أن يعمل كادحًا في الترفُّع عما هو أدنى إلى ما هو أعلى؛ لأن الأعلى أخلد باقٍ أما الأدنى فبائد فانٍ، ومَنْ شاء الخُلود سعى إليه.

نعم:

فَمَنْ شَاءَ الخُلُودَ سَعَى إِلَيْهِ ... وَمَنْ شَاءَ الهُبُوطَ هَوَى دَنِيَّا

وَمَنْ عَرَفَ المَحَبَّةَ فِي جِهَادٍ ... لِهَذَا كَانَ صِدِّيقًا نَبِيَّا

فالجنُّ إذًا قد استقبلوا رسالات رسلهم الذين حضروا محمدًا ﷺ واستمعوا إليه فيما أنزل الله عليه، ثم مَجَّدُوا ذلك التَّنْزيل وزادوا في ذلك أدبًا ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا

قُرۡءَانًا عَجَبٗا ﴾ [الجن: ١] وأدركوا فيه من قوة العهد أنه ﴿ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ ﴾ [الجن: ٢] فالذين يستلهمون رُشدهم من القرآن وحظَّهم من السعادة في هذا البَيَان قوم خَفِيُّون لهم ما لنا وعليهم ما علينا، ومن واجبنا ألا نسيء إليهم بسبِّهم مثلاً أو لَعْنهم أو اتِّهامهم بأنهم ركبوا (زيدًا) أو قتلوا (عُمَرًا) فإن قومًا من الأَنَاسِيّ من قَبْلنا يُسَخِّرُون من يتعرَّض لهم من الجن في شئونهم ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ﴾ [الجن: ٦]. ولم يكن هذَا قاصرًا على عهد (سليمان) عليه السلام، بل كان منتشرًا في (بابل) وفي (آشور) وفي (مصر) وفي (كِلْدانيا) و(فينيقيا) و(الجزيرة العربية) وفي كثير من ممالك (الهند) الشرقية[١]. فلقد لعبت مَرَدة الجن أدوارًا هامة في مسرحيات الفِتْنة وتبادل الاستمتاع الجنسيّ بينهم وبين ضِلِّيلين من الإنس.

وقد تعرض مَارِدَان في بعض المواقع الإسلامية عندما سقط (سعد بن عبادة) سيد (الخزرج) في (يثرب) وقد نفى المقاتلون من الفريقين، المشركين والمنافقين أنهم وجَّهوا شيئًا من الأذى إلى (سعد) وقد دُهِش النبي ﷺ ، وكأنما ألقى سؤالاً: مَنْ إذًا قاتل (سعد)؟ وإذا بهَتَّافةٍ من الجن تقول شعرًا:

نَحْنُ غِلْنَا سَيِّدَ الْخَزْ ... رَجِ سَعْدًا بْنَ عُبَادَة

وَرَمَيْنَاهُ بِسَهْمَيْنِ ... فَلَمْ نُخْطِئْ فُؤَادَه

وفعلاً بالتَّشريح اتَّضح أن سهمين الْتَقَيا في قلب الشهيد (سعد بن عبادة). ومن هذه الواقعة أجازت الشريعة عمليات التشريح والجراحة الطبية؛ إذ إننا فرغنا من قبل -عند ذكر القُبوريين- من الحكم بأن البدن جسم حيوانيّ لا

---

(١) وفي الجُزُر المنقطعة في المحيطات مثل جُزُر (هاواي) وأمثالها.

يتعلّق به شيء من الشئون العُلْوِية التي تتبيَّن واضحة في قوله تعالى من سورة يس: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦] وهذا الذي لايعلمه أحد هو السر العُلويّ الخالد، الذي تتبدَّل حوله الأجسام وهو ثابت ثُبُوتًا ذاتيًا وثَبَاتًا جِذْرِيًا.

وعندنا في هذا الباب نظر، نظن أن أحدًا لم يتجه إليه بفكر أو بحث -وهو أنه ثبت أن للجن آجالاً مُحَدَّدة، ودليلنا في ذلك قول (إبليس) ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٣٧ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ [الحجر: ٣٦-٣٨] ومعنى هذا أن الشيطان وقبيله من ملائكة الجن يعلم أن له أجَلاً محددًا إذا انتهى فلا يتأخر ولا يتقدم لحظة؛ ومن أجل ذلك طلب الإنظار -ومعناه التأجيل- كما يقول سبحانه وتعالى في موضع آخر عن الأمور المدنية والحقوق الموقوتة ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ ﴾ [البقرة: ٢٨٠] أي أجل أو مُدّة وهو معنى نَظِرة. ولو كان (إبليس) يعلم أنه لا يموت، ما كان لطلبه هذا أي مُبرر.

وإذا قلنا إن للجن آجالاً يموتون عند بُلُوغها، فأين تكون أجسام الجن بعد موتهم؟ وهل لهم قبور في الأرض أم في السماء؟ وحقًا هل بحث باحث في هذا الباب؟ وإذا شاء الله تعالى بعثهم، فهل يتوقف ذلك البعث على وجود عظام أو رُفَات أو أَعْجَاب أَذْنَاب ليعيدهم بها، كما زعم الضَّالون بأن الله -تعالى- إذا شاء إعادة الناس أعادهم من أعجاب الأذناب(١)؟! وهو رأي مأفون

(١) أعجاب الأذناب: جمع مفرده عَجْبُ الذَّنَب، وهو أصل الذيل، ويُقصد به الفِقْرة الأخيرة من العمود الفقري للإنسان والذي -كما يقول العلماء- يحمل جميع الصفات =

آفك بوضوح؛ فإن الله تعالى سبحانه يقول: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فهل بَثَّ الناس من أعجاب أذناب؟ إذًا فمِن أي شيء بدأ خلق الجن؟ وكيف يعيدهم بعد الموت؟ ولا أعجاب لهم ولا أذناب ولا مقابر..

ولقد تقوَّل البعض على رسول الله ﷺ بوضع حديث نصه «**كل ابن آدم يفنى إلا عَجْبُ الذَّنَب**»[1]، وكان يناظرنا في هذا الحديث المزعوم رجل يُسَمَّى -أو يُسَمِّي نفسه- بـ(الحافظ التّيجاني)- وهو من أصحاب المخاريق والشعوذة وشأنه معلوم عند الكثيرين فلما أورد هذا الحديث سألناه بوصفك من الحُفَّاظ كما تسمي نفسك، فهل تستطيع أن تقول لنا من هم رُوَاة هذا الحديث؟ فلم يجد جوابًا وارتبك وكان ذلك حوالي عام ١٩٤٠م بمسجد (العِمَرى) بـ«المنصورة».

فهذه الآراء الضالة تحطّ دائمًا بالإنسان إلى الدَرْك الأسفل من الثَّرى وتهبط به عن المستوى التكريمي الذي منحه الله إياه وفضله على كثير ممن خلق تفضيلاً، غافلين عن أن الحقيقة الإنسانية إنما تتعلق بالسر الأعلى الذي هم بشأنه لا يعلمون شيئًا كما أسلفنا.

وعلى هذا يتبيّن أن الجن يمتازون على الإنس بعدم وجود بقايا أو رُفات، وأن شئونهم من حيث خَلْقُهم ومَوْتُهم داخلة في نطاق السَّمْعِيات التي يجب الإيمان بها إيمانًا إجماليًا لا يخضع للبحث العقليّ البتَّة، ولا نملِك إلا أن نقول

=

الوراثية والجينية له.

(١) الحديث ورد في صحيح البخاري (٤٩٣٥)، وصحيح مسلم (٧٦٠٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إن النصوص قسمت الملائكة إلى قسمين:

١- (العالين) وهم أجسام نورانيّة لا تزول إلا بالنفخ في الصور ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨].

٢- (أجسام لطيفة ناريّة) بنص قوله تعالى: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

وهذا نص على أن (إبليس) من الملائكة بالسجود، وهو -في نفس الوقت- من الجن نشأة، وذلك لقوله: ﴿ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف: ١٢].

ولَمَّا كان من عُنصر النار اندرج هو وقَبيله في عالم العناصر؛ ومن أجل ذلك كان من طَبْعِه أن يموت وأن يتناسل حتى يحين موعد الهلاك؛ لقوله سبحانه: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ ﴾ [القصص: ٨٨] وبهذه الآية الكريمة قطعنا حُجَّة ذلك (التِّيجاني) المُشَعْوِذ، وأمثاله كثير من القُبُوريِّين الذين لم يفطِنوا إلى معنى ﴿ هَالِكٌ ﴾ .

ولا شك عند المُوَحّدين في أن قوة الحياة والقَيُّومية لله الحيّ القَيُّوم، هما اللَّتان تقوم عليهما جميع الأحكام من أوامر ونواهٍ؛ باعتبار الله -سبحانه وتعالى- القائم على كل نفس بما كسبت من حيث القوة، كما بيَّنا في كتابنا الثاني «القَبَس الخالد في التَّوحيد».

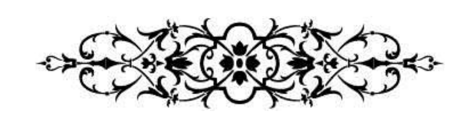
وعليه يكون قوله تعالى: ﴿ هَالِكٌ ﴾ شاملاً للحال والاستقبال معًا؛ لأن فقه

اللغة يدل على أن اسم الفاعل حقيقة في الحال مجاز في الاستقبال كقولنا «زيد قائم».

فالإنسان في نظر المُفْرِدِين مستهلِك -من حيث ذاته- في القوة التي لا تكون إلا بالله؛ إذ «لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللهِ» فلم يبقَ للإنسان إلا النيّة والكسب، أي العمل. وهو لا يَخْلُق أفعال نفسه؛ لأن كل فعل محتاج إلى قوة، والفرض أنه «لاَ قُوَّةَ إلاَّ بِاللهِ» وكما جاء في سورة البقرة: ﴿ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٦] إلخ الآيات.

وعندنا أن الصَّعق للنوارنيين والناريين والأناسيّ معًا؛ لقوله جل شأنه: ﴿ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الزمر: ٦٨] فلم يَسْتَثْنِ أحدًا مِمَّن في السموات ولا من في الأرض إلاَّ ما شاء هو سُبحانه وتعالى، واستأثر بعلمه لعدم إمكان الإحاطة من السَّامعين للقرآن بجميع ما لله -تعالى- من كائنات وأكوان ومُلْك ومَلَكُوت لا نهاية لها في علمه.

وبهذا يمكن أن نفهم الصَّعْق للنُّورانيين بمعنى انسحاب سرّ الحياة المجهول الذي أشارت إليه الآية السَّابق ذكرها بقوله سبحانه: ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦] فلم يبقَ على الأرض إلا ما يعلمون، أما المجهول لهم فهو سرّ، والسر لا يمكن شرحه لا في الإنسان ولا في الجن ولا في الملائكة، فسبحان من لا يعلم أسراره سِواه.



الفصل السابع:

افتتاحية:

شَيْئِيَّةُ الثُّبوت وشَيْئِيَّةُ الحُصُول والتكْوِين

على أنّنا إذا أمْعَنَّا النظر كَرَّة أخرى في قوله: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] لوجدنا أن الشيء الذي تتوجَّه إليه إرادة التكوين إنما هو المتعلِّق بشيئية الثُّبوت عن العلم الأزليّ السابق على تكوين شيئيَّة الحُصُول، أي أن الله سبحانه وتعالى يتوجه بمشيئة التكوين إلى المعلوم الأزليّ المُجرَّد الذي أشارت إليه الآيات من قوله سبحانه: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] فهؤلاء الذين شهدوا كانوا أرواحًا مُجَرَّدة تعيَّنت بتعلُّق العلم الأزليّ وسريان المشيئة وتخصيص الإرادة، وكان هذا التعيُّن التَّجرُّديّ هو التعلق الصُّلوحي القديم وتكوين الأجسام هو التعلُّق التَّنْجيزيّ الحادث؛ لتكون الروح سابقةً على تكوين البدن، وإليها العهد وعليها الوفاء ﴿ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ ﴾ [النحل: ٩١].

ومن أجل ذلك كان منذ الأزل اجتماع (آدم) وذُرِّياته من أجل العهد والميثاق اللَّذيْن بهما تصح شهادة المسلم أنه ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ولولا هذا المقام ما صحَّت شهادة شاهد شرعًا قال: ﴿ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

ملاحظة:

لقد سمعتُ أن بعض الجُهَلاء بالاصطلاحات العلمية ينكر التعلُّق العلميّ الصُّلوحي أو الصَّلاحي القديم، حين تعيَّنت الأرواح لبارئها وأخذ عليها ميثاقها. وجهله هذا لا يعود علينا بل هو المسئول عن جهله، ولو تحلَّى بالشجاعة الأدبية لتقدم إلينا بما عنده من نقد أو استيضاح لنقدِّم إليه ما عجز عن الحصول عليه من كتب التوحيد، ولكنَّ الأمر كما يقول الشاعر:

وَمِنَ المَصَائِبِ عَذْلُ مَنْ لاَ يَرْعَوِي[1] **عَـنْ غِيِّـهِ وَخِطَـابُ مَـنْ لاَ يَفْهَـمُ**



(١) يرعوى: يعود ويهتدي.

المبحث الأول:

الجِنّ والحياة الفِكريَّة أو الخصائص الرُّوحية

يبدو فيما أعلم أن أحدًا ممن تصدَّوْا لعلم التأويل لم يتعرَّض لشرح الطريقة التي كانت تُعْرَب بها آيات القرآن للجن، وهو كما نعلم ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، ولا كيف كانت تتأدَّى إليهم المعاني العليا التي تتضمنُّها العبارات التي بلغَتْ مقام السُّمو والعظمة على ما فيها من فنون البلاغة من بديع وبيان.

ولا ندري كيف تعلَّم الجن لُغة العرب بفنونها هذه، ولم يخبرنا أحد من المفسِّرين كيف تسنَّى للجن أن يجدوا في الكتاب الحكيم ﴿ قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾ [الجن: ١-٢] مع أن الكثيرين من الإنس العرب لم يتيسَّر لهم إدراك هذه المضامين العظيمة.

والقرآن فيه آيات لأُولِي الألباب ولقوم يعقلون، فهل للجن من القوى العقلية والإدراكية ما يجعلهم أحسن فِطْنَةً وأدقَّ تقديرًا لأسرار هذه اللغة التي أنزل الله بها كتابًا فُصِّلَت آياته واتَّضحت بيِّناته؟

ومهما يكُنْ من أمر، فإن النُّصوص قاطعة الدلالة على أن الجن فهموه فهم تقدير أدى إلى الهداية والإيمان، على أن المتواتر بين العرب هو وجود شعراء من الجن، كما قدَّمنا عن الشاعر الذي هتف في أهل الندوة بتمام هجرة النبي ﷺ وصاحبه رضي الله عنه ومرورهما بخيمتيْ (أُمّ مَعْبَد).

وقد احتوى كتاب «آكَام المُرجان في أنباء الجان» كثيرًا من أقوال الجن وشعرائهم، حتى قيل إن لكل شاعر شيطانًا يُمِدُّه بقوة الابتكار؛ فقالت العرب: «لولا (هُبَيد) ما كان (لُبَيد)».

وإذا كان من المُسَلَّمات إلمام الجن بمفاهيم الكلمات العربية مع أنهم كانوا يعيشون قبل (آدم) والنص صريح في قوله تعالى: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الحجر: ٢٧] أي من قبل (آدم). فكيف تعلَّمُوا لغة الذُّرِّيَّات من بني (آدم)؟ وهل تلقَّنُوها تلقينًا فيكون من هو المُلَقِّن؟ أم درسوها بالمعاشرة والمخالطة التي أشرنا إليها؟ أم بواسطة أخرى؟

كل هذه الأسئلة تدور في نفس الإنسان، لا يكاد يطمع في أن يتلقى عنها جوابًا على الحَيْرة.

والغالب أن للجنّ حياة فكرية وقوة عقلية؛ بها كانت لهم من آيات القرآن هِداية ومن نُوره عِناية، جعلهم أسبق من الإنس في الإجابة عن آيات الرحمن ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ١٣] ولا بشيء من آلائك رَبَّنا نُكَذِّب، هكذا قالت الجن بعد تعقُّل الآيات. ولعل الزمن يكفُل لنا في المستقبل الحصول على مزيد من العلم بهذا الأمر الكبير.

كما أن من المُسَلَّم وجود مؤمنين بين الجن، والإيمان سبب الهداية، وهم لم يكونوا مؤمنين إلاَّ بما عَلِموا من لُغة القرآن، والقرآن ينصّ على أن الذين آمنوا ﴿ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ ﴾ [يونس: ٩] فالذين اهتَدَوْا في الجن مؤمنون قطعًا وقد ورد في الأثر «**لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ عَقْلَ لَهْ**» ومن هذا يتَّضِح جليًا أن للجن عقولاً تُميِّز بين الحق والباطل والهُدَى والضَّلال؛ حيث أبدَوْا إعجابهم بكلام الله تعالى ما عدا الذين ضلُّوا منهم كما فعل البشر على علم لقوله تعالى: ﴿

أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: ٢٣]. وهنا يَرِدُ على أذهاننا سؤال هو كيف تَأَتَّى العلم مع الضلال؟ والعلم لا يكون إلا مع العقل، ولا عقل لمن لا إيمان له؟

وأقرب جواب على هذا السؤال أن للعلم قسمين ظاهرًا وباطنًا، فالعلم بظواهر الحياة لا يقتضي الإيمان، والعقل في هذه الحالة يكون آليًا رياضيًا فحسْب، وهو المُسَمَّى بالعلم الضروري بظواهر الأشياء دون تعمُّق في حقائقها الذَّاتية، وأشار إلى ذلك قوله تعالى في سورة الروم: ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٦-٧].

لأننا نجد رجلاً مثل (إديسون) مخترع المصباح الكهربي وكذلك (إبراهام لنكولن) مخترع القاطرة، يتمتَّعان بالعقل الرياضيّ الظاهريّ المتعلِّق بالمرئيات والمحسُوسات، لا باللطائف والدقائق الملكوتية. وعلى هذا النحو كان أكثر الفلاسفة والمشترعين من البشر ومن الذين لا علم لهم بما وراء الحياة الدنيا الباطن. وهذا هو أقرب جواب على الإشكال المطروح أمام النَّظر فيما نعلم وما يحضُرنا الآن، وربما تجلَّت حقائق نجهلها تُبَيِّن لنا فيما بعد دقائق الأمور بهذا الصدد، والله تعالى: ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٧]، سبحانه وتعالى ﴿ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٨].

ولعل شيئًا مما لا نعلمه يساعدنا على الخروج من مَأْزق العلم والإيمان بالمجهول. وفي الغالب أن الإيمان وراء البُرْهان؛ لأن الإيمان متعلِّق بالغيب، أما البرهان فمتعلق بالشَّهادة، والله -وحده- عالم الغيب والشهادة.

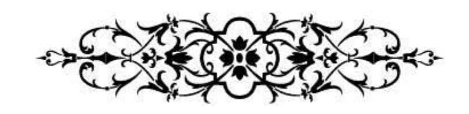
فإذا نظرنا ما للجن من القوى العقليَّة والمواهب الإدراكية، فإن هذا يُعَدُّ

من نطاق الغيب؛ لأننا لم نشهد شيئًا من آثار الحياة الفكرية في الثَّقَل الجنيّ، وإن كنا نشهد بأبصارنا آثار ما صنعوا من بناء مدينة (تَدْمُر) وما إليها.

ولكن ذلك كان لعهد (سليمان) وبأمر منه، ولعل الناحية الهندسية كانت راجعة إلى تخطيط (سليمان) نفسه، إلا أن القرآن يصف الجن بالعلم الفني كقوله تعالى في سورة ص: ﴿ وَٱلشَّيَـٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ [ص: ٣٧] وكما قال تعالى في مقام آخر عن (سليمان) عليه السلام: ﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَـٰرِيبَ وَتَمَـٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ: ١٣] كل هذه الأعمال تَدُلّ على الخبرة والقدرة على التكثُّف إلى حد حمل الصخور والأحجار والنُّحاس، كما يبدو في آثار (تدمر) المذكورة. فلا مفرَّ من الحكم بأن للجن إدراكًا فنيًا وعلمًا عقليًا فضلاً عن الإيمان.

ونرجو أن نزيد هذا الباب إيضاحًا في الجزء الثاني من هذا الكتاب إن شاء الله، بعد إتمام الاستقراء العلمي والتاريخي بهذا الصَّدد.

على أنه بحث دقيق شائك إذا لم تشترك روح الإيمان وطلب الهداية من الله سبحانه وتعالى عن حقائق العلم بهذا الملأ الجنيّ المجهُول، وهو سبحانه وتعالى ﴿ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٧] والله يهدي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم.



المبحث الثاني:

بصائِر الآيَات وأثرها في بصائِر الجان

وقد آن لنا أن نقوم باستعراض شامل لما تناولته في الذكر الحكيم سورة الجن؛ التي هي -بالذات- أصفَى مرآة للمَشَاهد الرُّوحية والمواقف العلمية والفنية التي شهدتها بصائر الجن والمواقف التي مرت بها حكمة هذا الملأ الناريّ اللطيف القابل للتكثُّف الحامل لصور كاملة حسنة كما صوَّر الله الإنسان في عالم الأرحام.

فإليك الآن نصوص الوحي، ابتداء من ﴿ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [الجن: ١] أي فريق منهم استمعوا القرآن من فم الرسول ﷺ ، يوم صرفهم إليه بإلهامه الكريم كما ورد في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٢٩] إلى آخر ما أوردنا من قبل حول هذه الآية.

وكانت نتيجة استماعهم إليه وتأثُّرهم بما استمعوا له -وما حواه من المعاني والدقائق ولطائف الإشارات ومُحْكَمات العبارات- أن قالوا ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ [الجن: ١] وأرادوا بقوله ﴿ عَجَبًا ﴾ أنه يواجه النفس الناطقة والأُذُن الواعية مواجهة مباشِرة، تغمُرها قوة الروحية وجلالها في أسلوب لم يقع من قبل على آذان الجن مثله منذ كانوا.

وقد أدركوا موقنين أن هذا القرآن ﴿ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾ [الجن: ٢] ومن أجل ذلك قالوا: ﴿ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ ﴾ وأيَّدوا توحيده بقولهم: ﴿ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ لما شهِدْنا وبما علمنا، ثم نَفَوْا -بقوة هذا التوحيد- ما ارتآه المشركون من

أهل الكتاب من إضافة الولد إلى الله تعالى شأنه فقالت الجن: ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ [الجن: ٣] والجن في هذا الموقف بالذات يتعيَّن امتيازهم كمؤمنين عن أولئك الإنس الذين يدَّعُون الإيمان بغير دليل ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٨]. ومنهم من نَسَبُوا إلى الله سبحانه الاتصال بالعذراء (مريم ابنة عمران) اتصالاً جنسيًا منتجًا مُخَصِّبًا بواسطة (جبريل) أو الملاك كما يقولون عنه. وأن هذا الاتصال المباشر من الملك أنتج ميلاد (عيسى) المسيح عليه السلام ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴾ [مريم: ٨٨-٩٥].

فانظر أخي بلُطْف العقل كيف ارتفع التوحيد بمؤمني الجن إلى درجة جعلت استنكار جماعات مِمَّن زَعَمُوا الإيمان من أهل الكتاب من الإنس أمرًا بَدَهِيًّا، رَكَّزوه في هذه الجملة الوجيزة عندما قالوا: ﴿ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ [الجن: ٣]. والجد هنا هو المقام الأعلى الذي وعد الله به الذين خافوه ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦] في مُحكم البيان، ونَفَوْا نفيًا باتًّا تلك الكلمة التي قال الله فيها في سورة الكهف ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: ٥] ولم يقف استنكار الجن عند حد الإنس ومُفْتَرَياتهم، بل كانوا صُرَحاء صُلَحاء عندما وجَّهوا أضواء النَّقْد إلى سُفَهاء الجن أنفسهم حين قالوا: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ

شَطَطًا ﴾ [الجن: ٤] والسَّفاهة خِفَّة الحِلْم[1] والشَّطط هو الإفراط في الغَلَط والتَّمادي في الغرور.

وبهذا اتجه نظرنا إلى مواقع نظرات الجن بين طبقاتهم المختلفة، فقد وجدوا إلحادًا وزندقة وشِركًا عند سفيههم، وهذا ليس اسمًا مفردًا بل هو اسم جامع لكل السُّفهاء، كما يوجد في القرآن اسم مفرد يدل على جمع المؤمنين في سورة التحريم عند قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم: ٤] فهذا -وإن كان اسمًا مُفردًا إلا أنه- إشارة إلى كل صالح من المؤمنين، وتقديره والصالح من المؤمنين أو وكل صالح من المؤمنين، فكذلك قالت الجن عن سفيه الجن بمعنى الشُّمول.

والمقصود أن السُّفهاء من الثَّقَل الجنيّ كانوا يقولون عن ذات الله -سبحانه وتعالى- كلامًا مَبْنِيًّا على اعتقاد فاسد مُمْعِن في الخطأ حتى بلغ درجة الشَّطط. ثم قرروا حُسْن ظنّهم بالثَّقلين جميعًا، وهذه مَيْزة كريمة من مؤمني الجن دفعت عنهم سوء الظن بعباد الله عندما قالوا: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الجن: ٥] وهذا يؤيِّد ما أشارت إليه الآية الكهفية، ﴿ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: ٥] وهذا الموقف الكريم من مؤمني الجن يدل على دماثة الخُلُق وسُمُوّ النفس ودقة الحِسّ وسلامة المشاعر فبالله عليك ألم تسمع أن الظَّانِّين بالله ظن السَّوء عليهم دائرة السوء؟

---

(١) الحِلْم: العقل الحكيم المتأمِّل وصفتها حليم.

فكأن الجن أَبَتْ -بإيمانها- أن تكون سيئة الظن بعباد الله، وهذا مُفْضٍ إلى سُوء الظن بالله تعالى، فما أسمى هذا المقام! وما أَجَلَّ هذا المقام! وكان حريًّا بهم في معرض الجَرأة على الكذب أن يبدأوا بالإنس؛ لأن الإنس كانوا أجرأ على الكذب كما أشارت الآية ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقد بدأ الله تعالى حينما ذكر عداوة الضَّالين للأنبياء حيث قال سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢] وزخرف القول باطله المُمَوَّه بصورة الحق، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٤٢].

ولَمَّا كان بدء الجن بذكر الإنس في موضوع الاجتراء على الكذب، فإنه يَرِدُ على النَّفْس طلب التعليل لتقديم الإنس على الجن في الكذب وفي العداوة للأنبياء، ونَاسَب هذا أن يقولوا في الآية التالية: ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦] أي تعبًا ونَصَبًا وعَنَتًا.

وهنا -ومن ثَمَّ- عَلِمْنا مدى الضَّلالات التي تَرِيس في حَمْأَتها جماعات من الذين كانوا كُلَّما حَزَبَهُم أمر استعاذوا بالجن، واستعانوا بِقُوَّتهم في قضاء مآرب ذاتية وشهوات ضالة، مما شقَّ على الجن أو على رجال منهم القيام بتلبية تلك الرغبات البشرية الضالة عن سواء السبيل، وما أرادت الجن بالرهق مجرد النَّصَب الماديّ ولا الإعياء الجِسْمَانيّ والمَبَاذِل الإنسيّة -وقد أشرنا إلى طرف من هذا المبحث في فصل«عبادة الإنس للجن» وأوردنا نفس الآية الكريمة. وإنما أردنا فقط أن نذكُر طائفة من الدَّجالين اتخذت الجن وسائل لإرهاب الناس وابتزاز أموالهم بالطرق التي نشرت عنها الصحف ما

يجعلنا في غِنًى عن إعادة ذكر (شمهورش) أو خليفته (مَيْطَطْرُون) وما إلى ذلك من الأسماء المُفْتَراة والطَّمْطَمَانِيَّات[1] المُخْتَرَعة التي يُهَمْهِمُ بها الدَّجالون باعتبارها من أسماء الجن الحُمْر أو السود أو الزُّرق، أو من أسماء الملائكة بلغة السريان. ومن هذا المبدأ الغريب نشأت كتابة التمائم والتعاويذ والخواتم الرقمية والمثلثات المتوازية الأضلاع مثل (مثلث الغزالي) القائم على تسعة أحرف: (بطد) - (زهج) - (واح). وأن مجموع الأضلاع هو (٤٥) وأن الضلع الواحد يساوي (١٥). إلى غير ذلك مما يسميه المشعوذون «علم الأوفاق».

وما كان هذا وذاك إلا إمعانًا من الإنس في تضليل الإنس باسم الجن والأرقام. فلقد تحدَّث الجن أنفسهم عن زَلَّة أولئك الأَناسيّ الذين جَهِلُوا أنَّ الله -تعالى- وحده هو المَعَاذ وهو المُسْتَعان؛ فلا استعاذة بسواه ولا استعانة بغيره.

وهذا -من سادة الجن ومؤمنيهم- تعقيب على الأحكام الضَّالة التي يُصْدِرها الإنس على الجن وعلى الله سبحانه وتعالى وعلى الحقائق الكونية. أعاذنا الله شر ذلك الضلال وأتم علينا الاستعداد لبلوغ الآمال.

ثم بيَّنَ -سبحانه وتعالى- في كتابه العزيز منهج الجن في الاستدلال، عندما تحدّث عن المستعيذين من رجال الإنس برجال من الجن حتى زادوهم رهقًا، حيث قالت الجن عنهم بعد ذلك: ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴾ [الجن: ٧] فرمَوْهُم -بهذا- بجريمة الكُفر بالبعث والنُّشور، ونَفَوْا عنهم الإيمان بالحياة العُلْيا.

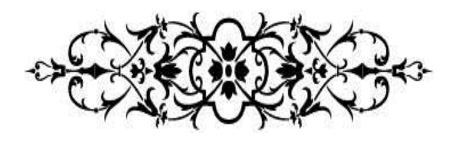
---

(١) طمطانيات: طنطنات صوتية بغير معنى وتقود إلى الضلال.

ثم برهنت الجن بعد ذلك على امتياز قوتهم في السَّبْح إلى الآفاق، حينما قالوا: ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ [الجن: ٨].

وبالجُملة فإن استعراض الآيات ورعاية وجه المناسبة بين كل منها وربط فواصلها من سورة الجن، يدل دلالة واضحة على عمق إيمان المؤمنين من الجن، ولِمَ لا وقد سجدت الملائكة كلهم أجمعون من نُورانيِّين ونَاريِّين لأبينا (آدم) طاعةً لأمر مولاهم، ما عدا واحدًا فقط من ملائكة الجن وهو الشيطان (عزازيل) كما يُسَمِّيه الزَّبور.

وقد آن لنا أن نمهد لخاتمة الجزء الأول من «الكتاب المكنون» راجين إلى الله سبحانه أن يُتِمَّ لنا نورنا لنبدأ الجزء الثاني بذكر أنواع الإعجاز العلميّ وغيره في كتاب الذكر الحكيم الخالد، وأن يشمل الجزء الثاني من كتابنا هذا -إن شاء الله- وُجُوه الإعجاز الُّلغويّ والفنيّ، وعلى وجه الخصوص القصص الفَنِّيّ أو الفَنّ القَصَصِيّ في القرآن الكريم. كما نذكر تاريخ تدوين المُصْحَف وما فيه من قراءات ولَهَجات تختلف باختلاف القبائل. وما إلى ذلك مما نسأل الله تعالى أن يجعله خَاتَم المِسْك لبيان ما استطاعت بصائرنا أن تنفُذ إليه من أنوار الأسرار القُرْآنيَّة ومطالع شموس الحكمة الإلهيَّة. ضارعين إليه سبحانه أن يجعله خالصًا لوجه الله ومنار هُدىً لجماعات المُبْصِرين من المفكِّرين الذين أنعم الله عليهم بتذوُّق الآيات من معانيها وتلمُّسِ الحكمة من أعاليها، مُعْرضين عن المكذِّبين المُفْتَرِين ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ٨٩]، والله -تعالى- يهدى إلى الحق وإلى سواء السبيل بصائر المهتدين.



المبحث الثالث:

انقطاع سُلْطان الجِنّ عن المؤمنين من الإنس

وذلك أن عباد الله الخالِصِي العبادة والدِّين له تعالى، قد مُنِحُوا من القوة الرُّوحية ما يجعلهم بمأمن من سريان أساليب الاستهواء الجنيّ الناريّ لهم؛ بما أفادوا من قوة اليقين التي أَهَّلتهم للدفاع الإلهيّ الذي به أيقنوا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [الحج: ٣٨].

ولأنهم من ناحية النسبة الآدمية قد زخرت قوة تكوينهم بخاصِّيتَيْ النَّار والنُّور معًا، ولَمَّا كان النور -لا بد أن يكون- غالبًا، تبيَّن أنه أمام ذلك النُّور لا بُدَّ أن يكون الشيطان خَنَّاسًا، أي هاربًا مُنْدَحِرًا إلى وَكْره.

كما ورد قول النبي ﷺ للفاروق (عمر) رضي الله عنه : «**مَا رآكَ الشَّيْطَانُ تَسْلُكُ فَجًّا إلاَّ سَلَكَ فَجًّا غَيْرَه**» هاربًا وَجِلاً من قوة (عمر) الرُّوحية الإيمانية.

ولولا هذه الخاصِيَّة ما نجا أحد من الإنس من ضربات الشيطان وذرِّيته، وقد قال الله سبحانه ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [الحج: ٥٢] بغض النظر عما تخبَّط فيه المتخبِّطون على هذا الطريق من حديث «الغَرَانيق».

وخُلاصة الرد عليها أن الشيطان الذي هو ممنوع من أن يُمَثِّل صورة النبي ﷺ في المقامات البرزخية أَوْلَى أن يكون مستحيلاً عليه أن يتدخل في إلقاء القرآن نفسه، وهذا ما قرره (فخر الدين الرازي) في كتابه «التفسير الكبير». فلا يُعْقَل أنه بينما كان النبي ﷺ يتلقى في سورة النجم ﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴾ [النجم: ١٩-٢٠] يتوقف الوحي، فيقرأ

الشيطان مقلدًا صوت النبي ﷺ مواصلاً للآيتين بقوله:

- تلك الغرانيقُ العُلا، وإن شَفَاعَتَهُنَّ لَتُرْتَجَى وشاعت بين المشركين فأقبلوا على النبي ﷺ يقولون: لقد ذكر محمد آلهتنا بخير، فأنزل الله سبحانه ما أحكم به الآيتين السابقتين ونفى به ما ألحقه الشيطان فقال تعالى: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢١-٢٣].

فما زعموا من تقليد الشيطان صوت محمد ﷺ عن قراءته ظاهر البُطْلان؛ لأنهم أقاموا هذا الرأي على أنَّ الفِعْل الوارد في الآية الكريمة «تَمَنَّى» معناه قرأ، ولا شيء عندهم يُرَجِّح هذا سِوى ما جاء في سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة: ٧٨] فيقولون إن معنى أماني هو قراءات، وهو زعم ظاهر البطلان أيضًا. وعِصْمة النبي ﷺ من تحريف القرآن مناسِبَة لِعِصْمة القرآن نفسه عن أن يُقَلِّد الشيطان آياته. لكن القوم بالقرآن يتلفَّظُون، نَاسِين قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

وحاصل معنى الآية الأولى موضوع التأويل أن الله تعالى يُواسِي رسوله ﷺ حِيال الذين يتساقطون في الكفر من حوله، بقوله جل شأنه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ ﴾ [الحج: ٥٢]-هداية أُمَّته- ﴿ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ ﴾ هذه بتضليل فريق من تلك الأُمَّة عن الحق، ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ ﴾ -تعالى- ﴿ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ بهداية من سبقت لهم الحُسْنى إلى الحق، ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ ﴾ على سبق تلك السعادة وتنسيق آيات القرآن ونَفْي الدخيل نفيًا فنيًا واضحًا، كما تُبَيِّن الآيات من سورة النَّجْم التي قدَّمنا منها ما

يتعلَّق بالبحث.

فلا محلَّ بعد هذا لتضليل الناس بزعم قدرة الشيطان على تمثيل صوت النبي ﷺ في نفس القرآن وهو كلام الله تعالى، كما قال عزَّ وعلا: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١-٤٢]. وهذا داخل -بمنطُوقه ومفهومه- في نِطاق حِفْظ القرآن الكريم من طُرُوء الباطل عليه في طلائعه ومطالعه وفواصله ومقاطعه.

وهكذا تنقطع حُجَّة هؤلاء المُؤَوِّلين الذين يَغْفَلُون عما تَصْدِمُه آراؤُهم من نصوص القرآن وصحيح السُّنَّة وقواعد التَّوحيد وأصول الأَحْكام.

وتمكينًا لروُحانيّة الكتاب المكنون نُقَرِّر أن نصوصه تَنْتَظِمُ الثَّقَلَيْن وتشمل الملائكة -عليهم السلام- بوصف كونه كتاب الله وكلامه الصادر عن صفة الكلام الأزليّة القائمة بذاته سبحانه، ويستحيل عليه البكم. إذًا فهو روح، نَزَل به روح، واستقبله روح، وفَهِمَهُ رُوح، والفَهْم هو الاستيعاب والتجاوب والتأثُّر والانفعال مع المعاني في جميع تطوُّراتها، كما كان ﷺ عند انفعاله بالتَّلقي والإلقاء معًا، وتجاوُب مشاعره عليه السلام مع القرآن.

وكما قال ﷺ صادقًا حكيمًا: «**شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَأَخَوَاتُهَا**» وهذا دليل على التجاوب والتأثُّر بتمثيل الحوادث التي كان يعيشها ﷺ بمشاعره عندما يمر على مواقع ووقائع الأنبياء والمُرْسَلين عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه الدائم المقيم نبيًا نبيًا، ورسولاً رسولاً، من (نوح) إلى (عيسى) عليهما السلام، الأمر الذي شَيَّبَ فَوْدَيْه.

فهذا هو مسُّ القرآن وهذا هو حق المُطَهَّرين من الملائكة والجن والإنس، ولا نظن أن الجن كان يُرَاد منهم ألا يلمسوا المصاحف أو يحملوها وهم على جُنابة؛ لأن القرآن إنما هو في الصدور لا في السطور كما استشهدنا آنفًا بقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨-٤٩].

الفصل الثامن:

افتتاحية:

عَلاَقَة المَسّ بالمَسْمُوع والمَفْهُوم من آيات الذِّكْر الحكيم

وإذا نحن قرَّرنا أن مُؤْمِنة الجنّ ورُسُلهم قَدَّسُوا القرآن بالمعنى الذي اتجهنا إليه بعيدًا عن المحسوسات المادية فإنما يؤيدنا فيما اتجهنا إليه أن الجن أنفسهم قالوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٣٠] كما قالوا بعد ذلك في سورة الجن: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١-٢].

ومعنى هذا أنهم بلغوا المرتبة الأولى أو هدف الأهداف وهو تَأبِيد التَّوْحيد، وأن ذلك كله نشأ عن مُوَازنتهم بعُقُولهم -بعد الاستماع- بين أَسْفار التَّوْراة وما تَلاَها من الكُتُب المؤيِّدة لها والمُصَدِّقة، وبين القرآن الذي وصفوه بأنه عَجَب، أي أنهم أُعْجِبُوا برُوحه ومفاهيمه ومضامينه العظيمة ومقاصده السامية وأهدافه العُليا، فعلموا فعلاً أنه ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾ أي الحق ﴿ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي واضح سَوِيّ.

إذًا فلم نتجاوز الحق عندما حَكَمْنا بالمَسّ الجنيِّ للقرآن الكريم واعتبار الماسِّين للقرآن من المُطَهَّرين، لا من المتطهرين من الأدناس والنَّجاسات الحِسِّية والحُكْمِيَّة التي أفاضت كُتُب الفقه في تفصيلها، وذهب البعض إلى أبعد من هذا حين أخذ يُعَدِّد أنواع المياه التي يمكن صِحَّة الطَّهارة بها.

فأين بالله عليك من يستطيع أن يُنْكِر أن الجن المؤمنين -رضي الله عنهم- لهم أسماع واعية وقلوب صاغية ونفوس راضية بعد أن قرَّر مُحْكَم الذكر في صراحة أنهم سمعوا وفهموا وحقَّقُوا وأقاموا مُوَازَنات ومُقَارنات بين هذا القرآن وبين ما سبقه من بعد (موسى) إلى (المسيح) عليهما الصلاة والسلام، وهو جَهْد مبرور وسَعْي مشكور تَرَتَّب كله على مجرد السَّمْع والتأثر بالمسموع، فمن حقنا كذلك أن نقارن بين هؤلاء وبين أولئك من الأناسيّ ﴿ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴾ [الأنفال: ٢١]؛ لأنهم من شر الدواب عند الله بوصف كونهم ﴿ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ .

فهل أمثال هؤلاء إذا اغتسلوا جيدًا وقالوا بألسنتهم: نويتُ رفع الحَدَث الأكبر عن سائر أعضاء الغُسْل، أو الحدث الأصغر عن سائر أعضاء الوُضُوء. فهل نُسَمِّيهم بعد هذا مُطَهَّرين؟ أم هم مُتَفَعِّلُون للطُّهر، بالقياس الصَّرْفي لأنهم مُتَطَهِّرُون؟ وليسوا مُطَهَّرين متى عَلِمْنا من هم المطهرون بالفعل من أول هذا الجزء من «الكتاب المكنون».

وإنما قلنا هذا ببواعث إلهامية بريئة لا نَرْمِي من ورائها إلى هدف فانٍ أو نصيب من الغَثّ والسمين بين حوائج هذه الدُّنيا، إنما أردنا بذلك خدمة الحقائق الذاتية في أقدس كتاب مُنَزَّل وابتغاء رضوان الله، وهو وليُّنا وهو نعم المولى ونعم النصير.

ولنا هنا عَوْد على بدء؛ تعقيبًا على ما سبق:

فإنه يبدو أن حاسَّة السمع في الإنسان هي في سِمَاخ أُذُنه، ولكنَّ سماخ الأذن عندما يصل إليه الصوت ويتلقَّاه بخاصيَّته السمعية، لا يكفي دليلاً على حُصُول السمع فعلاً؛ لأن حاسة السمع من الصفات المشتركة بين الإنسان

والحيوان الأعجم، فكل هذه الدواب من العَجْمَاوات تسمع وترى وتَشُمّ وتَذُوق ولكنَّ هذا لا يعطيها قوة البلوغ إلى مرتبة الإنسان في فهم المسموع فهمًا فَعَّالاً في النفس، التي هي خاصَّة الإنسان كما أنها خاصَّة الجان الذين لا يسمعون بالسِّماخ الأذنيّ، ويمتاز المؤمن من الثَّقَلين كليهما بتلقِّي قوة السمع الذاتية من السميع الأعلى سبحانه، ويكون ذلك -والحال كذلك- تجليًا مباشرًا مُمِدًّا من صفة السمع الأزلية.

ويتَّضح لنا هذا من كتاب الله عندما يقول تعالى وقوله الحق: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ ﴾ [النمل: ٨٠] مع أنه تعالى يقول:
﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ٤٢] على أنه سبحانه أثبت بعد هذا أن على قلوبهم أكِنَّة أن يفقهوه، فجعل هؤلاء -بعدم التَّفَقُّه في الآيات- شر الدواب بقوله جل شأنه: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ ﴾ أي بالإمداد اللَّدنيّ من صفة السمع الأَزليّ كما قلنا آنِفًا، ولكنه عَلِم -جل وعلا عُلُوًا كبيرًا- أنه لا خير فيهم، وعلى هذا قال سبحانه: ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٢-٢٣] لأنهم لا يفقهون.

وَلَوْ فَقِهُوا مَا أَعْرَضُوا عَنْ نِدَائِهِ — وَصَارُوا عَبِيدًا فِي الحَيَاةِ لَمَا يَفْنَى
وَضَلّوا وَنُورُ الشَّمْسِ مِلءُ عُيُونِهِمْ — يَزِيدُ بِهِ المَجْلَى لِمَنْ أَبْصَرُوا حُسْنَا
وَللسَّمْعِ بِالإِيمَانِ أَقْوَى عَلاَقَةٍ — ولِلبَدْءِ بِالإِيمَانِ عَاقِبَةُ الحُسْنَى
هَدَاهُمْ بِهِ سَمْعًا وَعَيْنًا بَصِيرةً — فَمَا تَرَكُوا عِلْمًا وَلاَ جَهِلُوا فَنّا

تَجَلّى لَهُمْ فِي كُلِّ شَيءٍ مَحَبَّةً فَقَالُوا بِهِ عِزًّا وَنَالُوا بِهِ أَمْنَا

وَأَسْمَعَهُمْ مَا شَاءَهُ لِقُلُوبِهِمُ فَلِلّهِ مَا أَسْمَى هُدَاهُ وَمَا أَغْنَى

وَأَلْقَاهُ بَيْنَ الجِنِّ وَالإنسِ نِعْمَةً فَلاَ أَثَرًا فَاتُوا هُدَاهُ وَلاَ عَيْنَا[1]

وَلَنْ يُسْمِعَ المَوْتَى بِغَيرِ مَشِيئَةٍ وَهَلْ يَسْتَوِي البَاقِي العَلِيُّ وَمَنْ يَفْنَى؟!

لذلك ينادى الذين آمنوا دون سواهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

فواعجبًا كيف تسأله أيها المُعْرِض عنه أن يستجيب لك وأنت لا تستجيب له؟! والواقع أنك لو سمعت لاستجبت، ولكنه لَمَّا حِيلَ بينك وبين قلبك وبِتَّ أَصَمّ، والأصم أبكم وكلاهما أعمى مُغْلق الأبواب. فمن أين يصل إليه النور؟ ومَثَلهُ كما قال تعالى: ﴿ أَوۡ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحۡرٍ لُّجِّيٍّ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٌ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٌ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٌۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠] وجَعْل النور مع منح الإيمان يُراد به الهداية.

والاستجابة للرسول ﷺ لا تتأتَّى إلا بعد الاستماع للدعوة وهي متوقفة على هذا الشرط؛ إذ كيف نستجيب لما لم نستمع إليه أصلاً؟! ولذلك قرّر سبحانه وُجُوب الإنصات وهو يقول عزَّت ذاته ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ

---

(١) أثر الشيء وعينه: أي حقيقته الذاتية «عينه» وتأثيره وانعكاسه على النفس الإنسانية «أثره». وجمعها الآثار والأعيان.

فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] لأن الاستماع والإنصات مبعث النور، وهل توجد رحمة أعمق أثرًا في القلب من وصول النور إلى عينيْ الأعمى ليصبح بصيرًا؟!

فبهذا تبيَّن وجود العلاقة الوثيقة بين السمع الحقيقي وبين حصول الهُدَى بالنُّور الذي يُشِعّ في نفس السميع المؤمن، سواءً كان من الجن أو من الإنس وتحرُّرنا بهذا من ناحية السِّماخ الأذنيّ الذي هو ليس للجن ولا للملائكة وتنزَّه عنه الله -سبحانه وتعالى- فهو السميع سمعًا مُطْلَقًا لا يتقيَّد بحدوث الأصوات، كما استجاب لنبيه (زكريا) عليه السلام عندما ناداه نداءً خفيًا، وكما استجاب لـ(يونس) عليه السلام وهو مكظوم داخل بطن الحوت. فسبحان من أودع أسراره ونشر أنواره وأينع أزهاره وقَلَّبَ ليله ونهاره.

ولنا بهذه المناسبة أن نُنْعِم النظر في العلاقة بين هُدَى القلب وقوة السمع في قوله جل شأنه: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [الروم: ٥٣] فإننا نجد أن الهُدى مترتِّب في هذا النص على قوة السمع للرابطة الوثيقة بين أول الآية وآخرها، فقد أثبتت أن الرسول ﷺ ليس قادرًا على هداية العُميان الذين ترتَّب عماهم على أنهم كلما ذُكِّرُوا بآيات ربهم خرُّوا عليها صُمًّا وعُمْيانًا، أي أنه لولا الصَّمم ما كان العمى، فكانوا يسمعون ظواهر الحروف والأصوات بصورة سطحية لم تتغلغل في صدورهم ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ ﴾ [غافر: ٥٦]. لذلك ناسب أن يقول بعد تقرير عماهم وعجز الرسالة عن هدايتهم ﴿ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [الروم: ٥٣].

ورُبَّ سائل يسأل: ما هو ذنبهم إذا كان الله لم يشأ لهم أن يسمعوا؟

والجواب على هذا الإشكال أجاب عنه سبحانه وتعالى في الآية التي مرت من قبل[١]، إن علمه -تعالى- أزلاً بما في قلوبهم من كِبْر جعلها في أكنَّة وما في آذانهم من وقر أصمَّها عن السمع، أدى إلى العلم بألا فائدة من إلقاء القول إليهم فقال عزَّ مِنْ قائل مُرْدِفًا: ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢٨] بسبب ما ران على قلوبهم من آثامهم ومخازيهم وانكبابهم على ارتكاب المنكرات في سبيل حب الدنيا، الذي هو رأس كل خطيئة.

فهؤلاء الذين أحاطت بهم خطاياهم وحاصرتهم آثامهم وجناياتهم قوم لا أمل في هُدَاهم على يد رسولهم، وهنالك لا يكون إلا المآب والعرض في يوم الحساب. وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾ [النور: ٣٩] وقد أشار إلى هذا المعنى تمامًا في قوله في سورة الأنعام: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وهؤلاء الذين قال عنهم: ﴿ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٦]، وهم الذين قال تعالى عنهم: ﴿ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

---

(١) ونصها: ﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٣].

ولكن ماذا يضر الشمس في رائعة النهار كفران العُمْيان بها وإنكارهم لها؟! ﴿ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢] الذين كفروا الروحانية القرآنية والحقائق الكونية والآيات البينات وصوادع المعجزات ﴿ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ ﴾ [يونس: ٣٩] وهؤلاء أنفسهم الذين إذا تُلِيت عليهم آيات الله خَرُّوا عليها صُمًّا وعُميانًا وقالوا: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦]. ولكن ما هم بغالبين والقرآن غالب، فبينما كانوا من بُلَغاء العرب وفُصَحائهم وشُعَرائهم من حيث الصيغة والعبارة والأسلوب والجَرْس الحَرْفِيّ، لم تستطع حرارة القرآن أن تصل إلى قلوبهم الهامدة لتنهض بالحياة ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ [فصلت: ٥].

أرأيتَ -أيها المؤمن- ما هو المراد من الذكر الحكيم وراء الألفاظ والعبارات والرموز والإشارات، بل وراء الأرض والسموات؟

أرأيت كيف يأخذ بأيدي الحائرين في متائه الضلالة وبيداوات الجهالة، إلى حيث ذلك النور المتألق والفيض المتدفق الذي يقول عنه منزله ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ ﴾ المبصرين ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى: ٥٢].

وهِدايته ﷺ بترتيل الكَلِم الأزليّ المعنَى ترتيلاً كانت ترتجف له القلوب وتنهمر العَبَرات، وما كان ذلك إلا أثرًا مباشرًا للإيمان برُوحانيّة القرآن الكريم والانضواء تحت لوائها الوضَّاء.

وكانت دعوته ﷺ إقامة لحُجَّة الله عليهم، وسوف يعترفون يوم القيامة بأن أسماعهم كانت موقورة وأن عقولهم كانت مقبورة؛ بقولهم: ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠-١١].

ثم ألا ترى أيها المؤمن اللبيب كيف قال الله سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٧٢] مع أنه قال عنه في الكتاب الكريم: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢] أي تهدي الذين آمنوا برسالتك فأنارت قلوبهم وهؤلاء هم الذين عليك هُدَاهم وإليك مَدَاهم.

وهم أولئك الذين لم يُنْهِ -سبحانه- إنزال سورة البقرة حتى قال عنهم: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وكذلك قبل أن ينهى -جلَّت حكمته وتباركت مشيئته- سورة آل عمران حتى قال عنهم: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠] ثم يَسْرِد خِصالهم بقوله جلَّ وعلا: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝١٩٢ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝١٩٣ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ١٩١-١٩٤].

ثم قَفَّى على هذا الدعاء الواعي العميق من المؤمن السميع بالاستجابة لهم: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ

بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٥] وهكذا استجاب سبحانه للذين استجابوا لنداء الإيمان ﴿ لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾ [الرعد: ١٨][1]. ولم يَبْقَ طَيْفٌ من الشك في أنه سبحانه وتعالى إنما يشاء للمؤمنين السَّمع؛ لِما تَعَلَّق به علمه أزلاً، ولم يشأ للذين كفروا؛ لتعلُّق العلم الأزليّ بكفرهم وإعراضهم.

والعلم في باب القضاء والقدر لا يجيز على حصول المعلوم؛ لأن العلم انكشاف الحقائق للعليم، فمهد لِكُلٍّ سبيله: فإما السعادة للذين أحسنوا الحسنى وزيادة، وإما إلى الشقاء طِبْقَ ما انكشف له من أعمال عباده التي اقترفوها مختارين لها مُنْدَفِعين إليها غير مُكْرَهين عليها. فكان جزاؤهم جزاءً وفَاقًا ولُزُومًا طِباقًا؛ لأنه العدل ﴿ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ﴾ [الجن: ٢٢]، ﴿ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ﴾ [الكهف: ٤٩].

هَلْ تَرَى يَظْلِمُ الرَّحِيمُ رَحِيمًا	**أَوْ يَكُونُ النَّعِيمُ مِنْهُ جَحِيمًا**
أَوْ يَضِيعُ العَذَابُ فِيهِ هَبَاءً	**وَمَا زَالَ دومًا بالعبادِ عَليمًا**
صَبَرَ المؤمنون والكَرْبُ يَغْلِي	**بَيْنَ أَحْشَائِهِمْ عَذَابًا أليمًا**

(١) ومن هذا القبيل في تكريم أزلية الروح غُسل الميت والصلاة عليه، وما الصلاة عليه سوى إفاضة من روح فاتحة الكتاب ودعاء للميت بالمغفرة بعد الصلاة على النبي ﷺ ، فنحن لا نعني بذلك توجيه هذه المعاني الكبيرة والروحانيات العظمى إلى جسم الميت الهامد، ولكن نبعث ذلك من الروح إلى الروح.

فِي رِضَاهُ العزيزِ أخلدُ كَنْزٍ عند قلبٍ يَلْقَى الإِلَهَ سَلِيمَا

ويُعَانِي الآلاَمَ فِي حُبِّ مَوْلاَهُ يَغْدُو عَلَى ثَرَاهُ كَرِيمَا

إِنَّ للصابرين مَقْعَدَ صِدْقٍ كَانَ مِلْكًا للسَّامِعِينَ عَظِيمَا

سَمِعُوا فَاهْتَدَوْا بِنُورٍ عَلِيٍّ وتَلَقَّوْا هُدَاهُ ذِكْرًا حَكِيمَا

فَمَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ لَدَيْهِمْ وَهِيَ تَغْدُو عَمَّا قَلِيلٍ هَشِيمَا

إِنَّمَا البَاقِيَاتُ خَيْرٌ وَأَبْقَى فَاسْتَقِمْ لِلْهُدَى سَوِيًّا قَوِيمَا

وَامْضِ نَحْو العُلا وَلاَ تَنْأَ عَنْهُ وَاتَّخِذْ مِنْهُ لِلرَّحِيقِ نَدِيمَا

وَابْغِ حُسْنَ الْمَآبِ نَحْوَ هُدَاهُ وَاحْيَ بِالكَهْفِ إِنْ رَأَيْتَ رَقِيمَا

على أنه وإن كان (القاضي عِيَاض) قد أورد في كتابه «الشِّفاء» خبرًا عن صفة النبي ﷺ في التوراة نصُّه:

يا أيها النبيُّ إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحِرْزًا للأُمِّيين، أنت عبدي ورسولي، سَمَّيْتُهُ المُتَوَكِّل، لا هو بفظٍّ ولا غليظ، ولا متزيِّن بالفُحش، ولاَ قَوَّالٍ لِلْخَنَا[1]، أُسَدِّدُهُ لكل جميل، وأَهَبُهُ كلَّ خُلُقٍ كريم. وأُسْمِعُ بِهِ آذانًا صُمًّا وأفتح به قلوبًا غُلْفًا، وأَجْمَعُ به بين قلوبٍ متفرقة وأممٍ مختلفة، ولن أَقْبِضَهُ حتى أُصْلِحَ بِهِ المِلَّةَ العوجاء بأن يقولوا «لا إله إلا الله» وأجعلَ أمته خير أمةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاس.

---

(١) الخنا: الغدر أو الخديعة أو الكذب والزُّور.

إلا أنه على فرض صحة النص رفعًا، فإنه لا يعني بقوله: «وَأُسْمِعُ بِهِ آذَانًا صُمًّا» في الحال بل التقدير، وأُسْمِعُ آذانًا كانت صُمًّا قبل دعوته، فيكون الحاصل أن الصُّمَّ لا يسمعون وأن الذين لا يسمعون لا يهتدون؛ لأن هؤلاء هم الضَّالُّون وأن هذا الضلال هو العَمَى. فانطبقت وجوه النسبة بين هذا الذي قرَّرْناه وبين الآية الشريفة ﴿ وَلَا يَسۡمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٤٥] أي إذا تَوَلَّوْا مُعْرِضين بعد إنذارهم كما يظاهرها النص الكريم.

إذًا فهذا القرآن إنما هو شفاء كما هو هُدى، ولكنَّ الهُدَى الذي هو هُدَى الله أصل والشفاء فرع لهذا الأصل، وخَصَّص بذلك الذين آمنوا دون سِوَاهم، ولم يجعله شفاء للذين كفروا؛ لأنهم ضلُّوا به وما اهْتَدَوْا.

والشفاء لما في الصدور من شُبهَات وألوان من الحَيْرَة والتَّردد والرَّيْب، وما إلى ذلك إذ هي أدواء متعددة وأمراض تعتَرِي القلوب فتكون حائلاً بينها وبين الإفادة من هذا الهُدَى.

والنص واضح الدلالة على هذا الذي اتَّجهنا إليه في قوله سبحانه: ﴿ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴾ [فصلت: ٤٤] فهذا الكتاب أسمى من مستوى هؤلاء العُميان الصُّم البُكْم الذين قَسَتْ قلوبهم من ذكر الله، كما قال جلَّ قدره: ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر: ٢٢]فصار عليهم عَمَى، فلا يكون لهم منه هُدى وشفاء، ويُعَزِّز هذا قوله تعالى: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧] ثم أخذ سبحانه يُبين مظاهر إعراضهم عنه وأدلة أمراض قلوبهم، حين بيَّن أنهم ﴿ وَيَقۡطَعُونَ

مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ لا من الأرحام فحسب -كما يزعُم البعض- بل من كل ما يجب أن يكون عُرْوة للصلة الروحية الدائمة بين العبد وربه، فلما انْحَلَّت تلك العُرْوة صاروا يتخبَّطُون على غير هُدىً ﴿ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ وهذا -بعينه- هو تصرف العُمْيان حقًّا واقتضاءً وقانا الله شر العَمَى والعَمَه ومَنَحنَا من هُداه العليّ ما يُشْفِي صُدُورَنا، إنه المولى المُلْهِم الحميد.

ولا يفوتنا -في هذا المقام- أن نشير إلى حال الجن في تلاوة القرآن ورعاية آداب التلاوة، إلا أن القرآن الذي أثبت لهم أسمى درجات أدب الاستماع المُقْتَرِن بالإنصات والتأثُّر بالمعاني، مما يدل على جدارتهم -أي المؤمنين منهم- بالتزام أدب التلاوة.

ولم يَرِدْ في القرآن أنهم كانوا مِثْلَ أولئك الأناسيّ من العرب الذين كانوا يُعْرِضُون عن الاستماع فيمر الواحد منهم بالآيات كأن لم يسمعها، وبحسب الجن براءتهم من هذه الوَصْمة.

على أن تلاوتهم ربما كانت مسموعة لبعض الإنس أيضًا، فقد سمع أهل الندوة بآذانهم صوت ذلك الهاتف الجنيّ الشاعر الذي أشرنا إليه، فالذي يستطيع أن يُسْمِع الإنس صوته بالشعر يستطيع كذلك أن يُسْمِعَهم صوته بالتلاوة.

ويحضرني الآن ما سمعتُهُ بأذنيّ بعد عِشاء ليلة من ليالي الصيف، بينما كنت جالسًا أمام حديقة في سطح المقطم بجوار مسجد (ابن الفارض) قارئًا خفيًا، بدأتُ أسمع تلاوة عندما هَبَّت الريح. وكان يقرأ من كتاب الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَرِثُ ٱلۡأَرۡضَ وَمَنۡ عَلَيۡهَا وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ [مريم: ٤٠] وكان صوته يُدَوِّي دويًا كبيرًا، وبطريقة عَلَّمتني كيف تكون التلاوة الصادرة من القلب لا من

الحنجرة وحدها، ومنذ تلك الليلة سَمَّيْتُ هذه التلاوة بالتلاوة التعبُّديّة؛ لأنها كانت لائقة بسكان المعابد الذين تُوحِي أصواتهم حين التلاوة بالرهبة والجلال.

فأين نحن من هذا الأدب والعمق، والكثير من قرائنا يَتَغَنَّوْن بآيات الكتاب حتى وإن كانت للزجر والتحذير والإنذار؟ فتضيع المعاني بين أمواج ذلك النغم والتلحين كأنما هو للإمتاع لا للاسْتِمَاع، وقانا الله شرهم ونَجَّانا مما أَعَدَّ لهم. وأذكر أني ضِقْتُ ذَرْعًا بميوعة الإلقاء حال تلاوة الكتاب في محفل جامع فلم أتمالك أن نهضت قائمًا وألقيتُ في الجمع قصيدة أنتقد فيها كل أنواع التلاوة التي تضع نُصْب عينيها تلحين الأداء ولا تتعمق في محاولة بسط المعاني والدِّلالات والمضامين.

وكأني بالرسول ﷺ يشير إلى مثل هذا العهد حينما قال: «**وُلِدَ الإِسْلاَمُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ**» إِيْ وربي إن الذين يوجِّهون هذه الموجات التلحينية، التي حرفت ألباب الناس عن لُبَاب القرآن الكريم ومعاني الذكر الحكيم يتعرضون لغضب الشعب الذي اتسعت الهُوَّة بينه وبين لغة القومية العربية، التي بها نزل القرآن ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ ﴾ [إبراهيم: ٤] فضاع البيان واهتزَّ البُنْيان وضَعُف الكِيَان وهم لا يشعرون إن كان لهم أَمْ عليهم ﴿ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ ﴾ [النحل: ٤٤] وقد صدع بالأمر عليه الصلاة والسلام وبَيَّن ونادى في حجة الوداع: «**أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ**» فما هو نصيب أولئك المتخلفين المتنغمين من ذلك البلاغ المُبِين فاللَّهم لُطْفًا.

وهكذا أصبح الداعي غريبًا بين أهله وقومه وبين أمسه ويومه، وقد أحسَّ ﷺ ما كان يُحيط به من إعراض الناس عن الذكر، وهم لا يزدادون إلا نفورًا ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾ [الفرقان: ٣٠] بينما تَلُوكه الألسنة وتتناوله الأفواه. فما كان ذلك الهجران للقرآن سوى هجران معانيه مع الإعجاب بحُسْن مبانيه، وهكذا كانوا مستكبرين فضلُّوا وكانوا مستبصرين وصار القرآن بينهم غريبًا مهجورًا، والآية نص على أن المراد بقوم النبي ﷺ هم الذين بُعِثَ فيهم وأُرْسِلَ إليهم وجاءهم من أَنْفُسهم نفحة لؤلؤ وضيء من أَنْفَسهم، وهم عنه يلهون ويصُدُّون الناس عن سبيله، وعن الصلاة ينهون.

وكم على هذا من أمثلة أوردها الكتاب المبين ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ۝٣٦ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ ﴾ [الزمر: ٣٦-٣٧].

فبربك قل لي: ألم يكن هؤلاء -بِشِرْكهم وجُحُودهم- نجسًا متجسمًا لا يمسّ القرآن ولا يتأثر بالبديع ولا بالبيان؟

والحق أيها المؤمن الورع أنه تنزيل من حكيم حميد، وأن به حكمة بالغة ونعمة سابغة تُثَبِّت الفؤاد وتهدي إلى الرشاد، وهذه مرتبة عظمى ومشهد أسمى ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ ﴾ [هود: ١٢٠] ويُضِلّ به أعداءك، فأَنَّى للغافلين عنه ذِكْرَاهم؟ وأَنَّى لهم -وهم غَرْقَى الحياة الدُّنيا- النظر في أُخْراهم؟ ﴿ وَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكۡرٗا ۝٩٩ مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ۝١٠٠ خَٰلِدِينَ فِيهِۖ وَسَآءَ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ حِمۡلٗا ﴾ [طه: ٩٩-١٠١].

اللَّهم رب السموات والأرض وما بينهما، نضرع إليك أن تَحُول بيننا وبين من أعرض عن ذكرك، ولم يعبأ بنهيك وأمرك. واجمع بيننا وبين من اصطفيتهم لمحبتك واجْتَبيتَهُم لمودتك، وأَنْعِم علينا ربنا بصلاح البال وحُسْن المآل، وأَشْعِرنَا بذُلّ العبودية لك في كل حال، وأَسْبِغ علينا دُروعًا من عنايتك، تدفع عنا نَزْغ الشيطان، وامنحنا يا بارئنا روحًا من رعايتك تَهْدينا مسالك القرآن، واجعله شفيعًا لنا، ورحيقًا مِزَاجه من تسنيم يروي ظمأ قلوبنا ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

نافلة القول:

مبحث الباحثين:

القُرآن مِفتاح الإلهام ومِرْآة الأَفْهام

وعندما أنعمنا النظر في براعة المقطع من سورة الكهف، رأيناه سُبْحانه وتعالى يقرِّر للمؤمنين الذين أَثْمَرَ إيمانهم أعمالاً صالحة وآثارًا خالدة، بقوله عز شأنه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ۝١٠٧ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا ﴾ [الكهف: ١٠٧-١٠٨]. وبهذا منحهم أعلى درجات الجنة، كما أجمعت الأحاديث المرفوعة على أن (الفردوس) أعلى درجات الجنة وأقرب هذه المرفوعات قوله ﷺ : «**إذا سألتُم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى درجات الجَنَّة**».

فلما خَصَّ -سبحانه وتعالى- المؤمنين الذين يعملون الصالحات بأعلى وأسمى درجات الجنة، ناسب أن يقول شيئًا عن النور الذي هداهم إلى ما بلغوا إليه من الزُّلْفَى عنده وسُمُوّ المنزلة لديه، فقال تعالى: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩] ليشعر الحليم من عباده بأن هذا القرآن إنما هو ذلك النور الذي ارتقى بالذين آمنوا به إلى المستوى الفردوسيّ الأعلى؛ ليَرِدُوا منهله الأعذب الأحلى، ويشهدوا حسنه الأعلى، وأن هذا الكتاب هو وحده بوحيه الروحيّ الذي حمله آخر المُرْسَلين محمد ﷺ ، ولم يكن لديه من ثروة سوى هذا الوحي، الذي به امتاز على الذين هم حوله من أهله وعشيرته ومن الأُميِّين، الذين أشار إليه وإليهم قوله سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي

ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢] وهكذا ناسب أيضًا أن يقول عمّا أشرنا إليه، مُعَقِّبًا على آية عدم نفاد كلمات الله ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الكهف: ١١٠] وبهذه الزُّبدة الكلية لرسالة الكتاب ورسالة الرسول -التي هي هدف الأهداف وميزان الاستشراف- جعلها الزاد الخالد لهؤلاء المُوَحِّدين الموصُوفين في قوله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

وما كان حمد الحامدين له إلا على مقدار علمهم بالمحمود عليه والمُسْنَد إليه .. وما هذه العلوم التي يعلمونها عنه تعالى إلا أقل القليل؛ حيث لا تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] وقد صدق ﷺ حين قال: «**أعوذُ بك منك، ولا أُحْصِي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ على نفسك**» ونقول حيال ذلك إن الحمد إذا تعلَّق بشيء معلوم بالإحاطة كان قريبًا من المُطَابَقة؛ لأن الحامد -حالتئذٍ- يكون على علم تام للسبب الذي أدَّى إلى وقوع الحمد منه، ولكن إذا كان الحمد متعلقًا بما لا يمكن الإحاطة به إحاطة تامة، كان حمدًا عاجزًا عن تقدير المحمود عليه؛ لعدم إحاطة العلم به عند الحامد.

وهذه اللطيفة من لطائف الحِكَم نعلم منها أن خير الثناء إنما هو ثناء الله على نفسه؛ لإحاطة علمه، ولا يعني ثناؤه -جلَّ وعلا- على نفسه صورة التَّفاخُر، ولكنه تقرير لعظمة المحمود والمحمود عليه من فضله.

وتقدير العظمة ينصبّ في مطلع الكهف على مجرد تنزيل الكتاب بقوله: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ [الكهف: ١] وهذا تنويه واضح بفضل الكتاب وسُمُوّه وعظمته، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ

سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴾ [الحجر: ٨٧] في عليائه وعزّته وحكمته: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤] وكذلك ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴾ [فصلت: ٤١].

كل هذا -على سبيل المثال لا الحصر- ما اقترن بمطلع الكهف من إشارات عموم الإحاطة وعدم نهايتها وتقرير الأبديّة، وخَتَمَها سبحانه وتعالى بإعلان الوَحْدَانيّة المُطْلَقة ووُجُوب تنزيه العبادة عن الشِّرك، حيث بيَّن أن بين عباده من يعبد الله فعلاً، ولكنه يُشْرِك في هذه العبادة غيره، بقوله جلَّت عزته: ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ [الكهف: ١١٠] فكان حريًا به أن يحذرنا من الشِّرك في العبادة، كما حذَّرنا من الشرك في الذات.

فأولئك الذين يركعون أمام الله، ويركعون أمام الناس مشركون بالعبادة من ناحية الهيئة ومن ناحية العقيدة، متى كان ذلك الركوع منهم أمام الآحاد من الناس مقترنًا بتحقيق أمل في الخير أو دفع ألم في الشر، فقد أشار تعالى للمؤمنين بقوله: ﴿ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا ﴾ [السجدة: ١٦] أي خوفًا من غضبه وطمعًا في رحمته.

فإن كان هؤلاء المشركون بالعبادة يركعون أمام الناس أو آحادهم خوفًا منهم من الضَّرر أو طمعًا فيهم من النَّفع، كان عملهم هذا شِرْكًا جليًا؛ فلقد جاء هذا الدين أولاً لتحرير رقاب الناس من العبودية للناس، ليرفعوا رؤوسهم ويطهِّرُوا أنفسهم من الذُّل لغير الله تعالى أو الاعتماد على سواه.

ومن هذا المنحى كَثُر الاختلاف بين الناس على مفاهيم القرآن الكبرى ومراميه العليا ومضامينه الخالدة أبدًا.

ونحن نكرر الضراعة إلى الله -تبارك وتعالى- أن يحفظ مشاعرنا من الضلالة، وأن يطهر سرائرنا من أوهام الجهالة، وألا يدفع بنا إلى ما اندفع إليه المُسْرِفُون.

اللهمَّ فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت سبحانك تحكُم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون.

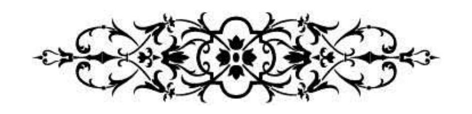
وختام المِسْك نجوانا إليه سبحانه مُخْبِتِين في صدق إنابة وحسن استجابة.

مولانا وبارئنا، روح الأرواح ونور الأنوار وسر الأسرار، حمدًا لك اللهم على ما ألهمتَ وعلَّمت، وشُكْرانًا لعوارف فضلك على ما بيَّنتَ وأفهمت. ما كانت قلوبنا إلا صفحات بيضاء كتبتَ عليها ما تشاء، ونحن من نسبة وجودنا إلى أنفسنا أبرياء؛ إذ إنه لا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فاجعل اللهمَّ نجوانا إليك صلاة دائمة بدوامك باقية ببقائك على من طَهَّرْتَه واطصفيته لرسالتك، واجتبيته لوُدِّك ومحبتك، واخترته حامل لواء حمدك، فَآتِهِ الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود الذي وعدته، إنك -سبحانك- لا تُخْلِف الميعاد.

واجعل اللهمَّ هذا سلامًا من السلام عليه، وروحًا فيَّاضًا من الكرم إليه، حتى نلقاك تحت لوائه موحِّدين، بك مؤمنين لك مخلصين، لا خزايا ولا ندامَى.

ومَتِّعْنَا -يا الله- بدوام النظر إلى وجهك الكريم ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].



خاتمة الكتاب

في شَهادة أساطِين عُلَماء الغرب بعَظَمة القرآن

جاء في المُجَلَّد السادس من «دائرة المعارف الإنجليزية» تأليف الدكتور (تشمبرس) عن اسم «قرآن» ما تَعْرِيبُه:

أهمّ تعاليم القرآن هو الإيمان بأن الله واحد وأن دينه واحد، والإيمان بيوم البَعْث والنُّشور، وأن الله -تعالى- قد أرسل الأنبياء قديمًا؛ ليَرُدّ الناس عن ضلالهم باتِّباع الهُدى، وكلام القرآن بديع بليغ متين. فإذا قيل إنه كلام الله وإنه مُعْجِز، فليس للناقدين إليه من سبيل؛ لأنه فوقهم ولم يُضَاهَ بفصاحته وأسلوبه وسائر فضائله.

وقال (بيتن بينس) في كتابه «دائرة المعارف على الأشياء المُقَيَّدة» في المُجَلَّد الرَّابع عن اسم «قرآن» ما تعريبُه:

إنه مُصَحِّح ومُعَدِّل علم الأخلاق الأدبية والتَّمدُن وعلم السياسة والقَصَاص وتجنيد الجيوش في الإسلام، هذا هو تعريفه للقرآن وأضاف فقال: وأهمّ تعاليمه توحيد الله تعالى.

وجاء في المصدر نفسه عن اسم (محمد) ﷺ ما تعريبه:

لقد نَظَّم محمد وعدَّل شريعة تُقَدِّر الزوجات، وحرَّم شُرب المُسْكِرات، وحرَّم القِمَار وغير ذلك من القبائح، كما حرم وَأْد البنات، وحضَّ على اكتساب الفضائل والآداب.

وجاء في كتاب «تاريخ البرازيل وسكَّانها ومحْصُولاتها» المطبوع سنة ١٨٦٥م بمطبعة «جمعية طبع الكتب الدينية بلندن» ما تعريبه:

جميع العبيد سكان البرازيل الأصليِّين، المُتَنَصِّرين، لم يزالوا متمسكين بعقائدهم القديمة، بخلاف العبيد الذين سُرِقُوا وسُبِيُوا في أفريقيا وبيعُوا أَرِقَّاء في (البرازيل)، تراهم متمسكين بعقائدهم الإسلامية أَشدَّ تمسُّك.

وقال المستر (ستانلي لان بل) في مقدمته على كتاب «مُنْتَخَبات لُبان[1] القرآن» ما تعريبُه:

كل من يتَّبِع القرآن يعلم كيف كان نُمُوُّ دين محمد ﷺ ويرى أعمال فِكره الثَّاقب العجيب، ومُكافحاته لأسرار مصنوعات الله البديعة. كما يرى مكافحته للأوهام التي مُلِئَت بها صدور الكافرين حتى لأَشَاها[2]. فمن يدرس القرآن مع الرَّوِيَّة، يظهر له جليًا أنه غير مُمِلّ ولا مُكِلّ لِمثال يجب أن يعرف أنه نفس عظيمة، خاضت معامع التجارِب وعادت بالفوز مسرُورة، وإنَّا لَنَرى من السُّور المُوحاة بمكَّة أن قصده واحد وهو الله، وموضوعه واحد كذلك وهو دعوة الناس وردهم عن عبادة الأصنام إلى عبادة الله وحده.

هو كتاب يُخْبِر الناس عن الله -عزّ وجلّ- بأمثال بديعة حَسَنة تأخذ بألباب ذوي الألباب، صادرة عن قلب مملوء غَيْرة، وكثيرًا ما يدلُّهم بمظاهر الطبيعة عن خالقها القادر، لكن بتصوُّرات عربية بلغت الغاية من الحُسن واللُّطف، تراه باذلاً جهده ليعلِّمهم من هو الله مُقْنِعًا إياهم بعظيم قُدْرته وحكمته وعدله،

---

(١) لبان: المقصود جوهره الفِكْريّ.

(٢) لاشاها: جنَّبها وتجنَّبها.

فالقرآن -من أوله إلى آخره- كتاب جوهريّ مفيد يجب استماعه. وفي السُّور المُوحاة في المدينة ترى نصوص الشرائع التي هَدَت الرجال والنساء منذ زمان محمد ﷺ إلى الآن.

وقال المستر (رودول) في مقدمته عن القرآن الذي ترجمه إلى الإنجليزية ما تَعْرِيبُه:

إذا تدبَّرنا سُوَر القرآن بوجه عام، تشرئبّ[1] نفوسنا لنعرف قائلها ابتداءً منذ نشأته فاحصًا عن الحق المبين، مُثْبِتًا إياه بطرق فصيحة جدًا؛ لجذب قومه تدريجًا حتى صار مؤسِّسًا لسياسة متينة سنَّ لها شرائع وقوانين بحَسْب الُّلزوم.

وقال الدكتور (أستنكا) في مقالة بعث بها إلى صاحب كتاب «قاموس العقائد والمعاملات الإسلامية» ما تعريبه:

لقد طلبتم مني أن أصف لكم (القرآن) وإني لا أرى له وصفًا صادقًا كالوصف الذي بعث به العلامة (كوز) ونقله عن المستر (رودول) في مقدمته عن (القرآن) حيث قال:

إذا نحن عزمنا على قراءة (القرآن) فإنه قد يداخلنا بعض الملل بادئ ذي بدء، ثم نرى لنا منه جاذبًا قويًا يُجْبِرنا على قراءته باستغراق، ونجده يجبرنا على احترام ذاته من تلقاء ذاته. وفصاحته منطبقة على مفاهيمه العظيمة، وجميع مقاصده كبيرة مخيفة جليَّة. ولسوف يبقى هذا الكتاب مدى الدهر

---

(١) تشرئب: تتطلّع.

متسلطًا قويًا أمينًا؛ فـ(القرآن) كتاب مدهش عجيب، ومثال نَفْع وفائدة لأولئك المفكِّرين أصحاب النُّهى، المهمومين بسعادة الجنس البشري.

... ولقد قلنا كثيرًا -فيما سبق- عن الاعتراف بفضل القرآن الكريم وعلومه وآدابه، وأقول الآن:

(القرآن) أعظم كتاب يخبرنا بصدق عن خلائق وحياة أعظم إنسان تنفَّس الهواء في هذه الدنيا، ولذلك صدق وأحسن فيما قاله العلامة (توماس كِرْليلّ) عندما قال: لقد ظهر لي أن الإخلاص بسائر وجوهه الحِسَان، هو فضيلة القرآن، وهذا الإخلاص وهذه الحَمِيَّة هما نُصْرة الحق، وكذلك العزم الذي لا يعرف الكَلَل لم نَزَلْ نجده في (القرآن) متسلطًا حتى على من لا يحب الاستماع له، ويبدو لي أن هذا الكتاب سيبقى إلى الأبد ختام رسالة محمد ﷺ.

كذلك قال (لوزولف كرهل) في كتابه «حياة محمد»:

إن في (القرآن) شريعة إيمانية تامة وآدابًا فائقة للإنسانية، وفيه قواعد مُنَظِّمة لكل عمل مفيد للناس، وللثروة العمومية، وللتهذيب البشري، وقوانين الأحكام والعدالة، وللتجهيزات العسكرية، ولعمل المعروف مع البائس المُضطَّر، وكل هذه المزايا مبنية على الإيمان بالله واحدًا أحدًا بيده سعادة الإنسان.

هذا ما شهده وشهد به بعض من ذكرناهم من أساطين المستشرقين من علماء (أوروبا) الذين لمعت في قلوبهم أنوار الحكمة القرآنية، والروح الإيمانية، فأعلنوها حقائق صريحة لم يخشوا من الاعتراف بها لومة لائم ولا أوهام واهم، على مقدار ما أُوتوا من العلم باللغة العربية وقواعدها وفنون بلاغتها وتاريخ أدبها وطبيعة أهلها، يلمس القارئ منها ما بلغ إليه إيمانهم

بالكتاب الكريم وعلومه وآدابه وما حوى من شريعة تامَّة وفضائل جمَّة كاملة.

وقد أردنا أن نجعل ذكر مزايا هذه الرسالة المباركة ورسولها صلوات الله عليه وسلامه خاتمة الكتاب، عسى أن تكون ذات أثر عميق في صدور الذين آمنوا بأوروبا وعلمائها واتخذوا من مستكبري زنادقتها لأنفسهم أُسوة في الإلحاد وقدوة في الانحلال والتطوُّح في مهاوِي الضَّلال، ومتابعة تخرُّصات الخيال ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ﴾ [غافر: ٥٦] وتشكيك في كتاب، لا علم لهم بنظمْ مبانيه ولا سُمُوّ معانيه.

نسأل الله سبحانه أن يمنحهم من هُداه ما منح هؤلاء العلماء وأمثالهم من الغربيين من نفاذ البصيرة ونقاء السريرة وأن يرزقهم من حكمة القرآن فضلها، فقد أتى وحيها بلغتهم ﴿ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ ﴾ [الفتح: ٢٦]، ولله دَرُّ العارفين.

الحمد لله العَليّ العظيم الغنيّ الكريم على نعمة القرآن الحكيم، رب العرش العظيم سبحانه والقوم من حولنا تركوا أمر الله واشتغلوا بما يَرْضَوْنَه فعاقبهم نفاقًا في قلوبهم إلى يوم يَلْقَوْنَه.

اللهمَّ إني أسألك بعظمة ذاتك ومشاهد أسمائك وصفاتك وجميع تجليَّاتك أن تصلِّي وتسلِّم على سيدنا محمد ﷺ صلاة وسلامًا دائمين بدوامك باقييْن ببقائك، وأن تَمْنَحَنَا من صلاتك وسلامك عليه وآله صلاة تُخْرِجنا بها من الظُّلمات إلى النور.

يا بارئ النَّسم يا عادلاً فيما قَسَم، نستغفرك من سوء الحال وفساد البال وتراكُم الأجيال وضَيْعة الآمال.

خاب الرَّجاءُ إلا فيك وانقطعت الآمال إلا منك، اللهمَّ إنَّا لم نأتِ الذنوب جَرْأةً منَّا عليك ولا استخفافًا بحقك، ولكنك قلت قولاً شريفًا ﴿ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨]. فهَب اللهم ضعفنا من لَدُنْك قوة وصِل آمالنا في فضلك ولا تَحْمِلنَا على اليأس من فضلك.

مولانا وبارئنا، حارت في بحار بهاء ملكوتك عميقات مذاهب التَّفَكُّر، وتواضَعَت الملوك أمام كبريائك وعِزَّتك، فتقبَّل اللَّهمَّ التجاءنا إليك وعامِلْنا بما أنت أهله، ولا تعاملنا بما نحن أهله. إنك أنت أهل التقوى وأهل المغفرة.

﴿ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴾

مَحْمُودْ عِزِّ الدِّينْ بَرَكَاتْ

جمعية الشبان المسلمين
بالمنصورة

رثاء ووفاء

تعرف جمعية الشبان المسلمين لفقيد الاسلام الاستاذ المغفور له

محمود عز الدين

مكانته العاليه ، ومنزلته الرفيعة ، وجهاده المبرور ، فى رفع كلمة الاسلام ونشر تعاليمه السمحة ، وتزويد جماهير المسلمين بالعلم النافع ، بلسانه الطلق ، وقلمه السيال ، ورأيه الحر ، وفكره المستنير ، وحجته الدامغه ، وطاقاته المخلصه ـ وعرفانا بفضل العاملين فى سبيل الله .

تقيم الجمعية مجلسا قرآنيا علميا بمقرها الجديد بشارع الجيش :

مساء الخميس ٢٥ من جمادى الاولى ١٣٩٢ الموافق ٦ من يوليه ١٩٧٢

وهى تدعو اليه جماهير المسلمين عامة ، وتلاميذ الفقيد ومريديه خاصة للاستماع الى آيات الكتاب المبين ، والانتفاع بتسجيلات الاستاذ الراحل ، وكلمات الرثاء من العلماء والشعراء

و إنا لله وإنا إليه راجعون

رئيس مجلس الادارة
محمد محب حماد
المحامى

مكتبة ومطبعة النهضة ت ٤٩٣٢

قلت أفعل إن شاء الله:

بقلم الكاتب الكبير: أنيس منصور

في جريدة (أخبار اليوم) المصرية، العدد (٢١٦٨)، السنة (الثانية والأربعون)، بتاريخ (١٩٨٦/٥/١٧م)، (٩ رمضان ١٤٠٦هـ).

كتب الأستاذ: أنيس منصور مقالاً مُطَوَّلاً على (الصفحة السابعة) تحت عنوان «قلتُ أفعلُ إن شاءَ الله» تناول فيه بداياته كمفكِّر وفيلسُوف، وأيَّام صِباه في مدينة المنصورة بالدقهلية.

في إحدى فقراته، تناول لقاءه بالأستاذ/ محمود عز الدين إمام وخطيب مسجد حسين بك بالدقهلية سابقًا، مؤلف «الكتاب المكنون» واستماعه لحديثه - يقول:

... ثم استقرَّ بنا الطَّواف عند مسجد (الشيخ حسين)، وكان الخطيب فصيحًا بليغًا يعرف كيف يقول ويدري إلى من يقول، وكان بارعًا في التقاط الآيات والأحاديث والأبيات ويهزّ الناس ويُوقِظهم من التَّرْغيب والتَّرْهيب. من الجنَّة والنَّار. من الدُّنيا والآخِرة، والناس تقول: الله ... إن جاء وصف جهنَّم بليغًا أو وصف الجنة جميلاً، فهو أديب وهم يتذوَّقون الأدب، وكان هذا الخطيب هو أول من دفعني إلى التذوُّق الأدبيّ.. وإلى البحث عن الأسماء التي تجيء في خطبته .. فقد سمعت اسم شوقي أمير الشعراء لأوَّل مرة وحافظ إبراهيم والعقاد وطه حسين.. وأبي العلاء والمتنبيِّ وابن زيدُون والحلاَّج وابن الفارِض والجَلالَيْن ... وغيرها أسماء كثيرة تلقَّى منه ومن الناس عظيم الاحترام.

ما الذي كان يقول عن العقاد. لا أعرف بالضبط .. ولكنَّه لم يكن راضيًا عنه تمامًا.. ولا عن طه حسين.. ولم يكن واضحًا أو كان واضحًا لكل الناس، ولكني لم أَجِدْهُ كذلك.

وهو الذي دفعني دفعًا لقراءة سيرة ابن هشام. التي أخذ عنها طه حسين «على هامش السيرة» ولم أكن أعرف ذلك. وكذلك فعل العقاد عندما كتب عن «عبقرية محمد» ومحمد حسنين هيكل باشا عندما كتب عن «محمد».

وأشكرُ للشيخ (محمود) خطيب هذا المسجد أن فتح لنا الطريق أمام هذه الكتب وهؤلاء المؤلِّفين العظام.

هل نصحنا -نحن الطلبة- أن نقرأ بأنفسنا ولأنفسنا سيرة الرسول ﷺ وأصحابه الكرام. أي نقرأ سيرة ابن هشام قبل أن نقرأ للعقَّاد وطَهَ حُسَيْن والحكيم وهيكل؟ هل يرى أن ذلك أسهل؟ هل يرى أنه أفضل لنا أن نعرف بأنفسنا، وأن نتعب وأن نُكَابِد كما فعل هؤلاء الكبار وأن نستنتج ما يُعْجِبنا. بدلاً من أن نقرأ لهؤلاء الكبار نقرأ الذي استنتجوه والذي أعجبهم واستراحُوا إليه في السيرة النبويَّة هل هو الذين علَّمنا ذلك أو هل نحن الذين استنتجنا ذلك؟ ورأينا من الأفضل لنا أن نعتمد على عقولنا، وليس على عقول الآخرين .. أن نحبُو .. وأن نتمشَّى ونتساند على الأشياء ونقع ثم ننهض من جديد وهي المبادئ الأساسية للمشي الصحيح .. أي بدلاً من أن يحملنا هؤلاء ويوفروا علينا متاعب المشي والتساند والاعتماد على النفس.

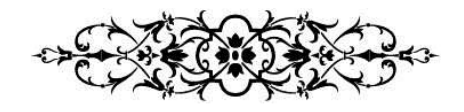
هل هذا الخطيب الشيخ (محمود) هو الذي نبَّهني إلى أن هناك كتابًا للشيخ رفاعه رافع الطَّهْطَاوي عن السيرة النبوية بعنوان «نهاية الإيجاز في سيرة ساكِن الحجاز» -ثم ينتقل للحديث عن الشيخ رفاعه- وأنه هو شجعنا بفضل

هذا الكتاب على كثير من الكتب؛ لأن المؤلِّف رجل طيب، وفقيه بسيط، وأنه لا يدَّعِي الثقافة والعبقرية، وأنه على مستوى القُرَّاء. فقد جَمَع لهم المعلومات. ونَسَّقها ووضعها أمامهم، وترك لهم أن يرسموا للرسول ﷺ الصورة التي يُحِبُّونَها.

ولم أَهْتَدِ إلى هذا الكتاب إلا بعد ذلك بوقت طويل. فهو يقع في ٨٠٠ صفحة.

دُنيا... أنيس منصور

القاهرة



الفهرس

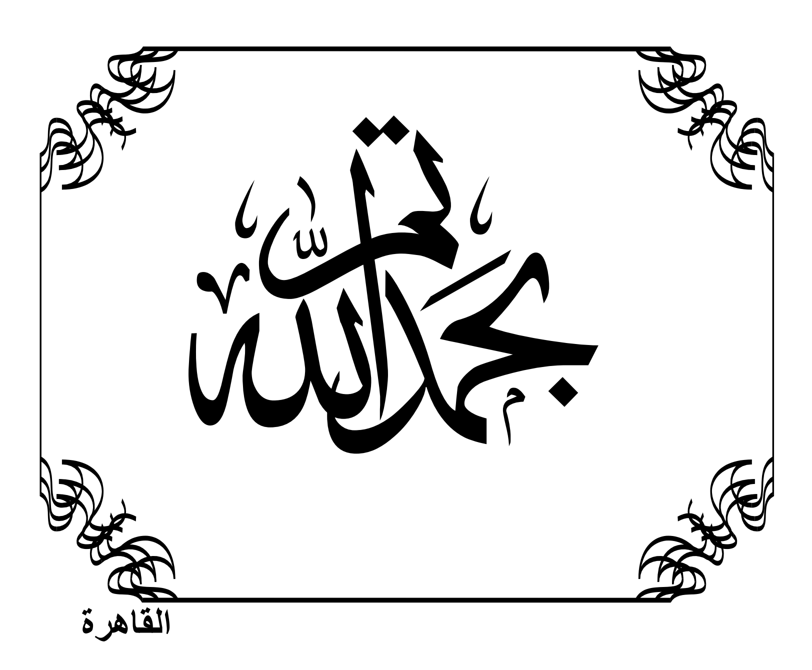
الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الصفحة الموضوع

الصفحة الموضوع





القاهرة

٢٥ أغسطس ٢٠٠٩م

٤ رمضان ١٤٣٠هـ

قريبًا للمؤلف إن شاء الله

القبس الخالد رسالة التوحيد